

نَفَحَاتُ الْقُرْآنِ

الجزء العاشر
القرآن الكريم والحكومة الإسلامية

أسلوب جديد في التفسير الموضوعي
للقرآن الكريم

سماعة العلامة المحقق الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

بمساعدة مجموعة من الفضلاء

سماحة العلامة المحقق
الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

نفحات القرآن

أسلوب جديد في التفسير الموضوعي
للقرآن الكريم

الجزء العاشر
القرآن الكريم و الحكومة الإسلامية

بمساعدة
مجموعة من الفضلاء



هوية الكتاب

- الكتاب..... نفحات القرآن / ج ١٠
- المؤلف آية الله العظمى مكارم الشيرازي
- عدد النسخ..... ٢٠٠٠
- قطع وزيري..... ٤٢٤ صفحة
- المطبعة..... الحيدري
- الناشر..... مؤسسة أبي صالح للنشر و الثقافة

شابک: X-٩-١٥٩-٩-٩٦٤

اقتران بين «الامامة» و «الحكومة»

تحدثنا في المجلد السابق من رسالة القرآن (المجلد التاسع) عن مسألة الامامة و الولاية من وجهة نظر القرآن الكريم، و حيث أن مسألة (الامامة) لا تنفصل عن مسألة (الحكومة) بل أنّ روح الامامة و الولاية تعني حكومة النفوس والابدان، و هدايتها الى الصراط المستقيم و التحرك نحو الكمال و السعادة، لذا وجب علينا بحث مسألة (الحكومة الاسلامية) بعد الانتهاء من بحث مسألة (الامامة) و القيام بتحليلها و تفصيلها، حيث لن يكتمل موضوع الامامة و الولاية بذلك القدر.

ألم نُعدّ اقامة حكومة العدل الواحدة في العالم احدى أهم الخصائص للإمام المهدي (عج)؟ و نعني به نفس الشيء الذي كان بصدد الرسول ﷺ و باقي الائمة عليهم السلام، ولم تتم الفرصة لا في حيث الزمان ولا المكان للوصول اليه بالرغم في وجود الأسس اللازمة لإقامتها. نعم لقد بذل الجميع جهوداً للوصول الى تشكيل حكومة العدل الالهي. فكيف يمكن اذن فصل موضوع (الحكومة) عن (الامامة)؟ بل ولقد بدأ الرسول ﷺ بعد الانتصار في الغزوات الاولى بتشكيل الحكومة الاسلامية و اعتبرها ركناً مهماً من اركان الاسلام، بل الضامن الوحيد لإجراء القوانين باكملها. و قد كان الهمّ الوحيد لأولئك الذين خلفوا الرسول ﷺ سواء كانت خلافتهم حقّة ام لم تكن هو تشكيل وادامة الحكومة الاسلامية.

و لقد دعى سكان الكوفة الامام الحسين عليه السلام الى تشكيل الحكومة الحقّة و محاربة غاصبيها ولو لا نقض العهد من قبل اهل الكوفة و تخاذلهم و عدم وفائهم،

لرفع الامام عليه السلام علم الحكومة الاسلامية عالياً. والرويات الواردة عن طريق الائمة المعصومين عليه السلام ونهج البلاغة احتوت على تعابير كثيرة توضّح من خلالها ان اعداءهم قد غصبوا الحق منهم، وهذا الحق ليس الا (حكومة العدل الاسلامية). كل هذه الادلة وتلك الشواهد التي لا تُحصى برهان آخر على ان مسألة (الامامة) لا تنفصل عن (الخلافة) و (الحكومة).

و نرى في رواية (هارون الرشيد) الذي اراد بزعمه ان يُرجع «فدك» الى الامام موسى بن جعفر عليه السلام ملاحظة جديرة بالاهتمام لتوضيح المقصود: إن (فدك) - وكما هو معلوم - ضيعة قريبة من (خيبر) وكانت خضراء يانعة، وقد وهبها الرسول ﷺ الى ابنته الزهراء عليها السلام في حياته، وقد اغتصبت منها بعد وفاته مباشرة فكانت دائماً موضع اعتراض المحبين لاهل البيت عليه السلام فلذلك وبعد الرأي العام، فكر الرشيد بارجاعها الى اولاد فاطمة عليه السلام فقال للامام موسى بن جعفر عليه السلام: «حدّ فدكاً حتى اردّها إليك» حتى ألحّ عليه. فأبى الإمام عليه السلام.

فقال الامام موسى الكاظم عليه السلام: لا آخذها الا بحدودها.

قال هارون: وما حدودها؟

قال الامام عليه السلام: إن حددتها لم تردّها.

قال هارون: بحق جدك إلا فعلت.

قال الامام عليه السلام: أمّا حدّ الأوّل فعدن، فتغيّر وجه الرشيد. وقال: أيها.

قال الامام عليه السلام: والحدّ الثاني سمرقند. فاربد وجهه.

قال عليه السلام: والحدّ الثالث أفريقية، فاسودّ وجهه.

وقال هارون: هيه.

قال الامام عليه السلام: والرابع سيف البحر ممّا يلي الجزر وارمينية.

قال الرّشيد: فلم يبقَ لنا شيء، فتحوّل إلى مجلسي.

قال الامام عليه السلام: قد أعلمتك أنّي إن حدثتها لم تردّها فعند ذلك عزم على قتلي^(١).

هذا الحديث يدلّ على أن بين مسألة (فدك) و (الخلافة) رابطة قوية و تعني أن ما عُصِبُ كان خلافة رسول الله ﷺ والتي تعتبر ذلك جزءاً، ولو أراد هارون ارجاع فدك لكان يجب عليه أن يتخلّى عن الخلافة، ممّا أشعره أن الامام إذا ما وصل الى حالة من القوة لفعل ذلك و سيتولّى الخلافة حتماً، لذا عزم على قتله^(٢).

إنّ ذلك يعني ان اقتران المسائل الخاصة بالامامة مع تلك الخاصة بالحكومة و زعامة المسلمين مما لا تقبل الشكّ، حيث نرى أثر ذلك في كل مكان تقريباً، و نرى ذلك ايضاً بوضوح في الآيات و الروايات الاسلامية و حتى تاريخ السيرة النبوية ﷺ و ائمة الدين العظام، و كذا في طبيعة الاحكام الاسلامية.

و لقد أجملت مباحث الفقه الاسلامي في ثلاثة اقسام هي: قسم «العبادات» و قسم «العاملات»، و قسم «السياسة».

و يعتبر قسم (السياسة) و الذي هو من الابواب الفقهية المهمة و يشتمل على مسائل عدة مثل (الجهاد، الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، القضاء و الشهادات، الحدود و الديّات و القصاص) جزءاً من المسائل المتعلقة بالحكومة، اذاً لا يمكن اجراء اقسام الجهاد و بعضاً من مسائل الامر بالمعروف والنهي عن المنكر و كذلك القضاء و الشهادات و تنفيذ الحدود و القصاص بدون وجود الحكومة على الاطلاق. و ترسم كذلك المسائل المرتبطة بالانفال و الخمس و الزكاة و الاراضي الخاصة

١. بحار الانوار: ج ٤٨، ص ١٤٤ (نقلاً عن كتاب أخبار الخلفاء).

٢. الزهراء سيدة نساء العالم، ص ١٣٠.

بالخراج الحطوط العريضة لجزء مهم من الحكومة باعتبارها الدعامة الاساسية لإقامة بيت المال الاسلامي.

و على هذا فقد امتزجت المسائل السياسية والحكومية بالفقه الاسلامي بشكل كامل بحيث لا يمكن وضعها موضوع التنفيذ دون تشكيل الحكومة.

كل ذلك شاهد جلي على أن الاسلام ليس بمعزل عن الحكومة والسياسة، وقد نفذت المسائل المتعلقة بالحكومة والسياسة - والتي تعني ادارته نظام المجتمع - في التعاليم الاسلامية بصورة لو اردنا أن نفصل بينها لن يكون للاسلام معنى و مفهوماً، والذين يحاولون فصلهما عن بعضهما يقومون في الواقع (بفصل الاسلام عن اسلام)، والاسلام بدون الاسلام تناقض واضح.

يتبين لنا خلال ذلك السبب الذي دفع بنا الى بحث مسائل الحكومة و زعامة المسلمين بعد انتهائنا من بحث الامامة في المجلد السابق.

* * *

ضرورة اقامة الحكومة

في

المجتمع البشري

تمهيد:

بعد ملاحظة الصلة الوثيقة بين الامامة والحكومة نصل الى مسألة مهمة اخرى الا وهي ضرورة وجود الحكومة للمجتمعات البشرية.

وكما يُبين لنا التاريخ، أن هناك انواعاً معينه في الحكومة في المجتمعات البشرية، كحكومة القبيلة، و حكومة الملوك و السلاطين، و حكومات من النوع الذي نشهده في الوقت الحاضر و يعني ذلك أن البشر و عبر مراحلهم العلمية والثقافية يُدرك تماماً ضرورة وجود الحكومة، و يعلم كذلك أنّ الحياة الاجتماعية من دون تحكيم عن النظام و القانون لا يمكن ايجادها ولو ليوم واحد.

و لهذا السبب يمكن ملاحظة الهرج والمرج والشغب الذي يكون بُعَيْدَ سقوط حكومة ما و حتى قيام حكومة اخرى حيث يبسط النظام الجديد ظله الحياه، فيحترق كل شيء متحولاً الى رماد.

لذا فلا يمكن لأي عاقل أن يشك في ضرورة وجود الحكومة للمجتمعات البشرية، و قد وردت الكثير من الآيات والروايات الاسلامية التي تصرّح و تلمح الى هذا المعنى والذي نشير اليه باختصار:

١ - نطالع في قصة بني اسرائيل انه و على أثر الفوضى الداخلية و غياب الحكم القوي قد أصابهم الضعف والاند حار و تسلط الاعداء عليهم، فجاءوا الى نبي لهم طالبين تعيين حاكم لهم حتى يتسنى لهم السير في طريق الله تحت إمرته، يقول

القرآن الكريم: ﴿أَلَمْ تَر إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَآئِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لَنَبِيِّهِمْ أَهْمَ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا، قَالُوا وَمَا لَنَا أَنْ لَا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾^(١).

مع أن هذه الآية تشير الى أبعاد و آثار وجود الحاكم على قوم أو شعب في مسألة الجهاد ضد العدو الخارجي و تطهير الارض من دنس الأجنبي و تحرير الأسرى، إلا أن تلك الابعاد تطال معانٍ أخرى حيث تصدق فيها كذلك.

والقرآن يوضح بهذا التعبير أن الوصول الى الحرية و الاستقرار الاجتماعي مستحيل بدون وجود الحكومة والحكم القوي. و قد يُتصور هنا أن بني اسرائيل أرادوا قائداً للجيش فقط لا حاكماً عليهم، إلا أنه يجب ملاحظة كلمة (ملك) والتي تعني الحاكم على جميع الشؤون وإن كان المعنى العام للقصة يشير الى وجود ساحة قتال مع عدو خارجي.

والحقيقة أن النبي (أشموئيل) في ذلك الوقت كان بملك صلاحية قيادة المجتمع كذلك، بينما كان لطالوت الذي انتخبه لبني اسرائيل دور القائد للجيش.

٢ - و يورد القرآن الكريم في ذيل هذه الآيات المذكورة، خبر اندحار جيش جالوت في مقابل بني اسرائيل، حيث يقول: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِأَذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مَا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(٢).

و تشير الجملة الاخيرة الى انه لو لا وجود حكومة قوية و مهيبة تقف بوجه الطغاة والخارجين على القانون، لامتألت الارض بالفساد، و على هذا فان الحكومة العادلة

١. البقرة: ٢٤٦.

٢. البقرة: ٢٥١.

هي هبة من الله للحدّ من الفساد الديني والاجتماعي.

٣ - وقد ورد معنىً مشابهاً لهذا في الآية (٤٠) من سورة الحج حيث تقول بعد اعطاء الضوء الاخضر للمسلمين للجهاد ضد الاعداء: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ ديارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتَّ سَوَاقُ الْبَشَرِ لَكِنَّ اللَّهَ قَدْ رَفَعَ ذِكْرَ مُحَمَّدٍ وَفَعَلَ مَا يَشَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الْفَتْحُ وَالْظُّفَرُ﴾.

وهنا ايضاً كان الحديث عن دور الحكومة في البعد الجهادي، ولكن من الطبيعي أن الجهاد من دون التشكلات المنظمة السياسية والاجتماعية والاقتصادية لا يمكن تحقيقه، ذلك أن المجاهدين يتألفون من قسمين: «القوّات العسكرية» و «القوّات الشعبية» و تعتبر الاخيرة الظهير الساند وراء الجبهة والتي تضمّ في الواقع كل المجتمع.

٤ - وفي الآية التي تليها (الحج - ٤١) نقرأ عبارة تشير الى المؤمنين الحقيقيين: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾.

وتشير هذه الآية ضمناً إلى أن اقامة الصلاة و اداء الزكاة و الامر بالمعروف والنهي عن المنكر (في معناها الواسع و العام) لا يتيسر إلا عن طريق تشكيل الحكومة، ولذا فالآية تصف المؤمنين الحقيقيين بأنهم عند ما يمتلكون القدرة و يصلون إلى تشكيل الحكومة فإنهم سيقومون هذه الفرائض الالهية الكبيرة، وهنا يتبيّن لنا دور الحكومة في اصلاح المجتمع من وجهة نظر الاسلام.

٥ - تشير الآيات (٤٣ - ٥٦) من سورة يوسف بوضوح الى حدثٍ يتبيّن من خلاله ضرورة الحكومة، و ذلك أن سلطان مصر يرى حُلماً و يطلب من يوسف الذي كان وقتها في السجن أن يفسّر له ذلك الحلم بدقّة بعد أن ذاع صيته في تفسير الاحلام،

فيكشف يوسف شيئاً من مستقبل مصر من خلال ذلك الحُلم حيث تنتظر مصر سبع سنوات من القحط والجوع، و اذا مرّوا خلال تلك السنين بسلام فإنهم سيلاقون سنين الخير والرفاه، ثم يُبيّن كيفية اجراء الاعمال الضرورية لمواجهة تلك السنين الصعبة و طرق تحضير و خزن المواد الغذائية و طريقة الاستهلاك، فيطلق السلطان سراحه و يخرج من السجن ثم يعيّنه مسؤولاً عن خزانة مصر، و هكذا يتم انقاذ شعب كبير بأكمله و ذلك بمديرية يوسف الصحيحة جنباً الى جنب مع سلطان مصر.

تبين هذه القصة بشكل لا لبس فيه ضرورة وجود الحكومة المدبرة والمدبرة و المطلعة بمهامها لادارة المجتمعات الانسانية و خصوصاً في الوقائع الصعبة، و أنّه اذا ما حُرمت هذه المجتمعات من الحكومات من تلك النوع فانها لا محالة ستقع في مشاكل عويصة مما ستُسبّب لها اضراراً جسمية لا يمكن تعويضها.

٦ - نلاحظ الكثير من الآيات القرآنية تشير الى أن الحكومة الالهية أنّما هي نعمة من نِعَمِ الله، و ذلك بملاحظة الحكومة و دورها الفعّال في تنظيم المجتمع الانساني والحيلولة دون بروز الظلم و العدوان، و توفير الجو الملائم للوصول الى الكمال الانساني.

و من ذلك الآية (٧٩) من سورة الانبياء حيث تقول عن النبي داود عليه السلام وابنه سليمان عليه السلام: ﴿وَكَلَّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

والآية (٢٠) من سورة المائدة عندما تُعدّ نعم الله الكثيرة على بني اسرائيل تقول: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾.

وطبعاً لم يكن جميع بني اسرائيل حكماء و سلاطين، لكن عندما ينتخبوا من بينهم حاكماً و ملكاً عليهم فان الخطاب يكون الى مجموعهم بأنهم ملوك و سلاطين

باعتبارهم واحد.

و تتحدث الآية (٣٥) من سورة قَالَهُ وَكَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ سَلِيمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَصَرِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾. وتُشير الآيات التي تليها الى أن الله سبحانه استجاب دعاءه و وهب له حكومة عظيمة ومواهب كثيرة لا نظير لها. وجاء في الآية (٥٤) من سورة النساء: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾.

وتكمن أهمية هذه المسألة في أنّ الله سبحانه يُعِدُّ موهبة الحكم مرادفة للعزة و يعتبر فقدانها قرينة للذلة.

يقول سبحانه في الآية (٢٦) من (آل عمران): ﴿قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

تشير كل الآيات التي اوردناها اعلاه الى أهمية وجود الحكومة للمجتمعات البشرية من وجهة نظر القرآن الكريم، وفي الواقع إنّ هذا الآيات نافذة على العالم الواسع للحكومة في المجتمعات البشرية.



ضرورة الحكومة من خلال الروايات الاسلامية

تُعَدُّ مسألة ضرورة الحكومة ذات اهمية كبيرة في الروايات الاسلامية، وقد بيّنت تلك الروايات أن لا يمكن للناس العيش دون وجود الحكومة، وأنَّ وجود حكومة

وإن كانت ظالمة خيرة من الفوضى في غياب الحكومة.

نطالع معاً نموذجاً من تلك الروايات ذات المعنى المذكور:

١ - عن أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة جواباً على ادعاء الخوارج حين قالوا «لا حكم إلا لله»، فقال عليه السلام «كلمة حق يُراد بها باطل»، ثم استطرد قائلاً: «نعم أنه لا حكم إلا لله ولكن هؤلاء يقولون لإمرة الآله، وأنه لا بد للناس من أمير برّ أو فاجر يعمل في أمرته المؤمن ويستمتع فيها الكافر، و يبلغ الله فيها الأجل و يجمع به الفياء و يقاتل به العدو، و تأمن به السبل و يؤخذ به للضعيف من القوي حتى يستريح برّ و يستراح من فاجر»^(١).

و بديهياً أن الإمام علي عليه السلام لم يقصد من عبارة «أمير برّ أو فاجر» أن هذين متساويين، بل قصد به أنه لا بد من وجود حاكم عادل و صالح، والأفوجود حاكم وإن كان ظالم خيراً من الفوضى والشغب، و على كل حال فلا تنفي هذه الحالة الأخيرة الحكم الإلهي الصالح على العالم كله، ذلك أن الحكم يشبه النبوة والقضاء التابعان من ذات الخالق المقدسة. و لقد بيّنت هذه العبارة ضمناً الأبعاد المختلفة لفلسفة الحكومة والادلة الواردة في اثبات ضرورتها و سنبحث ذلك بالتفصيل في صفحات قادمة.

٢ - أشير في الروايات المعروفة والتي نقلها (الفضل بن شاذان) عن الإمام الرضا عليه السلام الى ثلاث نقاط مهمة حيث بيّن فيها دلائل و اسباب تعيين (اولوا الأمر) والحكم في المجتمع؛

قال الفضل بن شاذان إنه سمع من الرضا عليه السلام مرّة بعد مرّة شيئاً بعد شيء، أنه قال: فإن قال فلم جعل أولي الأمر وأمر بطاعتهم؟

قيل: لعل كثيرة منها أن الخلق كما وقفوا على حد محدود وأمروا ألا يتعدوا ذلك الحد لما فيه من فسادهم لم يكن يثبت ذلك، ولا يقوم الابان يجعل عليهم فيه أميناً يمنعهم من التعدي والدخول فيما حظر عليهم لأنه لو لم يكن ذلك كذلك لكان أحد لا يترك لذته ومنفعته لفساد غيره، فجعل عليهم فيما يمنعهم من الفساد و يتيم فيهم الحدود والاحكام.

و منها: أنا لا نجد فرقة من الفرق ولا ملة من الملل بقوا وعاشوا إلا بتييم ورئيس كما لا بدّ بولهم منه في أمر الدين، فلم يجز في حكم الحكيم أن يترك الخلق مما يعلم أنه لا يدلهم منه ولا قوام إلا به، فيقاتلون فيه عدوهم و يتسمون به فيئهم، و يتيم لهم جمعتهم و جماعتهم، و يمنع ظالمهم من مظلومهم.

و منها: إنه لو لم يجعل لهم إماماً قيماً أميناً حافظاً مستودعاً لدرست الملة و ذهب الدين و غيرت السنة والاحكام، ولزاد فيه المبتدعون و نقص منه الملحدون، و شبّوها على المسلمين لانا قد وجدنا الخلق منقوصين محتاجين غير كاملين، مع اختلافهم واختلاف أهوائهم و تشتت إنحائهم، فلو لم يجعل لهم قيماً حافظاً لما جاء به الرسول لفسدوا على نحو ما بيّنا و غيرت الشرايع والسنن والاحكام والايمان و كان في ذلك فساد الخلق أجمعين^(١).

٣- في تفسير النعماني عن أمير المؤمنين عليه السلام و عند ذكر آية من القرآن الكريم مثل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾^(٢) وآية ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(٣) أنه كان يقول: «وفي هذا أوضح دليل على أنه لا

١. بحار الانوار، المجلد السادس، ص ٦٠، الرواية طويلة لكننا انتخبنا قسماً منها.

٢. سورة الانفال: ٢٤.

٣. سورة البقرة: ١٧٩.

بَدَّ لِلأمة من إمام يقومه بأمرهم فيأمرهم ويناهم ويُقيم فيهم الحدود ويجاهد العدو،
و يقسّم الغنائم و يفرض الفرائض و يعرفهم ابواب ما فيه صلاحهم و يخذرهم ما
فيه مضارهم، إذ كان الأمر والنهي أحد اسباب بقاء الخلق، والأ سقطة الرغبة
والرّهبة، و لم يُرتدع، ولفسد التدبير و كان ذلك سبباً لهلاك العباد»^(١).

وقد ورد عن الامام الصادق عليه السلام في حديث آخر أنه قال: «لا يستغني أهل كل بلد
عن ثلاثة يُفزع اليه في أمر دنياهم و آخرتهم، فإن عُدِموا ذلك كانوا همجاً: فقيه
عالم ورع، وأمير خير مُطاع، و طبيب بصير ثقة»^(٢).

و قلنا مراراً أن ما ورد في الروايات الاسلامية يدل على ضرورة وجود حكومة و
ان كان ظالمة على الفوضى، حيث نقرأ لأمر المؤمنين قوله: «وال ظلوم غشوم خير
من فتنة تدوم»^(٣).

و يعني ذلك أنه حتى في حالة عدم القدرة على تحقيق حكومة عادلة فلا أقل من
اقامة حكومة و ان كانت ظالمة و جائرة و ذلك في سبيل الاستقرار والأمن للبلد و
حدوده و منع العدوان عليه، و في غير هذه الحالة تسود حالة من اللأمن والتدهور
حيث ستراق دماء الكثير من الأبرياء دون أيّ وازع مما سيسهل على الاعداء النفوذ
الى داخل البلد و السيطرة عليه.



١. بحار الانوار المجلد (٩٠)، ص ٤١.

٢. المصدر السابق: جلد (٧٥)، ص ٢٣٥.

٣. غرر الحكم، المجلد (٢)، ص ٧٨٤ ج ٥٠ باب الداد.

ضرورة الحكومة في المنظار العقلي:

كان ما ذكرناه اعلاه ضرورة الحكومة في المنظار القرآني و الروائي والتي اشارت جميعها وبالأدلة الدامغة على ضرورة وجود الحكومة للمجتمعات الانسانية. وهنا نُشير الى ضرورة الحكومة و من خلال الادلة العقلية حتى تتضح المسألة لنا أكثر. تنطلق هذه الادلة احياناً من منظار شخص يؤمن بالتوحيد، و احياناً اخرى نراها بمنظار الشخص المادي، حيث نلاحظ عاملاً مشتركاً بينهما وهو اعتقادهما بضرورة وجود الحكومة للمجتمع البشري وإن كانت آراؤهما تتفاوت و تتباين في أحيان أخرى.

و يمكن الاشارة الى الادلة المشتركة في المنظار العام فيما يخص هذه الموضوع وهي:

أولاً: إن حياة الانسان تنطبع بطابع اجتماعي بحيث لو خَلَتْ حياته من هذه الصفة فأنها ستكون في ادنى مستوى لها من الجاهلية والوحشية والا بنحطاط، لأن كل المنافع و الآثار الايجابية والبناءة في حياة البشر بما فيها الحضارة والتقدم والكمال والعلوم والفنون والصناعات المختلفة، كلها نابعة من بركة الحياة الاجتماعية والعمل المشترك والتعاون فيما بين البشر في المجالات المتعددة. فما لَمْ تَنْظَمْ الطاقات الفكرية والبدنية البسيطة بعضها الى البعض الآخر، فلا مجال لوجود الحركات والانبعاثات العظيمة في المجتمع بأي حال من الأحوال. وببساطة: لو انفصل الانسان عن المجتمع فأنه حتماً سيكون كالحيوان، فمن جهة نجد الرغبات والآمال الداخلية والحياة الاجتماعية التي توهبه كل تلك القدرة والامكان للتقدم والتطور نحو الافضل، ومن جهة أخرى بما أن الحياة الانسانية في داخل المجتمع على الرغم من كل تلك الآلاء والتعم لا تخلو من التنازع والمنافسة

ليس بسبب غلبه الانانية وحب الذات فقط، بل لاشتباه الكثير من أفراد المجتمع في تشخيص الحدود والحقوق فيما بينهم، لذا فإن دور القوانين هنا يكون ضرورياً لتحديد حقوق الأفراد و تسدّ الطريق أمام التعديّات والتجاوزات اللامشروعة.

كذلك فإن هذه القوانين لا يمكن أن تؤثر لوحدتها في دحر التجاوزات والنزاعات إلا إذا انبرى الى تنفيذها أفرادٌ يُعتمد عليهم في المجتمع، وبعبارة أخرى، فالحكومة وحدها تستطيع أن تعزّز القوانين وتنفذها في المجتمع و تحول دون انتشار الفساد و سفك الدماء والاعتداء على حقوق الآخرين - ولو بصورة نسبية.

و لذلك نرى أن الاقوام البشرية و منذ القدم سعت الى ايجاد حكومة لها. ثانياً: لو افترضنا أنه يمكن للناس العيش بسلام بدون حكومة (وهو مُحال بالطبع)، فلا يمكن على اية حال الوصول الى التقدّم والكمال في العلوم والمعارف والصناعات ومختلف الشؤون الاجتماعية دون وجود برنامج دقيق ومديرية عالمية، وهذه هي اشكال أخرى للحكومة.

و من هذا المنطلق فإن جميع العقلاء في العالم يؤكدون على ضرورة تشكيل الحكومة للمجتمعات البشرية إلا ما يُرى نادراً في كلمات بعض المؤيدين للشيوعية من أنه لو قُضي على النظام الطبقي للمجتمع فلا تعود هناك ضرورة لأي حكومة، اذ يعتقدون أنّ الدولة والحكومة انما تُساعد على الحفاظ على منافع الطبقة الرأسمالية وحسب، و عندما يتمّ القضاء على هذه الطبقة فإنه لن يبقى سبب لوجود الحكومة. ولكن من الواضح أن كل ذلك انما هو محض خيال وأوهام لا وزن لها في ميزان العقل والمنطق، ذلك أنّ الوصول الى حالة عدم وجود الطبقة في العالم، أو أن يكون كل البشر في مستوى معاشي واحد، انما هو حُلْمٌ و خيال لا اكثر و خاصة في الوضع الحالي الذي تمرّ به المجتمعات البشرية.

و لو فرضنا أننا يمكننا الوصول الى مجتمع كهذا والقضاء على النظام الطبقي والحكومي الحافظ لهذا النظام، تبقى الحاجة الى برنامج دقيق و مديرية ضرورية للوصول الى التقدّم العلمي والصناعي والحفاظ على السلامة الاجتماعية والنظام والحرية و تأمين الغذاء والسكن و سائر الاحتياجات. فهل يمكن مثلاً الاستغناء عن وزارة التربية والتعليم في سبيل وضع برنامج صحيح لفرض تعليم و تربية التشبية؟ و هل يمكن بدون وجود وزارة الصناعة الحفاظ على العوامل الصناعية؟ و هل بالامكان ردّ العدوان والهجوم الاجنبي دون وجود وزارة الدفاع؟ ولو افترضنا عدم حدوث حرب في العالم، فهل يمكن ايجاد النّظم في المجتمع الانساني مع غياب قوى الأمن في ذلك المجتمع؟

على اية حال فان هذه المسألة تعتبر من البديهيات وهي أنّ المجتمع الانساني لا يمكنه العيش بسلام دون وجود الحكومة ولو ليوم واحد. وحتى الذين لا يؤيدون هذه القاعدة لم يصلوا الى اية نتيجة و رجعوا خائبين.

صحيح أنّ الحكومات المستبدّة والظالمة هي التي تكون. يؤرة للفساد و منبع البؤس على طول التاريخ للبشرية و لا تزال، ولكن لو حدث و تهدّم النظام القائم لهذه الحكومات و تأخر تشكيل حكومة اخرى تخلف تلك الحكومة ليوم أو أكثر، في حالة غياب الحكومة، فستكون النتيجة لذلك الهرج والمرج العجيبين و حالة من اللأمن والتدهور وازدياد الشّغَب في جميع البلاد، و ستعلم أنّ وجود الحكومة الظالمة أفضل بكثير من غيابها.

وامّا الذين يؤمنون بارسال الرّسل وانزال الكتب السماوية من قِبَل الله تعالى فهم يفهمون مسألة ضرورة الحكومة بشكل أوضح واكثر بياناً، لأنّهم يؤيدون من جهة الاهداف التي من أجلها بُعث الانبياء والتي ذُكرت في المصادر اللاهوتية، اضافة الى

الأدلة العقلية التي تسندها، وأنّ الوضع بدون تشكيل الحكومة لا يمكن أن يُطاق من جهة أخرى. فمثلاً إنّ مسألة التربية الصحيحة والتعليم و تزكية النفوس و تطهيرها كل ذلك لا يمكن أجراؤه دون وجود الحكومة.

والآن تصوّروا أنّ جميع المدارس والجامعات في عصرنا الحاضر هي تحت سلطة حكومة علمانية او أنها لا تُعبر أهمية للتّيم الدينية، وأنّ وسائل الاعلام كالراديو والتلفزيون والصُّحف تُدار ايضاً من قِبَل نفس النظام، ثم سعيينا عن طريق النصائح والارشادات او على الاكثر الاستفادة من المساجد والمنابر لتعليم الناس اهداف و مبادئ الانبياء و التعليم و التربية الدينية، فأنا حتماً لن نصل الى ايّ مردود، بل ستبقى انواره ضعيفة في قلوب بعض الاتقياء وهم أقلية، ولكن متى ما تشكّلت حكومة تبني أساسها على الايمان والتوحيد والاعتقاد بالله و تؤمن بالمقدسات و تأخذ أمر هذه المراكز الحساسة على عاتقها، فان الامر حينئذٍ سيختلف تماماً.

وبالنسبة الى موضوع (العدالة الاجتماعية) و (قيام الناس بالقسط) وهما الهدف الآخر فان الأمر يبقى هو هو، إذ كيف يمكن إقامة القسط والعدل مع وجود حكومة ظالمة تفتقد الى الايمان والدين أو عميلة و مرتبطة بالاستكبار والاستعمار؟ وباختصار فان ايّاً من الاهداف التي جاء من أجلها الانبياء لا يمكن تحقيق الجزء الاعظم منها الا بوجود الحكومة، ولذا نرى أنّ الرسول الاكرم ﷺ لم يكن ليتمكن من الوصول الى الاهداف الاسلامية السامية الا بعد أن قام بتشكيل الحكومة. و كذلك الحال مع الانبياء الآخرين الذين استطاعوا التوصل الى التوفيق المنقطع النظير بعد أن قاموا بتكوين الحكومة، بينما ظلّ اولئك الانبياء الذين لم يحققوا نجاحاً في تشكيل الحكومة مضطهدين من قِبَل الطبقات الفاسدة في مجتمعهم.

نفس الحالة ستتواجد في آخر الزمان على ما ذُكِرَ، اذ لا يمكن نشر التوحيد والعدل الا بتشكيل الحكومة، حكومة المهدي (عج) العالمية. هذا من جهة، و من جهة اخرى فان الاحكام الاسلامية لا تنحصر في إطار (العبادات) و حسب، بل أنَّ لدينا احكاماً جمّة تهتم بالشؤون السياسية والاجتماعية للمسلمين، كأحكام الحدود والديّات والخُمس والزكاة والانفال وما شاكل.

فهل يمكن جمع حقوق المحتاجين كالزكاة و أخذها من الاغنياء دون وجود حكومة؟ او هل يمكن تنفيذ كافة الامور القضائية في الاسلام؟ كيف يمكننا ضمان اجراء الحدود والحدّ من أعمال المفسدين؟ واذا تعرّض البلد المسلم الى الهجوم والعدوان، كيف يمكن بدون وجود الحكومة تعبئة الجيوش المجرّبة و تهيئة الاسلحة المختلفة للدفاع عن حياض الاسلام و درء الخطر الخارجي؟

و خلاصة الكلام: انه من غير تشكيل حكومة عادلة و شعبية على اساس العقائد الدينية، فان القسم الاعظم من الاحكام الاسلامية ستظلّ معطلة، لانه لا يمكن بدون مساندة و وجود الحكومة اجراء الاقسام الثلاثة الرئيسية في الدين الاسلامي، (السياسيّات) وهو برنامج الحكومة و عمودها الفقري، و(المعاملات) التي لا تستقرّ الا بوجود الحكومة، و حتى (العبادات) كالحج و صلوة الجمعة والجماعة، كل ذلك لا يمكن أن يتبلور و يتألق الا في ظل حكومة الله العادلة.

أهداف الحكومة الإسلامية

من مطاوي البحث المتقدم حول ضرورة وجود الحكومة اتضمت أيضاً أهداف الحكومة الإسلامية بشكل اجمالي، ولمزيد من التوضيح نشير ادناه الى بعض الآيات الشريفة:

١ - نقرأ في الآية (٤١) من سورة الحج: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾.

إنَّ تعبير (مكَّنَّاهم في الارض) يُشير الى القدرة المعطاة للمؤمنين في الارض، لكن هذا التعبير نفسه قد استُخدم مراراً في القرآن الكريم معبراً عن قدرة الحكم، كما نطالع في آيتين من سورة يوسف: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾^(١) وفيما يخص ذي القرنين تقول الآية: ﴿إِنَّا فَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ سَبِيلاً﴾.^(٢)

وطبقاً لما تعنيه الآية الشريفة فإنَّ المعنى يكون هكذا: إِنَّ اولياء الله إن أُعْطُوا زمام الامور والحكم فإنَّهم سيقومون الصلوة، وهي من جهة مظهر في مظاهر التقرب والوصول الى الله تعالى، ومن جهة اخرى فإنَّهم سيعبّدون الطريق المؤدي الى العدالة الاجتماعية، وأبرز مظاهر هذا الطريق اداء الزكاة. بالاضافة الى ذلك فإنَّهم سيعملون على اشاعة الفضائل الانسانية والقضاء على المنكرات بواسطة الأمر

١. سورة يوسف: ٢١ و ٥٦.

٢. سورة الكهف / ٨٤

بالمعروف والنهي عن المنكر في المجتمع بأبعاده المختلفة.

على هذا، فلو افترضنا أن كلمة (مكَّنَّا) تعني أي نوع من القدرة سيتم معنى الآية ضمن التعبير الذي قلناه سابقاً، ذلك أنَّ الحكومة هي أبرز أنموذج للقدرة. وقد ذكر العلامة الطباطبائي في ذيل هذه الآية: (١).

فهل يمكن الوصول الى هذه القدرة من دون استلام الحكوم؟

وقد ورد هذا المعنى في تفسير القرطبي بشكل أوضح حيث يفسر جملة (الذين إن مكَّنَّاهم في الارض) بالامراء وأصحاب الحكومة (٢).

وطبيعي أنَّ الامر بالمعروف والنهي عن المنكر المذكور في الآية اعلاه وكما ورد ذلك في مختلف البحوث الفقهية، يلزم لتنفيذه مراحل عدّة واحدى هذه المراحل يختص بالحكومة وتشكيلها.

٢ - ورد في الآية (٥٥) من سورة النور ما يتعلّق بحكومة الصالحين حيث تقول الآية: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَسَتُخْلِفُهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِ وَلِيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾. ففي هذه الآية و بعد أن وعد الله المؤمنين الصالحين باستخلافهم وتسليمهم مقاليد الحكم، عَقَّبَ قوله ببعض العبارات هي في الواقع اهداف هذه الحكومة، أولها التمكين والقدرة للدين الالهي وتحكمه على المجتمع، والأخرى: إزالة حالة اللاأمن و تبديله الى الامن والاستقرار الاجتماعي الكامل والعبادات الخالية من كل انواع الشرك، و على هذا فإنَّ أهداف الحكومة طبقاً لذلك هي كما يلي:

١. تفسير الميزان، المجلد (١٤) ص (٣٨٦).

٢. تفسير القرطبي، المجلد (٧) ص (٤٤٦٥).

١ - سيادة الدين والقوانين الالهية على كل المجتمع.

٢ - نشر الامن و الاستقرار الكاملين في كل مكان.

٣ - اخلاص العبادة لله وحده وازالة كل آثار الشرك والوثنية.

والواقع أن الهدف الاصلي لكل ذلك هو كمال الانسان والسير نحو الله سبحانه، و

أنّ الامن والاستقرار و تحكيم القوانين الالهية انما هي مقدمة للوصول الى ذلك.

٣ - ونقرأ في الآية (٢٦) من سورة وَاللَّهُ وَاسِعٌ مخاطباً نبي الله داود عليه السلام: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا

جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾.

و تبين هذه الآية بوضوح النتيجة المرجوة للخلافة والحكومة في الارض وهي

احقاق الحقوق، أو ما يُعرف بالحدّ من الاعتداء والتعدّي على حقوق الآخرين وأخذ

حق الضعفاء والمحرومين من الاقوياء والمترفين.

وبديهي أنّ هدف حكومة النبي داود عليه السلام وانبيا بني اسرائيل الآخرين لم يكن

هذا و حسب، بل أنّ هذا هو أحد الاهداف لآية حكومة في اي مكان و زمان.

صحيح أنّ عبارة (الحكم) الواردة في القرآن الكريم تعني أغلبها (القضاء) ولكن و

بعد ملاحظة أن الشطر الاول من الآية يتحدث عن الخلافة في الارض، يتّضح أنّ اي

نوع من الحكم بالعدل مشمول في مضمون الآية ككل. مضافاً الى ذلك فإنّ القضاء

هو شأن آخر من شؤون الحكومة، وقد ورد ما يشبه هذا المعنى في الآية (٥٨) من

سورة النساء حيث يقول تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا

بِالْعَدْلِ﴾.

ولقد ورد في روايات كثيرة في تفسير هذه الآية صراحة أن المقصود من هذه

الامانة هو مقام الولاية والتي يؤديها كل امام الى الامام الذي يليه وإن كان المعنى

العام لها يشمل باقي انواع الامانات كذلك،^(١) وبالاخص ما ورد في بعض الروايات من أَنَّ المخاطب في الآية هم الحكّام والأمرء،^(٢) ويدلّ ذلك أَنَّ المراد بالحكومة العادلة في الآية المذكورة ليس القضاء فحسب، بل يشمل كلّ نوع من الحكم العادل.

٤ - أَنَّ جميع الآيات والروايات التي تذكر هدف بعثة الانبياء على أنّه تعليم و تربية و تزكية النفوس و اقامة القسط بين الناس و رفع الاغلال و تحطيم القيود، فإنّها في الواقع تبين اهداف تشكيل الحكومات الالهية، لأنّ هذه الحكومات هي مقدمة و وسيلة لضمان اهداف بعثة الانبياء، و على هذا يمكن تلخيص أهداف الحكومات الالهية بالنقاط التالية:

- ١ - تعليم و تربية افراد المجتمع في المجالات العلمية والاخلاقية.
 - ٢ - ضمان الحرّيات الانسانية، و رفض كل أنواع العبودية و إستعمار الانسان لأخيه الانسان سواءً في المجالات الفكرية أو السياسية أو العسكرية أو الاقتصادية.
 - ٣ - اقامة العدل والحقّ و ضمان العدالة الاجتماعية في كلّ الطبقات الاجتماعية.
 - ٤ - استتباب الأمن الاجتماعي بوصفه مقدمة للوصول الى الاهداف اخرى.
 - ٥ - تركيز المبادئ الخاصة بالعبودية لله والسّير اليه تعالى والكمال الانساني والوصول الى منزلة قريبة من الله والتي هي غاية الغايات و منتهى الرغبات.
- و نختتم هذا البحث بكلامٍ لأمر المؤمنين علي عليه السلام والذي ورد في أوّل عهده الى مالك الاشر حيث يرسم له بوضوح أهداف الحكومة الاسلامية إذ يقول:
- «هذا ما أمر به عبد الله علي أمير المؤمنين، مالك بن الحارث الاشر في عهده اليه حين

١. نور الثقلين، المجلد (١)، ص (٤٩٥ و ٤٩٦) - تفسير العيّاشي، المجلد (١)، ص (٢٤٩) - بحار الانوار، المجلد (٢٣)، ص (٢٧٤) فما فوق.

٢. تفسير البرهان، المجلد (١) ص ٣٨٠ (أنه خاطب بها الحكام).

ولآه مصر، جباية خراجها، وجهاد عدوّها واستصلاح أهلها وعمارة بلادها^(١).
وهكذا فإن عمارة البلاد واستصلاح أهلها وجهاد عدوّها وتعزيز بيت المال كلّ ذلك يعني دعامة لانجام تلك الامور، وهي أهداف هذه الحكومة، ولكن كما اشرنا سابقاً فإنّ هذه الاهداف هي بمثابة أسس المرحلة الاولى، اما الاهداف النهائية والاصلية فهي التعليم والتربية و تهذيب النفوس والسير الى الله سبحانه.

* * *

انواع الحكومة

لقد كانت للحكومة على مدى التاريخ اشكالا متباينة، وربما كانت تلك الاشكال
بعدد انواع حكومات العالم، ولكن يمكن تقسيم اصولها الى ثلاثة انواع:

١- الحكومات الاستبدادية:

وهي الحكومة المتشكلة على أساس الحكم الفردي او حكم جماعة معينة حيث
تدور حول محور المصلحة الفردية أو مصلحة تلك الجماعة، و طبيعي أن تخدم تلك
الحكومة منافع و مصالح تلك الفئة فقط، و نتیجتها ستكون استعباد المجتمع و انتشار
البؤس والحرمان فيه. هذا وقد قام حكام و سلاطين من هذا القبيل على طول تاريخ
البشرية بارتكاب أفزع الجنايات و ذلك لحفظ منافعهم الشخصية، وقد تعدّوا كل
الحدود المعروفة، بل لقد سفكوا دماء إخوتهم و بنينهم عند إحساسهم بمضايقتهم
لهم.

وفي هذا النوع من الحكومات لا تؤخذ آراء الشعب بنظر الاعتبار بل ولا تُقيم له
وزناً على الإطلاق و كل شيء يدور حول محور الظلم والجبروت. و تنقسم هذه
الحكومة الى انواع أخرى، منها الحكومة الفردية الاستبدادية (المستبدة)، والحكومة
الحزبية المستبدة حيث يسيطر فيها الحزب ذو الاقلية على الاكثرية المطلقة و ذلك
باستخدام اسلوب القوة، ثم تفرض على تلك الاكثرية آراءها و ايديولوجيتها وهو ما
كان يشيعه الماركسيون حيث كانوا يسمّونها بالدكتاتورية البرولتارية (المقصود

بالبرولتيارية الطبقة المُنتجة والبعض منهم الذي ثبت ولاؤه وإخلاصه للماركسيين، فتُسَجَّلُ أسماؤهم في الحزب الشيوعي حيث كانوا يشكلون مجموعة صغيرة في مقابل الجموع الغفيرة للشعب و يتحكمون بمصير الشعب بأكمله. ولم يكن الحزب الشيوعي حزباً شاملاً لمختلف قطاعات الشعب، ولا يهتم بالانتخابات الحرة، لم يكن بمقدور أيّاً كان الانتهاء إليه، بل لم تكن سِحْنَتُهُ تنمّ عن أيّ نوع من الديمقراطية).

٢ - الحكومة الديمقراطية:

وهي أفضل وأكمل حكومة معروفة في عالمنا الحاضر. والأساس في حكومة من هذا القبيل هو أنّ جميع الناس في أيّة فئة كانوا أو طبقة يمكنهم و بحريّة تامة الذهاب الى صناديق الاقتراع و ابداء آراءهم حول من يريدون انتخابه من الممثلين و تسليمهم زمام أمور الشعب لفترة معينة تحت ضوابط خاصة و شروط معلومة، فيضع الممثلون للشعب بعد ذلك و بحرية و استقلالية كاملتين على الأرجح كل القوانين فيما بينهم، ثم يشكلون هيئة بواسطة هؤلاء الممثلين تارةً أو بصورة مباشرة من قبل الشعب تارةً أخرى بصفة رئيس الوزراء أو رئيس الجمهورية. و يطلق - كما أشرنا - على هذا النوع من الحكومة بالحكومة الديمقراطية (اي حكومة الشعب أو حكومة الشعب على الشعب).

و تنقسم هذه الحكومة بدورها الى قسمين: النوع الاول وهو الحكومة التي لها جنبه شعبية واقعا، وهي نادرة الوجود سواء في الماضي او حتى في الحاضر وربما لم تظهر ملامحها في الخارج بعد.

والنوع الآخر هي حكومة شعبية الظاهر والمظهر لكنها ليست كذلك في الواقع،

فالروح فيها (استبدادية) والظاهر منها (ديمقراطية)!

و هذا التفاوت الموجود بين الظاهر و الباطن ينقسم كذلك الى صنفين، فإمّا أن يتدخل فرد أو أفراد مصلحيون في نمط الانتخابات و بصورة علنية مرسلين افراد الشعب الى صناديق الاقتراع عنوةً، أو أنّهم يعملون على ملء صناديق الاقتراع بأوراق انتخابية مزيفة حتى يتمّ لهم انتخاب الافراد الذين يرومون فوزهم في هذه الانتخابات والخروج بأصوات انتخابية اكثر. و قد تأخذ هذه العملية، أي عملية تدخل أولئك الأفراد طابعاً آخر هو طابع التدخل الخفيّ و قد يكون غير محسوس فيبدو للبعض من أصحاب العقول الساذجة و ذوو النية الحسنة أن هذه الانتخابات إنّما جرت بحرية كاملة تماماً، بينما يختلف الواقع عمّا يروّنه، إذ يسيطر ذوو الامكانيات والنفوذ على وسائل الاعلام ويروّجون عن طريقها، لمن يريدون مستفيدون من دقائق علم النفس بحيث يتصوّر الناس إنّ هؤلاء المرشحين و علماء و مدبرين و كأنهم ملائكة منزلين لكنهم في الواقع عملاء يخدمون تلك الطبقة الثرية وذات السلطة القويّة و كل المصلحيّين والوصوليين.

والحق أنّ الحكومة في مثل هذه المجتمعات والتي نجدها بكثرة في اورپا و على الأخص في أمريكا، هي حكومة مستبدة و ظالمة الاّ أنّها ترتدي زيّ الحكومة الديمقراطية والشعبية.

٣- الحكومة الآلهية:

وهي الحكومة التي لا تعتمد لا على الارادة الفردية و لا على الاكثريّة الساحقة من الشعب، بل طبقاً لإرادة الله و لا شك أن ارادة البارئ عزّوجلّ لا تقتضي سوى ضمان المصالح الواقعية لعباده ليس الاّ. و يمكن مشاهدة مثل تلك الحكومة من

خلال حكومة الانبياء و أوصياءهم الحقيقيين وأولئك الذين يسرون على خطاهم و ينتهجون منهجهم، ولكن يعزّ وجودها في العالم.

* * *

لقد ذكر القرآن الكريم نماذج للأنواع الثلاثة لهذه الحكومات:

١ - اشارة القرآن الكريم الى حكومة فرعون باعتبارها حكومة مستبدة وفردية حيث يقول: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَ جَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾^(١).

كان فرعون يعتبر كل أرض مصر ملكاً شخصياً له وكل ما فيها من أنهار و مياه هي له أيضاً. و كان يقول: ﴿يَا قَوْمِ الْيَسَّ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَ هَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾^(٢).

انه لم يقنع بحكومته المستبدة على الشعب فحَسب، بل كان يتوقع ان يعبدّه الجميع و لا يعبدون غيره! ولذا قال لموسى: ﴿لَنْ اتَّخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنْ الْمَشْجُونِينَ﴾^(٣).

و حتّى أنه كان يتصوّر أن من يُريد الاعتقاد والايمان بشخص يدّعي النبوة بعد ما رأى معجزاته لا يمكن أن يفعل ذلك إلا بعد موافقته وإذنه! ولذلك نرى أنه وبخ السحرة الذين آمنوا بموسى عليه السلام بعد مشاهدة أدلته و معجزاته حيث قال: ﴿قَالَ

١. القصص / ٤.

٢. الزخرف / ٥١.

٣. الشعراء / ٢٩.

فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم»^(١).

و نرى أنموذجاً آخر لحكومة مستبدة أخرى ألا وهي حكومة «نمرود» والذي صرّح مخاطباً إبراهيم عليه السلام: «أنا أحبي و أميت» ولكنه واجه بعد ذلك استدلال إبراهيم عليه السلام الدامغ عندما قال له: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾^(٢).

والحقيقة أنّ الناس جميعاً وحتى السلاطين المستبدّين أنفسهم كانوا يعلمون بهذه الحقيقة وهي أن الملون مفسدون في الأرض و مخلّون بأنظمة المجتمع الانساني، و لذا نقرأ في القرآن الكريم أنّه عندما وصلت رسالة سليمان عليه السلام الى بلقيس ملكة سبأ، وبدأت تحقيقاتها حول سليمان لتبيّن فيما اذا كان ملكاً مستبدّاً أو نبياً مُرسلاً، فأرسلت اليه الهدايا، و قالت معبرةً عن قلقها: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا إِذْ لَهُمْ كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾^(٣).

فقد كان الملوك يضطهدون و يعذبون مخالفينهم. يأبشع الصور بل حتى يدفنونهم أحياء كما ذكر في سورة البروج التي تتحدّث بعض آياتها عن أصحاب الاخدود (اذ يذكر التاريخ أن الملك ذو نواس أصدر أمراً بحفر خندق ووضع كمية كبيرة من الحطب وأشغل ناراً عظيمة ثم قذف ببعض المسلمين الذين فضلوا البقاء على دينهم وسط تلك النيران ولم يرحم منهم لا مُسنّاً ولا طفلاً رضيعاً). فما كان ذنبهم إلا أن آمنوا بالله العزيز القهار ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾^(٤).

و يضمّ التاريخ بين صفحاته الكثير من هذه الوقائع للحكومات المستبدة والتي

١. الاعراف / ١٢٣.

٢. البقرة / ٢٥٨.

٣. النمل / ٣٤.

٤. البروج / ٨.

كانت تُعامل شعوبها كالعبيد بل أدنى من ذلك ايضاً، وقد اشار القرآن في عدة مواطن الى مثل تلك الحكومات، ولذلك كان أحد أهم الاهداف لثورات الانبياء عليهم السلام محاربة الاستبداد وإنقاذ الشعوب من براثن المستبدّين.

٢- ونرى كذلك بعض الآيات القرآنية الشريفة التي تشير الى حكومة الشورى أو كما هو المصطلح عليه بحكومة الشعب على الشعب و ان لم يكن هذا المصطلح واضحاً كما عليه اليوم.

نطالع في سورة النمل، الآية (٣٢) وفيما يخصّ قصة (سليمان - ع-) مع (بليزيس - ملكة سبأ): لما وصلت رسالة سليمان الى بليزيس جمعت الأخيرة مستشاريها و بدأت معهم التحدّث عن مضمون تلك الرسالة قائلة: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُون﴾.

و من المتيقّن أنّه لم تكن في ذلك الزمان انتخابات ولا آراء شعبية، لكن مع وجود مثل هذه الحالة عند الملكة وهي التقيّد في سير الأمور والبتّ فيها عبر الشورى فان ذلك يدلّ على وجود حكومة الشورى نوعاً ما.

اضافة الى ذلك فان مسألة الشورى هي احدى المسائل التي تتضمنها البرامج الاسلامية و تؤكد عليها في الامور الاجتماعية و الحكومية عامة. و كما يذكر القرآن الكريم واصفاً المؤمنين الحقيقيين بقوله ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾^(١). بل وحتى أنّه أمر النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم بالمشورة مع المؤمنين حيث يقول القرآن مخاطباً الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾^(٢).

و مع أنّ حكومة الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم كانت من نوع الحكومات الالهية، إلا انه صلّى الله عليه وآله وسلّم

١. الشورى / ٣٨.

٢. آل عمران / ١٥٩.

كان يؤمر بمشاورة الناس لتبقى مصبوغة بصبغة شعبية.

٣ - وأما ما يتعلق بالحكومات الالهية فقد وردت آيات فرآنية كثيرة تبحث ذلك، مثلاً داود عليه السلام فان القرآن يقول عن لسانه هو: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾^(١).

ونتبين من الآيات التي تلت هذه الآية أنَّ دُعاء سليمان عليه السلام كان قد أُسْتَجِيبَ ووهبة الله حكومة لم يسبق لها مثيل، فقد كانت الريح تجري بأمره، وسخر الله له الشياطين والعفاريت، وكان يستفيد حتى من الطيور في النجاز بعض أعماله. و يقول القرآن الكريم متحدثاً عن آل ابراهيم: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾^(٢).

وتشتمل كلمة (آل ابراهيم): بنو اسرائيل و يوسف و داود و سليمان و غيرهم). و يذكر القرآن الكريم (طالوت)، احد ملوك بني اسرائيل المعروفين و على لسان نبي ذلك الزمان (شموئيل) قائلاً: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلَكًا﴾^(٣) و يُقْصَدُ بذلك أن هذه الوهبة قد أُضْفِيَتْ على طالوت من قِبَلِ الله.

ولكن بني اسرائيل الذين لم يكونوا على علم واطلاع كاملين بأمور الحكومة الالهية، عارضوا هذا الانتخاب واعتبروا أنفسهم أفضل منه لاستلام ذلك المنصب لأن طالوت كان قروياً، فلم يكن له مال ولا عشيرة معروفة. لكن نبيهم رفع تلك الشبهة بقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(٤).

١. سورة ص / ٢٥.

٢. النساء / ٥٤.

٣. البقرة / ٢٤٧.

٤. البقرة / ٢٤٧.

و قد أُشير ورضحة الى حكومة النبي ﷺ وآله بقوله: «أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله في فضله فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً».

كانت تلك لمحة على بعض انواع الحكومات المذكورة في القرآن الكريم، والآن نبدأ بنقد و بحث كل نوع من تلك الحكومات الثلاث:

* * *

مناقشة أنواع الحكومات

لا يخفى ما تتضمّنه الحكومات المستبدة والدكتاتورية في ثناياها من مفسد، وما أصاب المجتمع الشرب من ويلات و مصائب مدمرة على التاريخ كان من هذه الناحية، من قتل الابرياء و تعذيبهم، والحروب المدمرة والاستيلاء على الأموال، واستعباد المحرومين والضعفاء، وانتشار التعصّب والتمييز العنصري والظلم، صرف اموال المجتمع على الترف والبذخ، كلّ ذلك من آثار و نتائج الحكومات المستبدة، و قد ذكر القرآن الكريم و صفأ حقاً عن ذلك حيث قال: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

و لا فرق بين أن يكون الاستبداد فردياً أو جماعياً، بل أنّ آثار الاستبداد الجماعي أكثر سوءاً من إلى الاستبداد الفردي، و أوضح مثال على هذا النوع من الاستبداد هو الحزب الشيوعي في روسية والذي كان السبب في جرّ أنواع المصائب والفجائع التي لا متيل لها في التاريخ.

إنّ الحكومات المستبدة والتي تبدو بزيّ الحكومات الشعبية والديمقراطية لا تقلّ سوءاً عن الحكومات المستبدة المطلقة، بل أنّها أسوء بكثير من جهات شتى، ذلك أنّ الشعب حسّاس دائماً تجاه الدكتاتوريين و يتحيّنون الفرص للانتفاض ضدهم و التخلص منهم، اما في حالة الحكومة المستبدة المتلبسة بلباس اليمقراطية - كما هو الحال في كثير من الحكومات الغربية التي تستلم السلطة بصرف مبالغ طائلة على الاعلام والصحف بالإستعانه بالرأسماليين - فلا تبين شيئاً يمكن الناس من الانتفاض

ضدهم في الفرصة المناسبة.

و اما الحكومة الديمقراطية الواقعية والتي تمثل أكثرية الشعب (اذا وجدت حكومة كهذه في العام) فهي كذلك، حيث تنطوي على مساواة كثيرة، بل وحتى الظلم والاعتداء، وذلك لأمر منها:

اولاً: إنّ الكثير من الناس في أغلب الدول التي تكون حكوماتها واقعاً او ظاهراً من هذا النوع، لا يشركون بصورة عملية في الانتخابات فيها، اذ ربما شارك ستون او سبعون في المئة بل وأقل من ذلك ايضاً؛ ومع ذلك فاننا نرى ان نتائجها تشير الى أنّ المرشح الفلاني قد حاز على اكثرية الاصوات انها لم تكن أكثرية في المجتمع. (مثلاً في حين نسبة ٣١ في المئة مقابل ٢٩٪ من مجموع ٦٠٪ من الافراد المشتركين في تلك الانتخابات).

و في هذه الحالة، ذات المصاديق العديدة فان الاقلية من الناس تتسلّم مقاليد الامور، بينما ترضخ الاكثرية تحت حكمهم و سيطرتهم، وبديهي أنّ ينظّموا كل القوانين حسب أهوائهم و مصالحهم، وهو الظلم الفاحش بعينه.

ثانياً: لو فرضنا أن جميع افراد الشعب الذين لهم حقّ المشاركة في الانتخابات قد اشتركوا فيها (طبعاً أنّ مثل هذه الفرضية لم تحدث ابداً) فيمكن ايضاً فوز البعض باكثرية قليلة وضيئلة (كأن يكون ٥١٪ في مقابل ٤٩٪ أو اكثر أو أقل).

وهذا ايضاً أحد أنواع (إستبداد الأكثرية) ضد الاقلية، ففي قطر يبلغ عد سكانه (١٠٠) مليون نسمة مثلاً تخضع فيه (٤٩) مليون نسمة تحت حكم (٥١) مليون شخص، فكلّ شيء في المجتمع يسير وفقاً لمصلحة الأكثرية وقد يكون بضرر الأقلية. و لهذا فقد أذعن كثير من المفكرين الى أنّ حكومة الاكثرية هي نوع من الحكومة الظالمة التي لا بدّ منها، لأنّه لا حيلة لهم ولا بديل سواها.

ثالثاً: و بعيداً عن ذلك و على فرض أنّ الحكومة الديمقراطية لا تنطوي على اي

من الاشكالين المذكورين فانها حكومة تتبع رغبات الاكثرية من الشعب، ونحن نعلم أنه يحدث احياناً أن ينحرف اكثرية الشعب نتيجة للمستوى العلمي والثقافي الواطيء، او في هذه الحالة يتحتم على العلماء والمقتمين النهوض و محاربة هذه الآفة الخطيرة، بينما لا نرى في هذه الموارد مغارضة و لا محاربة في الانظمة الديمقراطية، بل العكس حيث أخذت هذه الإنحرافات شكلاً قانونياً وأجرت من قبل المشرعين هناك، فمثلاً أصبح الزواج من الجنس المماثل في انكلترا و امريكا مجازاً من قبل القانون، وكذلك الحال مع مسألة سقط الجنين او الإجهاض، ذلك أن الممثلين في هذه الدول يعبرون عن رغبات الشعب لا رعاية مصالحه.

و من هنا نجد أننا بحاجة الى البحث عن النوع الثالث من الحكومة ألا و هي حكومة الصالحين، الحكومة التي اقترحها الأنبياء ﷺ، وحتى لو كانت هناك انتخابات فإنها تجري على أساس انتخاب الأصلح وقت رعاية الامام العادل. ففي هذا النوع من الحكومة لانجد الآفات الثلاث التي وجدناها في الحكومات الديمقراطية، فلا مجال للرأسماليين و لا هناك آفة الاستبداد حيث يسيطر بواسطتها نصف المجتمع على النصف الآخر، ولا مكان للرغبات لا المنحرفة في المجتمع. و على هذا، فان الحكومة الوصيدة التي يمكن قبولها تماماً هي حكومة الله، حكومة الرسول ﷺ والائمة المعصومين، و اولئك الذين يتملكون الشروط الخاصة لخلافتهم، و طبيعي أن لا نرى الدنيا في حال العدالة والصالح والسعادة التامة إلا في ظل الحكومة الالهية.

هل أن الحكومة أمر تنصبي أم انتخابي:

تختلف الاجوبة على هذا السؤال باختلاف الآراء والافكار، فمن لا ينتمي الى دين معين أو ينتمي إلا أنه يحدوده بالأمور الشخصية، ولا يمت الى الحالة

الاجتماعية بصلة، (كالكثير من المسيحيين) ؟؟؟ على هذا السؤال واضح.
 فهم يقولون: إنَّ افضل اشكال الحكومات هي التي تكون منبثقة عن الشعب،
 ولأن اتفاق الآراء غير ممكن غالباً، فلذلك يجب انتخاب الحكّام عن طريق الاكثرية.
 ولكن ما هو جدير بالذكر أنَّ الموالين لهذه الفكرة يؤيدون الحكومات التي تصل
 الى دفة الحكم عن طريق الانقلابات واستخدام القوة من قبل العسكريين و يقيمون
 معها نفس العلاقات التي يقيمونها مع الحكومات الشعبية، ولا يهتمهم كيف وصلت
 هذه الحكومة الى شدة الحكم! المهم هو على كرسي الحكم و يستطيع تثبيت حكمه
 و سيادته.

و لهذا السبب نراهم يترثون قليلاً حينما يقع إنقلاب عسكري في أي بقعة في
 العالم ليروا هل ينتصر و يستلم مقاليد الحكم؟ ثمّ فلو إنتصر وثبتّ دعائمه و وطّد
 أركانه فعندئذ تبتاري الحكومات المادية في الاعتراف به.

والا عجب من ذلك أن جميع فقهاء المذاهب الاربعة من السنّة، حسب قول
 مؤلف كتاب (الفقه الاسلامي وادلّته) يتفقون على أن الامامة والحكومة يمكن
 حيازتهما بالقوة والغلبة، وكلّ من يصل الى الحكم بالقوة! دون الحاجة الى بيعة
 الناس أو خلافة امام و مجيء خليفة من بعده^(١). وقد ورد هذا المعنى بصراحة اكثر
 على لسان الفقيه السنّي المعروف «احمد بن حنبل»، حيث لا يعتبر الامامة مشروطة
 بالعدل و لا بالعلم و لا بالفضيلة، و ينقل حديثاً يتضمن معناه أن كلّ من تغلب على
 الحكم بالسيف فهو خليفة و أمير للمؤمنين و لا يجوز لاحد انكار إمامته ذلك الغلب
 سواء كان بارّاً أم فاجراً^(٢).

و ورد نظير هذا المعنى في كتاب (منهاج السنن)^(٣).

١. الفقه الاسلامي وادلّته، المجلد (٦) ص (٦٨٢).

٢. الاحكام السلطانية ص (٢٠).

٣. كتاب منهاج السنّة كتاب البغاة / ص (٥١٨).

وربما خطر على بال البعض أن القول بهذا المعنى لا يصدر إلا من أولئك الذين لا يؤمنون بأي اله أو دين، و لكن لماذا يصدر هذا القول و تلك الفتوى ممن يدّعي الايمان والإسلام و يتمسك بالقيم الخاصة للحكومة كالايمان والعدالة؟ ولكننا و بعد فهمنا لهذه الحقيقة و هي انهم كانوا غالباً بصدد تبرير موقف الخلفاء من بني أمية وبني العباس و مسايرتهم، حينئذ لا يهترينا العجب من اعترافهم بالحكومات الظالمة والفاجرة التي وصلت الى سدة الحكم بالقوة و البطش. على اية حال، فإننا وكلما نظرنا بمنظار القرآن الكريم الى هذه المسألة يتّضح لنا بجلاء أن الحكومة هي من حقّ الذات المقدسة للخالق ثم لمن يراه عزّ وجلّ صالحاً لذلك.

فقد ذكر القرآن الكريم في أكثر من مكان: «إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ»^(١).

ونرى نفس هذا المضمون في آيات أخرى.

إنّ كلمة «حُكْم» تتضمّن معنىً واسعاً حيث تشمل (الحكومة) و (القضاء) كذلك. والواقع أن توحيد الخلقة ملازمٌ لتوحيد الحكم، بمعنى أننا عندما نُسلم أن العالم بأجمعه مخلوق من مخلوقات الله سبحانه علينا أن نقبل أنّه ملكٌ تامٌّ له ايضاً، و طبيعي أن يكون الحكم المطلق لهذا العالم بيد الله كذلك، لذا وجب أن والسير حسب أوامره، واعتبار من يجلس على كرسي الحكم دون اذنه وأمره متعدٍ و غاصب!

هذه الفكرة النابعة من (التوحيد الالهي للخالق) (توحيد المالكية والحكم)، معروفة كاملاً للموحدين كما أنّ عقائد المذاهب الالحادية معروفة للجميع. (تأمل جيداً).

ولهذا السبب فإننا نعتبر الانبياء حكّاماً حقيقيين من قبل الله، ولهذا السبب ايضاً

بدأ الرسول الاكرم ﷺ بتشكيل الحكومة في اول فرصة أتاحت له، اي عند هجرته الى المدينة حيث كان الوقت مناسباً لذلك.

و بعد ذلك فالحكومة من حقّ الذين عُيّنوا من قِبَلِه بواسطة أو بدونها.

و هناك روايات كثيرة تحدّد الأمراء والائمة بعد الرسول ﷺ بأثنى عشر امام و قد أوردنا المصادر لذلك في المجلد السابق من نفحات القرآن بأن هذا الحقّ من نصيب الائمة الاثني عشر من آل البيت عليه السلام، (اذ لم يظهر ايّ تفسير مقبول لتلك الروايات غيره).

و على هذا الأساس، فان الاشخاص الذين لهم حق الخلافة والحكومة في زمن غيبة الامام المهدي (عج) هم الذين ينصّبهم الامام بصورة مباشرة أو غير مباشرة. و يتبيّن لنا مما قيل اعلاه أنّ الحكومة من وجهة نظر المسلم الموحد يجب تعيينها من قبل الله تعالى، بل و حتى تلك الحقوق التي نقر بها للشعب فهي ايضاً تتعين من قبله تعالى. و لا يتمكن الموحد ابداً ان يجعل ارادة الخلق اساساً للحكومة دون أن تنتهي الى ارادة الخالق. (تأمل جيداً).

و ما كتبه بعض المغفلين من ان : «هناك الحقيقة يدركها الجميع وهي ان كل من حاز على اكثرية الاصوات و ايده الشعب فهو الحاكم لان القوة الحقيقة للمجتمع هو الشعب... الشعب هو الذي يمنح الولاية لشخص و يجسّد حاكميته على الآخرين» لا يتلاءم مع النظرة التوحيدية.

نحن نقول ان النظرة التوحيدية هي عكس هذا الامر اي: انه الله تعالى هو الذي يمنح الولاية لشخص ما و يجسّد حاكميته على الآخرين، ولو كان للشعب حق في هذا المجال فهو ايضاً من الله تعالى.

زبدة الكلام هي ان الحكومة و حسب النظرة التوحيدية تكون من الاعلى، بينما حسب التفكرات الالحادية من الادنى!

حقيقة الحكومة الاسلامية

البحث حول حقيقة الحكومة الاسلامية مع الاخذ بنظر الاعتبار ما تقدم في البحث السابق ليس بتلك الصعوبة، لان حق الحكومة هو اولاً وبالذات من شأنه سبحانه، و ذلك بعد قبول التوحيد في الحاكمية الذي يعد من فروع التوحيد الافعالي، وفي المرتبة الثانية من شأن كل من يعنيه لذلك. و على هذا، فالحكومة الاسلامية ليست حكومة دكتاتورية استبدادية، ولا حكومة ديمقراطية، بل نمط من الحكومة الافضل، اي الحكومة الالهية.

لكن هذا لا يعني ان اصل «الشورى»، والاهتمام بأراء الشعب ليس له دور في الحكومة الاسلامية، وانه لا يعتد به لامن قريب ولا من بعيد.

لأن «مالك الملوك» و «أحكم الحاكمين» حينما يأمر بالشورى والاضعاء الى آراء الشعب، تكتسب هذه الامور شرعيتها. و نعلم بوجود الامر الصريح بالشورى في آيتين من القرآن الكريم.

ففي الاية ٣٨ من سورة الشورى التي سميت بهذا الاسم لاجل نفس هذه الاية، ذكرت سبع خصال جليلة للمؤمنين المتوكلين على الله تعالى، احداها المشورة في الامور المهمة، يقول تعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾!

و ذهبت الاية ٥٩ من سورة آل عمران ابعد من ذلك اذ اوصت النبي ﷺ ثلاث توصيات فيما يتعلق بالمؤمنين، احداها مشاورتهم في الامور الحساسة، يقول تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾.

و بناءً على هذا، فاحترام آراء الناس يكتسب مشروعيته من امره تعالى. هذا من جهة و من جهة اخرى، فالنبي ﷺ و خلفاؤه المعصومون، وكذلك العلماء الذين يكتسبون مشروعيتهم بالواسطة من قبله سبحانه باعتبارهم من مصاديق «الولي الفقيه» ملزمون برعاية مصالح الناس في كل مكان، اي الاهتمام بغبطة العامة كما يصطلح عليه. و من البديهي ان مصلحة الناس تستلزم اسهامهم في أمر الحكومة نوعاً ما والا صفاء لأرائهم. و بهذا يكتسب الاهتمام بأرائهم صبغة الهية.

و بعبارة اخرى، فالحكومة الالهية إنما تبدو منسجمة حينما تتمتع بقدرة تنفيذية عالية، ولا سبيل الى هذه القدرة الا بمشاركة الشعب في امر الحكومة. وبما أن فان تنفيذ الاحكام الالهية واجب، يكون اسهام الشعب في أمر الحكومة مقدمة لذلك الواجب، و مقدمة الواجب واجبة. و خلاصة الكلام، إن جوهر الحكومة الاسلامية هو الحكومة الالهية، لكن هذه الحكومة تنبع في خاتمة المطاف من الحكومة الشعبية، فتعين الانبياء والائمة و خلفائهم يشكل جوهر الحكومة الالهية، والتزام هؤلاء بمسألة الشورى واحترام آراء الشعب الذي يكون بامر الله تعالى ايضاً، يشكل الصبغة الشعبية لها.

فالذين يتصورون ان الحكومة الاسلامية متكية على آراء الشعب مائة بالمائة، و يهملون عنصرها الالهي، يذهبون شططاً، كما أن الذين يولون اهتمامهم للجانبى الالهي ويغضون عن جانب الشورى وآراء الشعب مخطئون ايضاً.

و سنتناول في الابحاث القادمة هـ (في بحث البيعة والشورى) هذا الامر بتفصيل اكثر.

و على اية حال، فكيف يمكن تجاهل هذه الحقيقة، وهي ان مشاركة الشعب في أمر الحكومة تضفي قدرة و منعة للحكام، كما انهم اعجز ما يكونون عند غياب

مشاركة الشعب، كما يقول امير المؤمنين عليه السلام في الخطبة الشقشقية:

«أما والذي فَلَقَ الحَبَّةَ و بَرءَ النَسْمَةَ لولا حُضور الحاضر و قيامُ الحُجَّةِ بوجودِ الناصر و ما أَخَذَ اللهُ على العُلَماءِ ألا يُقارَوا على كَظَّةِ ظالم ولا سغب مظلوم، لأَلْقَيْتُ حَبْلَها على غارِبِها»^(١).

هذا التعبير يحكي بكل وضوح ان تأييد الشعب يؤدي أيضاً إلى إقامة الحجة على الولي المنصوب من قبل الله تعالى.

لا شك ان ولايته عليه السلام كانت ثابتة من قبل الله تعالى و عن طريق الرسول صلَّى الله عليه و آله و سلم، و أن هذه الولاية فعلية، فهي - و على خلاف ما قاله بعض المغفلين - لم يكن لها جنبه الشأنية و القوة، اما من الناحية التنفيذية والعملية فلا تستغني عن دعم الشعب، ولا يتحرك ساكن به بدون ذلك الدعم.

اما بالنسبة لفقهاء الاسلام و كما سيأتي، فالولاية الفعلية ثابتة للجميع، لكن تجسيد هذه الولاية انما يكون ممكناً حينما تتمتع بدعم و تأييد الشعب فقط، ولهذا السبب فالولي الفقيه الذي يحظى بأراء الشعب تكون له الاولوية قياساً بالفقهاء الآخرين، لتمكنه من تطبيق ولايته التي يتمتع بها دون غيره، (وسيأتي تفصيل هذا الكلام في محله ان شاء الله تعالى).

و على هذا، فلو تم التعبير في مثل هذه الموارد بـ «الانتخاب»، فذلك لا يعني ان هذا المنصب يُمنح لهم من قبل الشعب، لأنَّ حقَّ الولاية من وجهة النظر التوحيدية انما هو لله لا غير، و هذا المنصب انما يكون للذين عيَّنهم الله تعالى مباشرة او عن طريق اوليائه. أمّا إعتبار الـ الشعب هو الاساس و نفي الجانب الالهي للحكومة فنابع من عقائد الشرك غير التوحيدية.

المقصود ان الشعب انما يعلن دعمه لفقيه ما حينما يراه أفضل وأليق من كل الفقهاء، ولو كان الانتخاب بيد الشعب، لما كانت هنالك ضرورة لانتخابه من بين الفقهاء، بل لا مكنهم انتخاب من شاؤوا لهذا الامر، سواء كان فقيهاً ام لم يكن. وقصارة القول: ان الشعب لا يضع احداً على سدة الحكم، لان هذا الحق خاص بالله تعالى. و دور الناس انما يقتصر على انتخاب شخص من بين الذين منحهم الله تعالى حق الولاية، ولو تم التعبير بـ «الانتخاب» فهذا لا يعني ما يروج له العالم المادي، والقرائن الحالية والمقالية شاهد صدق على هذه الحقيقة، وهي أن حقيقة هذين الانتخابين متفاوتة تماماً (تأمل جيداً).

وعلى هذا، فإن أمير المؤمنين عليه السلام كان ولياً من قبل الله تعالى حتى قبل بيعة الناس له، و من الجدير بالذكر ان الله تعالى قد منح هذه الولاية له عليه السلام طبقاً لصريح آية الولاية «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ»^(١)، طبقاً لحديث الغدير المتواتر و جملة «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَهَذَا عَلِيٌّ مَوْلَاهُ»، حيث أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد عينه رسمياً لهذا المنصب من قبل الله تعالى. لكن بيعة الناس للآخرين حالت بينه وبين تطبيق ولايته مدة من الزمن. ولم يمكن تجسيد هذه الولاية إلا بعد بيعة الناس له عليه السلام، أجل، فالشعب قد هيا الأرضية للتنفيذ، لأنه أوصله إلى مقام الولاية الفعلية.

وكذا الامر بالنسبة للفقهاء، حيث انهم - و طبقاً لما سيأتي من الادلة - كلما تمتعوا بحسن التدبير والادارة و الاحاطة بأمور الزمن و شروطه فضلاً عن الاجتهاد والعدالة، فلهم الولاية الفعلية من قبل الله تعالى، لكن تطبيق هذه الولاية يحتاج إلى مقدمات و على رأس هذه المقدمات دعم الشعب و تأييده.

وهكذا الحال في النبي ﷺ، اذ انه لم يتمكن من تشكيل الحكومة فترة وجوده في «مكة»، بل قام بتشكيلها حينما دخل المدينة وكان دعم الشعب كافياً لذلك والعقبات وقد ازيلت. لكن هذا لا يعني أن النبي ﷺ لم تكن له الولاية في مكة، و انها منحت له من قبل الناس في المدينة. (تأمل جيداً).

الولاية الخيرية والانشائية؟!

يعتقد البعض ان العلماء الذين تحدثوا عن «ولاية الفقيه» لهم رأيان متفاوتان، فالبعض قال بولاية الفقيه بالمعنى «الخبري»، والبعض الآخر بالمفهوم «الانشائي»، و هذان المفهومان يختلفان في الماهية عن بعضهما.

فالأول يقول: ان الفقهاء العدول منصوبون من قبل الله تعالى للولاية، و يقول الثاني يجب على الناس انتخاب الفقيه الجامع للشرائط للولاية.

لكننا نعتقد ان هذا التقسيم لا اساس له اصلاً، لان الولاية كيفما تكون فهي انشائية، سواء انشأها الله تعالى او النبي ﷺ او الائمة، كأن يقول الامام عليه السلام: «إِنِّي قَدْ جَعَلْتُهُ حَاكِماً»، او ان ينتخبه الناس «على سبيل الفرض»، فينشئون له الولاية والحكومة.

فكلاهما انشائي، والتفاوت يكمن في ان انشاء الحكومة يكون تارة من قبل الله تعالى و اخرى من قبل الناس، والتعبير بـ «الاخباري» هنا يحكي عن عدم احاطة القائل بهذا القول، أو أنه يدرك الفرق، إلا أنه استعمل هذه العبارات من باب المسامحة.

والتعبير الصحيح هو أن الولاية انشائية في كل الاحوال، و هي من ضمن

المناصب التي لا تتحقق بدون الانشاء، والتفاوت هنا هو ان انشاء هذا المنصب والموهبة قد يكون من قبل الله تعالى او من قبل الناس. فالمدارس التوحيدية تراه من قبل الله تعالى (و حتى لو كان من قبل الناس فلا بد ان يكون باذنه تعالى ايضاً)، و تتوهمه المدارس الالحادية بانه من قبل الناس.

و على هذا، فالخلاف ليس حول «الاخبار» و«الانشاء»، بل حول الذي ينشيء ذلك، هل هو الله تعالى، أم الخلق؟ او بعبارة اخرى، هل أن أساس مشروعية الحكومة الاسلامية يكون باذن الله تعالى و اجازته في كل مراحل و مراتب الحكومة، ام باذن الناس و اجازتهم؟

لا شك أن الذي يوافق النظرة الالهية هو الاول دون الثاني.



الحكومة والوكالة:

يقال احياناً ان الحكومة الشعبية نمط من الوكالة، لا منح منصب. لان مالك الملوك هو الله تعالى، فيجب ان يهبه هو تعالى لمن يشاء. و بعبارة اخرى، فكما ان كل واحد يتمكن ان يوكل غيره في الامور الشخصية، و لا شك ان لهذا الامر مشروعيته، فكذا الامر في القضايا الاجتماعية، اذ بإمكان الشعب اعتبار شخص ما وكيلاً له لادارة الشؤون الاجتماعية، والشعب ملزم بتحمل نتائج تلك الوكالة ما بقيت.

لكن هذا الكلام سقيم لوجوه:

اولاً: باي حق يتدخل وكيل الاكثرية في شؤون الاقلية؟ لنفرض ان ٥١ مليون نفر قد انتخبوا أحد الأشخاص وكيلاً عنهم، و ٤٩ مليون قد وُكِّلوا شخصاً آخر، فبأي دليل يمتلك وكيل الـ (٥١ مليون) حق التدخل في شؤون الـ (٤٩ مليون نفر).

ثانياً: هنا لك شريحة يعتد بها من الشعب لا تتشارك في الانتخابات في أكثر الاحيان ولأسباب شتى ولا يمنحون اصواتهم لأحد باعتباره وكيلاً لهم. فأية ضرورة تقضي بوجوب اتباعهم لمن يتمتع بوكالة الاخرين؟!

ثالثاً: الوكالة عقد جائز، وبامكان الموكل عزل وكيله متى شاء، في حين أن الشعب لا يمكنه أبداً في ظل الانظمة السياسية في العالم عزل مرشحيه والمرشحين لرئاسة الجمهورية وامثالها.

الحقيقة هي أن الایمقراطية لا يمكن تحجيمها بهذه العناوين، اذ أن للديمقراطية هويتها الخاصة بها، وهي في الواقع نوعٌ من العقد الاجتماعي تفرضه الضرورة، لان الشعب بحاجة الى حكومة ما على كل الاحوال، ومن جهة اخرى فاتفاق آراء الشعب على هذا الامر غير ممكن، اذن، فلا بد من الذهاب - شئنا أم أبينا - وراء رأي الاكثرية، كما يجب على الاقلية الرضوخ امام الاكثرية، اذ لا سبيل سواه لإدارة المجتمع رؤية أخرى، وهي أنه لنرى حسب رأيهم، حتى لو لم يكن هذا الامر متصفاً بالعدالة المحضة.

اما الذين ينظرون الى الحكومة بأنها من قبل الله تعالى، فلهم رؤية أخرى، وهي أنه لنرى من ذلك الشخص الذي وضع الله تعالى الحكومة تحت اختياره؟ وبهذه الحالة تكون آراء الشعب - عند تعدد الافراد اللائقين من وجهة نظر الاسلام - قادرة على صنع القرار عند تعيين الشخص المتفق عليه، فيتغلب ذلك الشخص الذي يحظى

بدعم جماهيري أكبر لتنفيذ اهداف الحكومة.

وبامكان المسائل المتعلقة بالبيعة توضيح هذا الامر بشكل أكبر، و سنتكلم إن شاء الله بالتفصيل في الابحاث القادمة عن دور البيعة في الحكومة، و حثيثة البيعة و شروطها.

* * *

العلاقة بين «الدين» و «الحكومة» من وجهة نظر القرآن الكريم

إنَّ شعار فصل الدين عن السياسة هو الأكثر رواجاً في الدول الغربية، وقد يعد من بديهياتهم المتفق عليها بتعبير آخر. و من هنا يأخذهم الرعب و الخوف من تشكيل الحكومة الاسلامية التي تجمع بين «الدين» و «السياسة» بشكل تام! وذلك لسببين:

١ - الدين الموجود في المجتمعات الغربية هو دين المسيحية الحالي، و نحن نعلم ان هذا الدين و نتيجة للتحريفات الكثيرة التي طرأت عليه على مرّ الزمن قد تجسّد في سلسلة من التوصيات الاخلاقية، و لا علاقة له بالقضايا الاجتماعية خصوصاً السياسية منها.

والفرق بين الشخص المتدين و غير المتدين في هذه المجتمعات، هو ان الاول ملتزم بسلسلة من الاصول الاخلاقية، و يذهب في الاسبوع مرة واحدة الى الكنيسة ليتضرع و يناجي ربه ساعة من الزمن، اما غير المتدينين فلا يبالون بمثل هذه الاخلاقيات (وان احترموها احياناً باعتبارها من المثل الانسانية لا الدينية)، ولا يذهبون الى الكنيسة ابداً.

٢ - الذكرى المؤلمة جداً التي يحملونها معهم من حكومة ارباب الكنيسة في القرون الوسطى وعهد «انكيزيسون» (تفتيش العقائد)، سببت في أن يفصلوا الدين عن السياسة والى الابد.

توضيح ذلك: لقد هيمن رجال الكنيسة في القرون الوسطى على كافة الشؤون السياسية والاجتماعية لشعوب اوربا، و حكم البابوات دول هذه القارة بكل قوة،

بحيث انتهت حكومتهم الى الاستبداد والطغيان، حتى أنهم وقفوا أمام كل تقدم علمي، وسحقوا كل تطور علمي وفكري باعتباره منافياً للدين، فأسسوا محاكم سميت فيما بعد بـ«انكيزيسون» «محاكم تفتيش العقائد»، وحكموا على اعداد كبيرة في هذه المحاكم بالموت، فقطعوا رؤوس بعضهم، وأحرقوا البعض الآخر بالنار وهم احياء، او انهم حكموا عليهم بالسجن، ومن بينهم عدد من العلماء الطبيعيين المعروفين. وكان كل الملوك يحسبون لرجال الدين هؤلاء حساباً ويطيعون أوامرهم. بالاضافة الى الاموال الطائلة التي أخذوها وعاشوا في نعيم لا يوصف.

أثارت كل هذه الامور الشعب ضدهم، خصوصاً علماء العلوم الطبيعية، حيث أنهم وقفوا في وجههم بقوة، وعمّ شعار «فصل الدين عن السياسة» من جهة، و التنافي بين العلم والدين من جهة اخرى كل مكان. ثم وبانتصار هذا الجناح، انسحبت الكنيسة ورجالها من المجتمع والحكومة، والدولة الوحيدة التي بقيت بيد رجال الكنيسة من تلك الامبراطورية الواسعة هي دولة الفاتيكان الصغيرة التي لا تتجاوز الكيلومتر المربع الواحد أي بمساحة قرية صغيرة^(١).

كانت هذه كلها، تطورات قد حدثت في اوربا وخلال تلك الظروف الخاصة. ثم أن فريقاً من الدول الاسلامية حينما ذهب الى الغرب للدراسة او التجارة او السياحة جاؤوا بمثل هذه الافكار معهم كهدية من الغرب للشرق الاسلامي وهي لزوم فصل الدين عن السياسة، دون الوقوف على البون الشاسع بين «الاسلام» وبين «المسيحية» المحرّفة، وبدون التأمل في التفاوت بين الثقافة الاسلامية الحاكمة على

١. ذكرت مساحة الفاتيكان في قاموس دهخدا وقاموس معين بانها ٤٤ هكتاراً (اقل من نصف كم)، وبلغ عدد نفوسها بعض المصادر ٥٢٥ نفراً! وفي البعض ٧٠٠ نفر، وفي البعض الاخر الف نفر! وفي الحقيقة فان هذه الدولة عبارة من مجموعة من الكنائس والابنية المتعلقة بها. وفيها محطة قطار، دائرة البريد، محطة الاذاعة، ولها قانون خاص بها وحكومة مستقلة. وهناك حوالي خمسين دولة لها ممثلين لدى الباب. والملفت للنظر ان هذا البلد يقع في قلب روما عاصمة ايطاليا (قاموس دهخدا، قاموس معين والمنجد في الاعلام).

هذه الدول وثقافة الكنيسة.

و مع الاسف فقد رضخت بعض الدول الاسلامية لهذه لمؤامرة الاعلامية واعتبرتها اصلاً لا يمكن التنازل عنه (لا يخفى ان الدول الغربية التي كانت ولا تزال تخاف قوة الحكومة الاسلامية قد تابعت هذه القضية بجدية. و أن الدول المستغربة مثل تركيا، قد اتبعت هذا الاصل ووضعت على رأس قائمة اعمالها و قامت بتشكيل الحكومة العلمانية.

هذا في الوقت الذي وقفت الكثير من الدول الاسلامية و شعوبها اليقظة في وجه هذه المؤامرة، المؤامرات التي ارادت فصل «المسلمين» عن «الاسلام»، وجعل الاسلام كمسيحية اليوم مجرد طقوس ظاهرية خاصة بالخلق والخالق بعيدة عن المجتمع والسياسة.

و لهذا السبب، فحينما نجحت الثورة الاسلامية الايرانية وآت أكلها وقامت بتشكيل أول حكومة اسلامية ثورية، أخذت الحيرة والدهشة كل من في الغرب من كيفية امكان استلام الدين بزمام الحكم؟ وهل بإمكان الدين تلبية كل متطلبات عصرنا؟ ولكن بعد أن فوجئوا بثبات و صلابة هذه الحكومة، ولغرض حصرها ضمن حدودها الجغرافية ولئلا تكون نموذجاً لبقية الدول الاسلامية، فقد توسلوا بعمليات تخريبية كثيرة، بالامكان الوقوف عليها في الكتب التي تتناول هذا الموضوع.

ولحسن الحظ بقيت هذه المؤامرات عقيمة، وتجذرت فكرت تأسيس الحكومة الاسلامية في الكثير من الدول الاسلامية، في قارة آسيا و افريقيا وأصبح تباراً حياً ومنقذاً، مع ما يحاول الغرب بكل ما أوتي من قوة، ولم يترك أي شيء في سبيل ذلك من انواع الاتهامات المفرضة الكاذبة والاعلام المدسوس ليل نهار.

أما كيف أن الاسلام عفتن بمسألة الحكومة من حيث الاصول والفروع والتاريخ، فهذه المسألة ليست بتلك الصعوبة، وكل من يتأمل في القرآن الكريم وسنة النبي ﷺ والائمة المعصومين عليه السلام وكذلك تأريخ الاسلام، يدرك هذه المسألة بكل وضوح، وهي استحالة فصل الحكومة والسياسة في الاسلام، وانه بمنزلة فصل الاسلام عن نفسه!

والشاهد على هذه الامر وقبل كل شيء هو تأريخ الاسلام، فكما تمت الاشارة سابقاً فان اول عمل قام به النبي ﷺ بعد الهجرة الى المدينة كان تشكيل الحكومة الاسلامية. فقد كان ﷺ يدرك جيداً ان اهداف النبوة وبعثة الانبياء وهي التربية والتعليم، واقامة القسط والعدل وسعادة الانسان ورفعته، غير ممكنة بدون تشكيل الحكومة، ولهذا السبب فقد بدأ في أول فرصة ممكنة بارساء أسس الحكومة وذلك بأمر من الله تعالى.

فشكل جيشاً من المهاجرين والانصار، وأوجب على الجميع في أي سن كان وتحت اي ظروف (باستثناء النساء والاطفال والمرضى والمقعدين) المشاركة فيه. و كان قسم من تأمين السلاح والمؤونة والدواب لهذا الجيش المتواضع والبسيط على عاتق الشعب، والقسم الاخر على عاتق الحكومة الاسلامية. وكلما ازدادت الغزوات والمطاحنات مع الاعداء الشرسين واتسعت رقعة الحروب أكثر. ازداد جيش الإسلام رسوخاً وتنظيماً.

نزل حكم الزكاة، وتم ولاول مرة تأسيس بيت المال الاسلامي لضمان تكاليف الجهاد، واحتياجات المحرومين.

ثم نزلت احكام القضاء والعقوبات المترتبة على الجرائم والتخلفات الواحدة تلو الاخرين، و دخلت الحكومة الاسلامية مراحل جديدة.

لو لم يكن للإسلام حكومة، فما هي ضرورة تشكيل الجيش و بيت المال و دوائر القضاء والعقوبات للعاصين والمتخلفين.

وقد امتد هذا الوضع على هذا المنوال الى ما بعد النبي ﷺ في فترة الخلفاء، بل وحتى في عهد خلفاء بني امية وبني العباس، حيث انهم كانوا يحكمون باسم خليفة رسول الله ﷺ، ومع ان حكومتهم كانت متسمة بالظلم خارجة عن اطار القوانين الاسلامية، لكن مهما يكن فهي تعكس هذه الحقيقة وهي ان تشكيل الحكومة الاسلامية يعدّ من المسائل الاولى والاساسية للإسلام.

الضغوط الموجهة لائمة اهل البيت عليه السلام، ثورة الامام الحسين عليه السلام، ولاية عهد الامام علي بن موسى الرضا عليه السلام، حبس الامام موسى بن جعفر عليه السلام، نفي الامام الهادي عليه السلام والامام الحسن العسكري عليه السلام الى سامراء ووضعهم تحت المراقبة خوفاً من الثورة على الحكومة، كلها تبين بوضوح أن الائمة من أهل البيت عليهم السلام كانوا يعتبرون تشكيل حكومة العدل الالهي من مسؤولياتهم الاكيدة، وقد استغلوا كل فرصة لهذا الامر. كما ان عدوهم كان يدرك هذا الامر جيداً.

لو كان الإسلام كمسيحية اليوم محدوداً بسلسلة من الاحكام الاخلاقية، لما كان لهذه الظواهر في تاريخ الإسلام اي مفهوم. اذ لا أحد يعارض معلماً بسيطاً للاخلاق أو زاهداً منعزلاً في زاوية مكتفياً باقامة صلاة الجماعة.

انما تبدأ المعارضة حينما يتعلق الامر بالحكومة، هذا من جهة. ومن جهة اخرى فهنا لك الكثير من الاحكام اسلامية في القرآن المجيد والتي تصرخ عالياً بضرورة تشكيل الحكومة إرساء أسسها. وبعبارة اخرى، فهذه الاحكام احكام سياسية، وهي التي ترسم الخط السياسي للمجتمع الاسلامي.

هناك آيات قرآنية كثيرة حول الجهاد، وتكاليف المجاهدين، و غنائم دار الحرب،

والشهداء، والاسرى، فهل يا ترى بالامكان توجيه مثل هذه الاحكام خارج نطاق الحكومة؟

الكثير من الآيات ناظر الى وظائف القاضي، واحكام القضاء، و تطبيق الحدود والقصاص وامثالها، والكثير منها ناظر الى اموال بيت المال.

الامر بالمعروف والنهي عن المنكر هو من واجبات كل فرد مادام في حدود التنبيهات والاوامر والنواهي الكلامية، لكن بعض مراحل الامر بالمعروف والنهي عن الفكر التي تحتاج الى الصلابة والقوة، بل وحتى المواجهة العسكرية المسلحة غير ممكنة الا عن طريق الحكومة.

تطبيق العدالة الاجتماعية واقامة القسط والعدل، وفتح الطريق للتبليغ بحرية في اقصى نقاط العالم، لا يكون بالنصيحة والموعظة والمثل الاخلاقية ابداً. الحكومة هي التي ينبغي ان تنزل الى الميدان لتفك قيد الظالم عن عنق المظلوم، و تعيد حقوق المستضعفين، و توصل نداء التوحيد الى اسماع كل سكان المعهورة عن طريق وسائل الاعلام المتوفرة في كل زمان.

وقد وردت نفس هذه المضامين وبشكل أوسع في سنة النبي ﷺ و روايات المعصومين عليه السلام، والتي تشكل قسماً كبيراً من فقه الاسلام و الكتب الفقهية، ولو أردنا فصل هذه المسائل عن الروايات و الكتب الفقهية لما بقي هنا لك ما يعتد به. وكما تقدم فالكتب الفقهية تقسم الى ثلاثة اقسام، «العبادات»، و «المعاملات»، و «السياسات».

فالعبادات هي علاقة الخلق بالخالق.

والمعاملات هي علاقة الناس بعضهم ببعض.

كما وان السياسات هي علاقة الناس بالحكومة.

لكن لو دققنا النظر، لوجدنا ان قسم السياسات ليس الوحيد الذي لا يتجسد بغياب الحكومة، بل قسم المعاملات ايضاً لو لم يكن تحت اشراف الحكومة لتعرض لآلاف المصاعب والعراقيل، ولضاعت حقوق المستضعفين، وانقسم المجتمع الى قطبين اغنياء وفقراء، ولعانى الشعب من مئات المشاكل المصطنعة.

بل و حتى العبادات لا تتجسد الا في ظل حكومة قوية عادلة، و من العبادات الحج الذي تكون صبغته السياسية قوية جداً.

وصلاة الجمعة عبادة مهمة اخرى، حيث انه فضلاً عن التواجد الواسع لكل شرائح المجتمع فيها، فان اهم القضايا السياسية والاجتماعية والثقافية المعاصرة تثار في خطبتها.

كما أن صلاة الجماعة اليومية لا تخلو من هذا المحتوى ايضاً، وان كانت صبغتها السياسية اقل درجة.

الاية (٤١) من سورة الحج فيها اشارة لطيفة الى هذا الامر، يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ اِنْ مَكَنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾. و مما تقدّم، لا يبقى هناك أدنى شك في أن فصل التعاليم الاسلامية عن القضايا السياسية أمر غير ممكن، وان الشعارات التي تُطلق في الغرب لفصل الدين عن السياسة فارغة المحتوى تماماً في الشرق الاسلامي.

ونختتم هذا الكلام بحديث جامع و لطيف للامام أمير المؤمنين عليه السلام:

حينما جاء «ابو الدرداء» و «ابو هريرة» برسالة معاوية الى علي عليه السلام وكان قد طلب فيها تسليم قتلة عثمان اليه ليحاكمهم، قال الامام علي عليه السلام: «لقد ابلغتماني ما قاله معاوية، والآن اسمع كلامي وابلغاه عني»

«ان عثمان بن عفان لا يعدو أن يكون أحد رجلين: اما امام هدى حرام الدم

وواجب النصرة لا تحل معصيته ولا يسع الأمة خذلانه، او امام ضلالة حلال الدم، لا تحل ولايته ولا نصرته، فلا يخلوا من احدى الخصلتين.

والواجب في حكم الله وحكم الاسلام على المسلمين بعد ما يموت امامهم او يقتل، ضالاً كان او مهتدياً، ومظلوماً كان او ظالماً، حلال الدم او حرام الدم، ان لا يعملوا عملاً ولا يحدثوا احداثاً ولا يقدّموا يداً ولا رجلاً ولا يبدؤ بشي قبل أن يختاروا لانفسهم اماماً عفيفاً عالماً ورعاً بالقضاء والسنة، يجمع امرهم ويحكم بينهم ويأخذ للمظلوم من الظالم حقه ويحفظ اطرافهم ويجبي فيثهم ويقيم حجتهم ويجبي صدقاتهم، ثم يحتكمون اليه في امامهم المقتول ظلماً ليحكم بينهم بالحق، فان كان امامهم قتل مظلوماً حكم لاوليائه بدمه، فان كان قتل ظالماً نظر كيف الحكم في ذلك»^(١).

و على هذا الإساس وجب عليك يا معاوية و قبل التطرق لقضية قتل عثمان الرضوخ للحكومة الاسلامية و تباع من بايعه كل الناس ولا تتأخر ولو لحظة بالتوسل بهذه الحجج والذرائع.

فريقان يأخذهما الفرع من تشكيل الحكومة الاسلامية

مع كل ما تقدم - وطبقاً للدلة اليقينية أن - «الاسلام بدون حكومة» اسلام ممسوخ، فارغ المحتوى، وفي الواقع «فهو اسلام بدون الاسلام»، فمع كل ذلك لا زال هناك فريق يصّر و يخالف مسألة تشكيل الحكومة الاسلامية، وعلة هذه لمخالفة - في الواقع - امران احدهما له صبغة نفسية، والاخر له صبغة روائية.

اما العامل النفسي فهو إنهم يعيشون ذكرى مرة من الحكومات، واعتقادهم بعجز

كل واحد في الظروف الراهنة من تشكيل الحكومة الاسلامية وبسط العدل الالهي، نظراً للضغوط المستمرة الموجهة الى الحكومة من الداخل من قبل الجناح المتشدد أملاً في انتهاك حدود القوانين الاسلامية وضرب العدالة الاجتماعية، و تقديم الشعارات الفارغة على ضوابط الكتاب والسنة المعروفة.

و من جهة اخرى، فهناك الضغوط الواردة من الخارج، والمؤامرات المحبوكة للاجانب التي يقوم بها عملاءهم من العناصر «السرية» و «العلنية» تحول دون مواصلة الحكومة الاسلامية طريقها، تسبب في حرفها حتماً عن مسيرها الحقيقي لتضعها في خدمة اهدافهم. ولهذا السبب، نرى الحكومة الاسلامية الحقيقية غير قابلة للتطبيق عملياً.

وهم يستدلون على عمهم هذا بقضية الحكومة الدستورية حيث ان علماء الدين قد توغلوا فيها بكل ما اوتوا من قوة، ليعكسوا للعالم تشكيلة الحكومة الاسلامية (او ما يماثلها ولو من بعض الجهات). لكن رغم كل تلك الجهود، فقد وقف مؤيدوا الخط المنحرف الداخلين والاجانب وقفة رجل واحد في خاتمة المطاف و استبدلوها بحكومة مستبدة ظالمة.

اما من الناحية الروائية فهم يتمسكون بالروايات القائلة: «كل راية ترفع قبل قيام القائم فهي راية ضلال»!

الطائفة الأولى:

وفيهما إشارة إلى انه ما لم يحن الوقت للثورة في وجه سلاطين الجور والحكومات الظالمة، فلا تحركوا ساكناً، مثل:

١ - الرواية التي ينقلها «ابو المرفف» عن «الامام الباقر» عليه السلام حيث يقول:

«الفبرة على من اثارها، هلك المحاصير، قلت جعلت فداك وما المحاصير؟ قال: المستعجلون...»^(١).

٢ - ونقرأ في حيث اخر عن الامام الصادق عليه السلام عن آبائه الكرام في وصية النبي ﷺ لعلي عليه السلام انه قال: «يا علي، إن إزالة الجبال الرواسي أهون من إزالة ملك لم تنقض أيامه»^(٢).

٣ - وجاء في حديث عن «عيسى بن القاسم» أن الامام الصادق عليه السلام قال: «اتقوا الله وانظروا لأنفسكم، فإن أحق من نظر لها أنتم... ثم اضاف عليه السلام قائلاً: إن أتاكم منا آت يلدعوكم الى الرضا منا فنحن نشهدكم إنا لا نرضى، إنه لا يطيعنا اليوم وهو وحده، وكيف يطيعنا إذا ارتفعت الرايات والاعلام»^{(٣)؟}

٤ - نقرأ في نهج البلاغة عن امير المؤمنين عليه السلام:

«الزموا الارض واصبروا على البلاء ولا تحركوا بأيديكم وسؤوفكم في هوى السنتكم ولا تستعجلوا بما لم يعجله الله لكم، فإنه من مات منكم على فراشه وهو على معرفة حق ربه وحق رسوله وأهل بيته مات شهيداً، ووقع أجره على الله، واستوجب ثواب ما نوى من صالح عمله، وقامت النية مقام اصلاته لسيفه فإن لكل شيء مدة وأجلاً»^(٤).

لا شك ان هذه الطائفة من الاخبار لادلالة لها لا من قريب ولا من بعيد على النهي عن اقامة الحكومة الاسلامية قبل ظهور المهدي (عج)، بل الشيء الوحيد الذي

١. وسائل الشيعية، ج ١١، ص ٣٦ (ذكر صاحب الوسائل هذه الروايات في الوسائل ج ١١، كتاب الجهاد، الباب ١٣ من ابواب جهاد العدو).

٢. وسائل الشيعية، ج ١١ ص ٣٨.

٣. نفس المصدر.

٤. نهج البلاغة، الخطبة ١٩٠ (القسم الاخير منها).

تتضمنه هو تحيُّن الفرض، وعدم البدء بهذه الامور قبل توفر الفرصة المناسبة، لانكم ستدفعون ثمناً غالياً وخسائر فادحة دون أية نتيجة تذكر.

بل ربما يكون مفهوم هذا الكلام عكس ما يتوقعه هؤلاء، وهو انه متى ما تهيأت الظروف لتشكيل الحكومة الاسلامية، فعليكم بها.

وهذه الرويات - في الواقع - هي نفس ما جاء في الخطبة الخامسة من نهج البلاغة، حيث يقول عليه السلام: «وَمُجْتَنِي الثَّمَرَةَ لِغَيْرِ وَقْتٍ إِنِاعِيهَا كَالزَّارِعِ بِغَيْرِ أَرْضِهِ». اذ لن يحصل أيٌّ منهما على النتيجة المتوقعة).

والطائفة الاخرى من هذه الروايات تقول: يجب أن تكون توجه الثورة الناس إلى الرضا من آل محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، اي أن الدعوة للائمة المعصومين عليهم السلام واهدافهم، وعدم جواز الثورة بدونهم.

من جملتها ما نقرأه عن الامام الصادق عليه السلام حيث يقول:

«إِنْ أَتَاكُمْ آتٌ مِّنَّا فَانظُرُوا عَلَىٰ أَيْ شَيْءٍ تَخْرُجُونَ؟ وَلَا تَقُولُوا خَرَجَ زَيْدٌ، فَإِنَّ زَيْدًا كَانَ عَالِمًا وَكَانَ صَدُوقًا وَلَمْ يَدْعُوكُمْ إِلَىٰ نَفْسِهِ وَإِنَّمَا دَعَاكُمْ إِلَى الرَّضَا مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ، وَلَوْ ظَهَرَ لَوْفِي بِمَا دَعَاكُمْ إِلَيْهِ، إِنَّمَا خَرَجَ إِلَى سُلْطَانٍ مُّجْتَمِعٍ لِيَنْقُضَهُ، فَالْخَارِجُ مِنَّا الْيَوْمَ إِلَىٰ أَيْ شَيْءٍ يَدْعُوكُمْ؟ إِلَى الرَّضَا مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ؟ فَنَحْنُ نَشْهَدُكُمْ أَنَّا لَسْنَا نَرْضَىٰ بِهِ وَهُوَ يَعْصِينَا الْيَوْمَ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، وَهُوَ إِذَا كَانَتِ الرَّايَاتُ وَالْأَلْوِيَّةُ أَجْدَرُ أَنْ لَا يَسْمَعَ مِنَّا»^(١).

من البديهي ان هذا الحديث وامثاله لا يدل ايضاً على النهي عن تشكيل الحكومة الاسلامية، بل يقول: يجب ان يكون الهدف من تشكيل الحكومة هو إدخال السرور على الائمة عليهم السلام وكسب رضائهم، باعتبارهم الخلفاء الحقيقيين للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا

يجب البدء بهذا العمل عشوائياً بدون موافقتهم!

وعلى هذا، فمتى ما توفرت الظروف المناسبة في عصر «الغيبة» لتشكيل الحكومة الاسلامية، و تيقنا بان الامام (عج) راضٍ عنها، وكان الهدف من تشكيلها هو احياء الاسلام والقرآن وارضاء آل محمد ﷺ، فلا مانع منها، بل يجب السعي إليها ايضاً (تأمل جيداً).

الثالثة: من الروايات، تقول: كل ثورة تقوم قبل قيام القائم عليه السلام فإن مصيرها الفشل، كالروايات ادناه:

١ - نقرأ في حديث عن ابي بصير عن الامام الصادق عليه السلام انه قال: «كُلُّ رَايَةٍ تُرْفَعُ قَبْلَ قِيَامِ الْقَائِمِ فَصَاحِبُهَا طَاغُوتٌ يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(١).

٢ - ونقرأ في حديث آخر عن «الحسين بن خالد» انه قال: قلت لابي الحسن الرضا عليه السلام: ان عبد الله بن بكير كان يروي حديثاً وأنا احسب انه اعرضه عليك، فقال: ما ذلك الحديث؟ قلت: قال ابن بكير: حدثني عبيد بن زرارة قال: كنت عند ابي عبد الله عليه السلام أيام خروج محمد بن عبد الله بن الحسن^(٢) اذ دخل عليه رجل من اصحابنا فقال له: جعلت فداك إن محمد بن عبد الله قد خرج فما تقول في الخروج معه؟ فقال: «اسكنوا ما سكنت السماء والارض»، فقال عبد الله بن بكير: فان كان الامر هكذا ولم يكن خروج ما سكنت السماء والارض فما من قائم وما من خروج. فقال ابو الحسن عليه السلام: «صدق ابو عبد الله عليه السلام وليس الامر على ما تأوله ابن بكير، انما

١. وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٣٧.

٢. محمد بن عبد الله بن الحسن، حفيد الامام الحسن المجتبي عليه السلام ثار ايام المنصور العباسي، وبايعه جمع غفير، استولى على مكة والمدينة واليمن، لكن المنصور ارسل اليه جيشاً جراراً تغلب عليه ونال بدوره الشهادة. وهو معروف بالنفس الزكية، كانت شهادته في شهر رمضان سنة ١٤٥ للهجرة (تتمة المنتهى، ص ١٣٥ فما بعدها).

عنى ابو عبدالله عليه السلام اسكنوا ما سكنت السماء من النداء» (النداء الخاص الذي يأتي من السماء قبل قيام القائم عليه السلام)، والارض من الخسف بالجيش (أي السفيناني الذي يحكم قبيل ظهور المهدي عليه السلام) (١).

و يستفاد من هذا الحديث ايضاً أنه لا ينبغي الثورة قبل قيام المهدي عليه السلام.

٣ - وفي حديث آخر عن «سُدَيْر» (من أصحاب الامام الصادق عليه السلام، ان الامام عليه السلام قال له: «الزَّمْ بَيْتَكَ وَكُنْ حَلَسًا مِنْ أَخْلَاسِهِ، وَ اسْكُنْ مَاسَكَنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، فَإِذَا بَلَغَكَ أَنَّ السُّفِينَانِي قَدْ خَرَجَ فَارْحَلَ الْيَنَا وَلَوْ عَلَى رِجْلِكَ» (٢).

«السفيناني» احد الجلادين والحكام الظالمين ويظهر قبل قيام المهدي عليه السلام، و يرسل الجيوش الى مناطق مختلفة، من حملتها الجيش الذي ببعثه إلى المدينة المنورة فيصل إلى الصحراء القريبة من المدينة، فتحدث زلزلة هناك و تنشق الارض لتبتلعه و جيشه!

وهنا لك روايات كثيرة اخرى بنفس هذا المضمون، وهو عدم جواز القيام ما لم تظهر علامات ظهور المهدي عليه السلام، كرواية «عمرو بن حنظلة» عن الامام الصادق عليه السلام، ورواية المعلى بن خنيس عنه عليه السلام، ورواية جابر عن الامام الباقر عليه السلام (٣)، و

نقد و تحليل

حول هذه الروايات نلثت نظركم الى عدة نقاط لا بد منها:

١. وسائل الشعية، ج ١١.
٢. نفس المصدر، ص ٣٦.
٣. وسائل الشعية، ج ١١، الصفحات ٣٥ و ٤١.

١ - توجد لدينا في الشريعة الاسلامية سلسلة اصول بديهية لا يجوز تخطيها، من جملتها «الامر بالمعروف والنهي عن المنكر» الذي لا يتطرق الشك اليه ابداً من حيث بدايته وكونه من الاصول المسلّم بها. و ما أكثر الآيات والروايات التي اكدت عليه. لنفرض اننا نعيش في محيط قد ضاعت فيه الاحكام الالهية، وعمّ التجاهر بالمنكرات، واودع المعروف زاوية النسيان، وأحاط الظلم والفساد في كل مكان، وكان باستطاعتنا تغيير الوضع الفاسد بثورة قوية ضد النظام الحاكم ونشر المعروف بدل كل تلك المنكرات على نطاق واسع. فهل يدّعي أحد حُرمة هذا العمل في مثل هذه الظروف، وانه ينبغي التفرج على هذه الاوضاع الفاسدة التي تصدر فيها الاحكام الالهية، ويخرج الشباب المسلم عن الدين؟!!

قد يدّعي المتذرعون عدم حدوث مثل هذا الشيء. لنفترض و نحن نقول حدوثه، اذ ليس هذا الفرض محالاً عقلياً، فهل تقول ثانية بضرورة تمجيد عن كل تحرك والتسليم أمام الإنتشار السريع للفساد والظلم و سحق الاحكام الاسلامية؟! لا أظن أن عالماً و محققاً يتفوه بمثل هذا الكلام!

من الشواهد على هذا الكلام محمد بن عبدالله من احفاد الامام المجتبي عليه السلام المعروف بـ «النفس الزكية»، حيث نقرأ عنه: «حينما بايعه عدد من الوجهاء باعتباره المهدي عليه السلام، وبلغ ذلك؟؟ الامام الصادق عليه السلام، بل وحتى طلبوا منه عليه السلام ان يبايعه! قال عليه السلام: دعوا هذا الامر، فانه لم يحن الوقت بعد (وسيكون ظهور المهدي في المستقبل)، فلو انك (ابي عبدالله ابو محمد) تعتبر ابنك هو المهدي الموعود، فانه ليس بالمهدي، ولم يحن وقت ذلك بعد، ولو اردت اجباره على الخروج في سبيل الله والامر بالمعروف والنهي عن المنكر، فوالله لن ندعه لوحده، وسنبايعه!

فغضب عبدالله وأجاب بجواب غير مناسب^(١).

خلاصة القول: هي أنه لو فرضنا أن الروايات اعلاه تصرح بأن كل ثورة قبل قيام المهدي عليه السلام على ضلال، لكننا لا نتمكن ابداً لاجل خبر واحد أو عدة أخبار هي في حكم الخبر الواحد من تجاهل الاصول المسلّمة للاسلام والتي جاءت في القرآن الكريم واحاديث الائمة المعصومين عليه السلام. وعلى هذا، فمتى ما توفرت مقدمات تشكيل الحكومة الاسلامية وأمكن محو الظلم والفساد والاعتداء و... فلا ينبغي التشكيك في ضرورة القيام بذلك. اذ لا يمكن تناسي ادلة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وتطبيق الحدود واقامة القسط والعدل بحجة ورود النهي عن هذا العمل في عدة اخبار مشكوكه!

٢ - لدينا في قبال هذه الروايات روايات اخرى عن أهل البيت عليهم السلام أنهم تحكي عن ان الائمة عليهم السلام قد أثنوا على بعض الثورات التي حدثت في زمانهم، مع أن هذه الثورات لم تبلغ غايتها. فكيف يعقل من هذه الثورات مع ثنائهم عليه السلام عليها؟! من جمله ذلك ما جاء في الروايات حول قيام «زيد بن علي» باعتباره ثورة مقدسة: يقول المرحوم الشهيد في القواعد في بحث الامر بالمعروف والنهي عن المنكر: «كان خروجه باذن الامام عليه السلام» ويقول الشيخ المفيد في الارشاد: «كان زيد افضل ابناء الامام السجاد عليه السلام بعد الامام الباقر عليه السلام، وكان عالماً عابداً تقياً سخياً شجاعاً، قام بالسيف ليأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ويأخذ بثأر شهداء كربلاء»^(٢). يذكر المرحوم العلامة المامقاني روايات كثيرة في فضل و مدح زيد بن علي، و ذلك التسم من الروايات التي ذكرت في ذمه، يقوم بتوجيهها ولا يراها تستحق الذكر

١. ارشاد المفيد - بتلخيص -، ج ٢، ص ١٨٥ (الباب ١٣ في حالات الامام الصادق عليه السلام).

٢. تنقيح المقال (رجال المامقاني)، حالات زيد.

امام روايات المدح تلك^(١).

يقول المرحوم العلامة المجلسي بعد ذكره لاختلاف الروايات حول «زيد» وثورته: «الاخبار التي تدل على مكانته الرفيعة ومدحه والثناء عليه وانه لم يدع لغير الحق هي الاكثر، وقد اقر جُل الاصحاب بعظمة مكانة زيد»^(٢).

فحينما تكون كل ثورة قبل المهدي عليه السلام ثورة ضلال و شرك، فكيف يمكن الثناء على ثورة زيد بن علي عليه السلام، وتمجيدها؟!

والنموذج الاخر هو الروايات التي جاءت في مدح الحسين بن علي شهيد فخ. وكان الحسين بن علي هذا من أحفاد الامام الحسن المجتبي عليه السلام، ثار في ايام الخليفة العباسي (موسى الهادي) سنة ١٦٩ هـ، توجه من المدينة الى مكة للحج في ذلك العام، وحينما وصل ارض «فخ» قريباً من مكة، حدثت معركة ضارية بينه وبين انصاره من جهة، وبين عمال و جنود الخليفة العباسي من جهة اخرى، فاستشهد الحسين بن علي مع جماعة من انصاره في هذه المعركة. وهو الذي عدّه دعبل الخزاعي في ابياته المعروفة «مدارس آيات» باعتباره شهيداً من شهداء اهل البيت عليه السلام، ولم يعترض الامام علي بن موسى الرضا عليه السلام على قوله:

قُبُورٌ بِكُوفَانٍ وَزَأْخَرَى بِطَبِيبَةٍ وَأُخْرَى بِفَخٍّ نَالَهَا صَلَوَاتِي

ونقرأ في حديث عن الامام التاسع (الامام الجواد عليه السلام): بينما كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يجتاز ارض فخ اذ نزل وصلى، وبينما هو في الركعة الثانية اخذته العبرة، فبكى بكاءً أبكى من معه، وحينما انتهت الصلاة، سأله صلى الله عليه وآله وسلم عن سبب بكائه، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: لقد جاءني جبرائيل وقال لي: «أي محمد! إن رجلاً من ولدك يُقتل في هذا المكان،

١. نفس المصدر (حالات زيد).

٢. البحار، ج ٤ ص ٢٠٥.

أجر الشهيد معه، أجر شهيدين^(١)».

بل جاء في حديث عن الامام الجواد عليه السلام انه قال: «لم يكن لنا بعد الطف مصرع اعظم من فخ»^(٢).

كما جاء في رواية عن الحسين بن علي (شهيد فخ) نفسه انه قال: «ما خرجنا حتى شاورنا موسى بن جعفر فامرنا بالخروج»^(٣).

يقول المرحوم العلامة المامقاني في خاتمة ما يتعلق بشرح احواله: «يتضح مما قلنا انه كان من الثقات، لان الامام موسى بن جعفر عليه السلام قد امضى ذلك في احد الاخبار، و جاء في الحديث: «اجر الشهيد معه، اجر شهيدين». وقد بكى عليه النبي ﷺ في زمانه، وقال الامام الصادق عليه السلام: «ستدخل روحه الجنة قبل جسده»!.

لمزيد من الاطلاع حول هذا الموضوع راجع كتاب تنقيح المقال الذي تقدم (ج ١ ص ٣٣٧ وبحار الانوار، ج ٤٨، ص ١٦٠ فما بعدها).



مضافاً إلى ما تقدم، فتد جاء في الرويات ان اقواماً سيثرون قبل قيام المهدي عليه السلام، و يمهدون لظهوره عليه السلام، وقد ورد مدحهم في الأحاديث الشريفة، فلو كانت ثورتهم باطلة داعية إلى الطاغوت، لما كان لهذه الروايات مفهوماً صحيحاً.

١. تنقيح المقال، ج ١ ص ٣٣٧ (حالات الحسين بل علي شهيد فخ) - بحار الانوار، ج ٤٨، ص ١٧.

٢. نفس المصدر.

٣. نفس المصدر.

و نكتفي هنا بروایتين عن طريقي الشيعة والسنة، مع ان الروايات اكثر من هذا بكثير.

نقرأ في حديث عن الامام ابي الحسن الاول (الامام الكاظم عليه السلام) انه قال: «رَجُلٌ مِنْ قُمْ يَدْعُو النَّاسَ إِلَى الْحَقِّ يَجْتَمِعُ مَعَهُ قَوْمٌ كَزُبْرِ الْحَدِيدِ لَا تَزِلُّهُمْ الرِّيحُ الْعَوَاصِفُ وَلَا يَمْلَأُونَ مِنَ الْحَرْبِ وَلَا يَجْبَنُونَ وَعَلَى اللَّهِ يَتَوَكَّلُونَ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ»^(١).

و قد تم التصريح في قسم من الروايات التي تشير الى مثل هذه الثورات بانها ممهدة لظهور المهدي عليه السلام. و على اية حال ، فهي حاكية عن ان ثورات مشروعة ستحدث قبل قيام المهدي عليه السلام ، ثورات دامية داعية الى الحق مع ضمان النصر.

نقرأ في حديث في سنن ابن ماجة من المصادر السنية المعروفة:
حضر جمع من شباب بني هاشم بين يدي الرسول ﷺ ، وحينما وقع نظره المبارك عليهم اخذته العبرة وتغير لونه، فسئل عن ذلك، فقال ﷺ :

«إِنَّا أَهْلُ بَيْتِ اخْتَارَ اللَّهُ لَنَا الْآخِرَةَ عَلَى الدُّنْيَا، إِنَّ أَهْلَ بَيْتِي سَيَلْقَوْنَ بَعْدِي بَلَاءً وَتَشْرِيداً وَتَطْرِيداً حَتَّى يَأْتِيَ قَوْمٌ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ مَعَهُمْ رَايَاتٌ سَوْدٌ فَيَسْأَلُونَ الْخَيْرَ فَلَا يَعْطُونَهُ فَيَقَاتِلُونَ وَيَنْصَرُونَ فَيُعْطُونَ مَا سَأَلُوا فَلَا يَقْبَلُونَهُ حَتَّى يَدْفَعُوهَا إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي فَيَمْلَأُهَا قِسْطاً كَمَا مَلَأُوهَا جَوْرًا، فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَلْيَأْتِهِمْ وَلَوْ حَبَوًّا عَلَى الثَّلَجِ»^(٢).

يستفاد من ذيل هذه الرواية بكل وضوح ان هذه الثورة ستحدث قبيل ثورة المهدي، وانها الممهدة له عليه السلام فضلاً عن مشروعيتها.

١. سفينة البحار، لفظة «قم».

٢. سنن ابن ماجة، ج ٢ ص ١٣٦٦، الحديث ٤٨٢.



يظهر بجلاء من كل ما قيل في هذا الفصل ان ثورات ستحدث قبل ظهور المهدي (عج) فيها صبغة الهية، بعضها يؤتي اكله وبعضها ينتهي بالفشل، وليس ان كل رايه ترفع قبل المهدي (عج) راية ضلال وطاغوت حتى لو كانت باذن اهل البيت عليه السلام وعلى خطاهم (تأمل جيداً).

٣ - والحاصل ان الروايات التي تقول: «كل راية ترفع قبل قيام المهدي عليه السلام راية ضلال و شرك و الطاغوت...»، يجب تفسيرها بشكل بخيث تتلاءم مع المسلّمات الفقهية واحكام الامر بالمعروف والنهي عن المنكر «محاربة الفساد»، وكذلك مع الثورات العديدة التي حدثت في زمان المعصومين عليه السلام وامضوها بدورهم عليه السلام. و لدينا لتفسير هذه الروايات عدة سبل:

١ - المراد من تلك الثورات المنحرفة، التورات التي تقع بدون اذن واجازة المعصومين عليه السلام، او الحكّام الشرعيين و او نواب الامام المهدي (عج) في عصر الغيبة.

٢ - المراد منها، الثورات التي تحدث بقصد الدعوة لانفسهم لا لاهداف آل محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم، حيث تمت الاشارة الى ذلك في الروايات اكثر من مرة.

٣ - المراد بها، الثورات التي تظهر في فترات معينة بدون استعداد لها، وان الائمة عليه السلام انما تلفظوا بتلك الجمل ونهوا عن ذلك للحد من الثورات التي لم نتضج بعد.

و نعود هنا ثانية الى القرآن الكريم لتأمل في النداء العام للقرآن بدعوة الامة الاسلامية للثورة في وجه الظالمين والدفاع عن المظلومين و بسط القسط والعدل. نقرأ في الاية ٧٥ من سورة النساء:

«وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا».

لا يخفى ان هذه الآية ونظائرها التي تتحدث حول اقامة القسط والعدل او الدفاع عن المظلومين و مقارعة الظالمين لا تنحصر بزمان و مكان معينين، وانها من الاصول المهمة للاسلام. وانه كلما توفرت الفرص والمقدمات لهذا الهدف المقدس فلا بد من البدء بذلك فوراً.

* * *

أركان

الحكومة الإسلامية

المقدمة:

نحن نعلم أن أية حكومة بحاجة إلى ثلاثة أركان أساسية، ليس بمقدورها مواصلة الحياة بدونها:

١ - ركن التقنين (وضع القوانين).

٢ - ركن التنفيذ.

٣ - ركن القضاء.

فلابدّ أولاً من توفر القوانين القادرة على معالجة مشاكل المجتمع وتنظيم علاقات الناس فيما بينهم، والعمل على تحريك عجلات المجتمع على طريق الرقي والتكامل، سواء كان مصدر سنّ القوانين الوحي الإلهي تارة، وبإرادة أحد الأفراد على من حوله تارة أخرى، وأحياناً بمجالس سنّ القوانين، الذي سنتحدث عنه لاحقاً. وحتى المجتمعات التي تُدار وفق القوانين الإلهية، والتي تستمد قوانينها من مصدر الوحي، تحتاج هي الأخرى أيضاً إلى سلطة مقننة كي تعمل على تطبيق القوانين الإلهية العامة على الإحتياجات اليومية للناس، وتعمل أيضاً على تطبيق المسائل الجزئية وإحتياجات كل زمان التي يعرض عليها التغيير والتبديل بمرور الزمان على المسائل التي هي محل إبتلاء، أو كما يصطلح على ذلك «ردّ الفروع إلى الأصول» أو بتعبير آخر، تقوم بعملية «التقنين الموضوعي».

وبعد أن تُكتب متون القوانين وتجعل موضع التنفيذ والعمل، يجب يوكل أمر تنفيذها بيد مجموعة من الأفراد يقومون بتطبيقها على المجتمع، فلو كانت هذه القوانين بحاجة إلى مقررات تنفيذية. يقوم هؤلاء بتدوين هذه المقررات، وإن لم تكن حاجة إلى ذلك، ينتقلون مباشرة إلى مرحلة التطبيق، وهذا ما يُعمل به في عالم اليوم والمسمى بـ «السلطة التنفيذية» أو «الحكومة».

وللدول أيضاً رئيس يُعبّر عنه أحياناً برئيس الجمهورية، وأحياناً رئيس الوزراء، وأخرى بالصدر الأعظم، وهؤلاء أيضاً يقومون بدورهم بتعيين الوزراء والمدراء العامّون، ومدراء الدرجة الأولى. ورؤساء الأقسام والشعب، إذ يقسمون بينهم الواجبات التنفيذية، ويطبّقون من خلالها برامجهم الحكومية.

وفي هذا الخضم يحتمل حدوث مشاكل واختلافات بين الناس، أو بين دوائر الدولة، أو بين الدولة والناس في المسائل الحقوقية المختلفة، والسلطة التي تأخذ على عاتقها تشخيص الظالم من المظلوم وصاحب الحق من المدّعي الفاقد له، تسمى بـ «السلطة القضائية»، ولاشك في أن الحكم الصادر من قبل هذه السلطة، يحتاج بعد صدوره أيضاً إلى السلطة التنفيذية لغرض تنفيذه. والتي يجب أن تنفذ هذه الأحكام بشكل دقيق.

وفي هذا المجال توجد أقسام أخرى في النظام، قد نتصور أحياناً بأنها تشكل أركاناً مستقلة بحد ذاتها. ومن الممكن أن ينظر لها على أنها تمثل الركن الرابع والخامس وما شاكل ذلك، كالشرطة والإستخبارات، وكذلك التربية والتعليم والمؤسسات الخيرية والقوات العسكرية وقوى الأمن الداخلي.

إلا أنه من الواضح أن هذه الأمور تُعد جزءاً من السلطة التنفيذية وبمنزلة الأداة بيدها إذ تستخدمها لغرض تنفيذ القوانين بأفضل الطرق وأكثرها تأثيراً.

وتقوم الإستخبارات بكشف النقاب عن المؤمرات السريّة، وتضع المعلومات الوافية عن الحوادث التي تقع هنا وهناك بين يدي المسؤولين التنفيذيين، ليتسنى لهم أحباط تلك المؤامرات، والوقوف على ما يضر المجتمع وما ينفعه لإتخاذ الموقف المناسب وفي الوقت المناسب أزائها، وكذلك تقوم المراكز التعليمية والمؤسسات الخيرية بمساعدتهم للوصول إلى أهدافهم من خلال الطرق الثقافية، سيّما وأن أفضل الطرق لتطبيق القانون هو الطريق الثقافي، الذي يدفع المجتمع إلى تطبيق القوانين بشكل ذاتي وآلي، ويصبح المجتمع بالتالي مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾، وكذا الحال بالنسبة للمراكز التي ذكرت آنفاً.

وبعد هذه الإشارة المختصرة نعود إلى القرآن المجيد ونبحث عن كلٍ من هذه الأركان الثلاث في آيات القرآن الكريم.



القوة

التشريعية في الإسلام

تمهيد:

طبقاً لرؤية القرآن الكريم واحاديث المعصومين عليهم السلام وعلماء الإسلام، فإن مسألة تشريع القوانين تختص بالله تعالى، والواقع أن مسألة التقنين (سنّ القوانين) تعد شأنًا من شؤون التوحيد في الأفعال، فكما أن الله تبارك وتعالى هو الحاكم المطلق على جميع عالم الوجود وعالم البشرية، فإنه كذلك حاكمٌ على نظام التشريع أيضاً (فتأمل).

وهذه المسألة فضلاً عن كونها وردت بشكل صريح في الآيات المباركة والروايات الإسلامية، فهي مؤيدة أيضاً بدليل العقل. لأنّ المقنن الواقعي هو الذي يجب أن يمتلك الصفات التالية:

- ١- يجب أن يكون مطلعاً على حقيقة الإنسان وملماً بجميع خصائصه من حيث الجسم والروح، بحيث يكون خبيراً كاملاً بالإنسان، وعارفاً بجميع أسرارهِ، وعواطفهِ، وميوله، وغرائزه وشهواتهِ، ومسائلهِ الفطرية، ومطلعاً أيضاً على جميع القابليات والكفاءات الكامنة في الفرد والمجتمع، والكمالات المتيسرة له بالإثوة، وبعبارة أخرى: يجب أن لا يخفى عليه أي شيء في تركيبة الإنسان وكيانه.
- ٢- يجب أن يكون عالماً بآثار وخواص جميع الأشياء في الوجود من حيث إنسجامها وتناغمها مع وجود الإنسان أو عدم إنسجامها، وبشكل أدق يجب أن يعلم فوائد ومفاسد جميع الأعمال الفردية والاجتماعية وآثارها ونتائجها.
- ٣- أن يكون خبيراً بجميع الحوادث التي يمكن وقوعها في المستقبل البعيد أو

القريب، والتي تلعب دوراً مؤثراً بنجوى أو آخر في مصير الإنسان.

٤ - المقنن أو المشرع الحقيقي هو الذي يكون مصوناً من كل خللٍ أو ذنبٍ أو خطأ، وأن يكون قوي الإرادة شهماً في الوقت الذي يكون فيه رؤوفاً رحيماً، وأن لا يداخله الخوف من أي قوةٍ في المجتمع.

٥ - يجب أن لا تكون له أية مصلحةٍ أو منفعةٍ في المجتمع البشري، لئلا يتجه محور أفكاره أثناء سنّة للقوانين - من حيث يعلم أو لا يعلم - نحو الجهة التي تحافظ على مصالحه الشخصية، ويضحى بمصلحة المجتمع لحساب مصالحه الشخصية.

فهل توفر هذه الصفات في غير ذات الله تعالى؟ وهل بإمكانكم العثور على من يقول: أنا عالمٌ بالإنسان وبجميع خصائصه؟ في حين أن أعظم العلماء، يبدون عجزهم عن الإجابة على هذا السؤال، بل إنهم يقولون علناً بأن الإنسان يُعدّ كائناً مجهولاً، حتى أنهم إختاروا هذا العنوان لكتبهم ومؤلفاتهم؟

وهل هناك من هو خبيرٌ بالماضي والمستقبل والروابط الدقيقة فيما بينها وبين زماننا الحاضر؟

وهل هناك من يكون عارفاً بآثار وأسرار جميع الموجودات، ومصاناً من كل نوع من أنواع الانحراف والذنوب والخطأ؟

من المسلّم أن هذه الصفات والخصائص لا تتحقق إلا في الله تعالى وأنبيائه الكرام.

ونخلص من هذه الإشارة التصيرة إلى نتيجة طيبة، وهي أن المشرع الحقيقي هو الله تعالى الذي خلق الإنسان وأطلع على جميع أسرار خلقه، ويعلم أسرار جميع الموجودات، وخبيرٌ بحوادث المستقبل والماضي وعلاقتها بأحداث الحاضر على أحسن ما يرام.

• ولا طريق لأي خطأ أو زلل إلى ذاته الطاهرة المقدسة ولا يخشى أحداً، ولا حاجة له أو مصلحة شخصية لكي يشبعها عن طريق القوانين الموضوعية، بل أنه تعالى يلاحظ منفعة الإنسان فقط في تشريعاته المقدسة.

وفضلاً عن ذلك كله فإن الوجود بأسره ضمن دائرة حكومة وسلطته، ولا معنى لأن يقوم غيره بإصدار أحكامه في هذه الدائرة، بل إن الخضوع لأحكام الآخرين والإعتراف بقانون غير قانونه جلّ وعلا يعدّ نوعاً من الشرك والضلال.

وبهذه الإشارة نعود مرة أخرى إلى القرآن الكريم. ونستعرض الآيات التي تقول بأن مسألة التشريع وسنّ القوانين مختصة بالله تعالى.

١ - ﴿ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾^(١)

٢ - ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكُّهُ إِلَى اللَّهِ ﴾^(٢)

٣ - ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾^(٣)

٤ - ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾^(٤)

٥ - ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾^(٥)

٦ - ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرُهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا

أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾^(٦)

٧ - ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾^(٧)

١ - الكهف : ٢٦.

٢ - الشورى : ١٠.

٣ - المائدة : ٤٤.

٤ - المائدة : ٤٥.

٥ - المائدة : ٤٧.

٦ - المائدة : ٤٩.

٧ - المائدة : ٥٠.

٨ - ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلُ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرُسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(١)

٩ - ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٢)

١٠ - ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(٣)

تفسير الآيات:

في الآيات السبعة الأولى من هذه الطائفة من الآيات يدور الحديث فيهنّ على أن الحكم هو حكم الله فقط وعلى الجميع أطاعة أحكامه تعالى.

صحيح أن «الحكم» يأتي بمعنى «المنع»^(٤) أساساً، ولكن بما أن الأمر والنهي يصبح سبباً لمنع وقوع المخالفات والأعمال الخاطئة، سُمّي «الحكم»، وسميت العلوم والمعارف لهذا السبب «الحكمة» أذ أنها تمنع وقوع الأعمال الجاهلة وغير العقلانية.

والملاحظة الأخرى الجديرة بالاهتمام أيضاً، وهي أن مصطلح «الحكم» في القرآن الكريم، يأتي أحياناً بمعنى التحكيم والنصل، وأخرى بمعنى الأمر والنهي، وعندما يأتي بمعنى التحكيم، يُعدُّ أيضاً نوعاً من الأمر والنهي الذي يصدر عن القاضي.

ومع الأخذ بنظر الاعتبار ما تقدم ذكره، نعود مرة أخرى إلى الآيات المباركة، إذ أن

١ - النور: ٥١.

٢ - الأنعام: ١٥٣.

٣ - المائدة: ٣.

٤ - يرجى الرجوع إلى كتاب مصابيح اللغة ومصباح اللغة ومفردات الراغب.

الآية الأولى، تصرح بأن الحاكمية والحكومة، والأمر والنهي وكذلك الولاية، مختصة بأجمعها بالله تعالى إذ تقول: ﴿ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾. والواقع أن صدر الآية وذيلها هما بمنزلة العلة والمعلول، لأنه عندما تختص الولاية بالله تعالى، فمن الطبيعي حينئذ أن يقتصر الحكم والقانون أيضاً به تعالى، ومن الواضح، أن «الحكم» يشمل هنا الأمر والنهي وكذلك القضاء والحكومة أيضاً، لأن كل هذه الأمور تعدّ بمثابة فروع الولاية، وبما أن الولاية منحصرة به تعالى، إذن فالحكم من شأنه أيضاً، بل يعتقد البعض أن ولاية الله تعالى تشمل حاكميته التكوينية على عالم الخليفة أيضاً، لأن ولايته في عالمي التشريع والتكوين ثابتان، إذاً فحاكميته تمتاز بالشمول والعمومية أ



وبدور الحديث في الآية الثانية عن حكم الله وقضائه: ﴿ وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ﴾.

ويقول تعالى في نهاية الآية: ﴿ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾. وبما أن كل شيء (وخاصة الحكم والقضاء) بيده تعالى، إذاً يجب أن يكون التوكل عليه والإنابة إليه فقط.

وطالما أن التحكيم والقضاء غير منفصلين عن الحكم والقانون (بمعنى أن الكثير من موارد النزاع هي من قبيل الشبهة الحكمية، وليس الشبهة الموضوعية)، نصل إلى أن الحكم والأمور والقانون أيضاً بيده تعالى فقط.



الآية الثالثة الرابعة والخامسة، تتحدث عن الذين لا يحكمون بما أنزل الله تعالى، ولا يعيرون لذلك أهمية تذكر، أو بعبارة أخرى، يحكمون بغير حكم الله، فقبل عنهم في إحداها أنهم (كافرون) وفي الآية الأخرى (ظالمون) وفي الثالثة أنهم (فاسقون) وهو قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ... فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ... فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

فهم كافرون بسبب إعراضهم عن إحدى فروع التوحيد الإفعالي، أي التوحيد في حاكمية الله، حيث يؤكد هذا الفرع من التوحيد أنه: ليس لغيره الحق في الحكم وإصدار الأوامر ولا في الحكومة، ولا في القضاء والتحكيم، لذا من المسلّم به أن من ينحرف عن هذه النظرية، فقد أبتلى بنوع من الشرك.

وهم ظالمون: بسبب ممارستهم الظلم بحق أنفسهم والآخرين، وتركهم جانباً الإحكام التي تمثل أساس سعادتهم و سبب رقي مجتمهم، وأخذهم بأحكام قليلة الأهمية أو قاصرة لها تماماً، والتي لا تأخذ بنظر الاعتبار سوى مصالح محدودة وقليلة. وهم فاسقون: لكونهم تجاوزوا حدود العبودية وخرجوا عنها، لعلمنا بأن معنى الفسق هو الخروج عن الواجب والأمر.

هذه التعابير الثلاثة المختلفة (الكفرون والظالمون والفاسقون) في الآيات الثلاثة الآنفة دقيقة جداً، ومن الممكن أن تكون إشارة إلى الأبعاد الثلاثة للقانون الإلهي، لأن «القانون» ينتهي في أحد جوانبه بـ«المقنن» (الله تعالى)، إذ تعتبر مخالفته «كفراً»، ومن ناحية أخرى ينتهي بعباد الله تعالى، إذ تعد مخالفته «ظُلماً»، والثالثة، ينتهي بشخص الحاكم والقاضي من البشر، إذ يعد حكمه - «عندما يكون مخالفاً لحكم الله» - «فسقاً».

والآية السادسة تأمر النبي الأكرم ﷺ بأن يحكم بينهم بما أنزل الله ولا يتبع في ذلك أهواءهم ويحذرهم لئلا يفتنوه عن بعض الأحكام التي أنزلها الله عليه، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾.

إن المقارنة بين «الحكم بما أنزل الله» و «إتباع الهوى» يبين لنا أن الذي يعرض بوجهه عن حكم الله تعالى، سيسقط في وادي الهوى المرعب، وقول الآية ﴿واحذرهم أَنْ يَفْتِنُوكَ﴾ تأكيد آخر ومكرر على إتباع أحكام الله تعالى، والوقوف بوجه الوسوس وعدم الإعتراف بغيره. ومما لا شك فيه أن النبي الأكرم ﷺ لم يكن ليفتن بهم إطلاقاً بسبب تمتعه بمقام العصمة الرفيع، إلا أن التعبير أعلاه يُعدّ درساً لسائر الناس، لكي يحذروا مكائد الأعداء والأغبيهم من أجل حرف المؤمنين وأبعادهم عن الإمتثال وبالنية إلى شأن النزول الأحكام الله تعالى.

الذي ذكره المفسرون لهذه الآية، فإن الآية الآنفه تتعلق بمسألة القضاء والفصل في الاختلافات والمنازعات، وكلمة «بينهم» أيضاً تعبّر عن هذا المعنى، ولكن من المسلّم به هو أن الفصل يجب أن يكون مستنداً إلى حكم وقانون، ومفهوم هذه الآية يشير إلى أن مستند القضاء والفصل يجب أن يكون ما أنزل الله فقط.



والآية التي تأتي بعد الآية السابقة مباشرة في القرآن الكريم، تقول: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

وهنا تصرّح هذه الآية الكريمة بأن الأحكام غير الإلهية إنما هي أحكام جاهلية،

تلك الأحكام النابعة عن الجهل وعدم المعرفة، وأحياناً عن الهوى والوساوس الناجمة عن الجهل، ولو تأملنا في هذه الآية جيداً، لوجدنا أن هذا المعنى لا يختص فقط بعصر النبي الأكرم ﷺ ونهضته في العصر الجاهلي للعرب، بل إن كل حكم غير الهي - وكما أشرنا إلى ذلك آنفاً - لا يمكن أن يكون منزهاً من الجهل، لأن علم الإنسان محدود يقيناً، إذ أنه لا يملك معرفة كاملة بجميع خصائص وزوايا وجوده، ولا يملك إطلاعاً كاملاً على أسرار الموجودات والحوادث الماضية والحالية والمستقبلية، التي تلعب دوراً مؤثراً في نوعية الأحكام سلباً وإيجاباً، مضافاً إلى بما أن لكل فرد في المجتمع ميول ومصالح معينة، ولا يمكنه أن يُبعد نفسه تماماً عن تلك المصالح أثناء سنّ القوانين، والله تبارك وتعالى وحده العالم بكل شيء والغني عن عبادته.

يقول «البرسوثي» في تفسيره روح البيان، في تبين معنى «الجاهلية»: «وهو كل ما لا يستند إلى الوحي والكتاب السماوي»^(١).
ونقرأ في تفسير «في ظلال القرآن»^(٢):

ونقل في تفسير «مجمع البيان» عن بعض المفسرين المتقدمين قولهم:
أن هذا النوع م من التمييز والإزدواجية المطبقة أيضاً في عصرنا هذا، والقوانين التي تطبق على الضعفاء فقط سواء داخل الدول أو في العلاقات الدولية أيضاً، والتي غالباً ما يستثنى منها الأقوياء، دليل بارز على وجود المجتمعات الجاهلية!
والملفت للنظر أن الكثير من الآيات الآتفة الذكر والتي صرّحت بإختصاص حق التقنين والتشريع بالله تعالى موجودة في سورة المائدة، والمعلوم لدينا أن سورة

١ - تفسير روح البيان، ج ٢، ص ٤١٠.

٢ - في ظلال، ج ٢، ص ٧٥١.

المائدة وكما هو معروف هي آخر سورة، أو من أواخر السور التي نزلت على الرسول الأكرم ﷺ، إذ أن الكثير من المسائل الإسلامية الهامة ومنها المسائل المتعلقة بالحكومة التي تعدّ من أركان الإسلام المهمة وردت في هذه السورة، وتمّ التأكيد في آيات عدّة من هذه السورة المباركة، على أن «الحكم» و «الأمر» و «تشریع القوانين» مختصّ بالله تعالى، وهذه التأكيدات المتكررة في هذه السورة ذات مغزى عميق.

وتتحدث الآية الثامنة عن الإيمان والتسليم المطلق أمام حكم الله ورسوله ﷺ إن تقول: «إنما كان قول المؤمنون إذا دُعُوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون».

ويتضح لنا من شأن النزول الوارد في بعض التفاسير للآيات التي تأتي بعدها - وهو أن جماعة من المنافقين لما شعروا بضعف موقفهم جاؤوا إلى الرسول ﷺ وأقسموا على تسليمهم لأوامر النبي ﷺ - أن الآية أعلاه عن النقطة المقابلة لهذه المجموعة أي المؤمنين و تقول: إن التسليم المطلق لا بدّ أن يكون أمام قوانين الله تعالى، ولا عبرة بأي قانون غيره، ولو كان المراد بالآية مسألة القضاء والفصل بين المنازعات فكذلك، لأنّه وكما سبق وأن قلنا: إن مسألة التحكيم تقوم على أساس القانون أيضاً، وبناءً على ذلك فإن التسليم لقضاء الله تعالى ورسوله ﷺ يعني التسليم التسليم أمام القانون الالهي، ولهذا نجد أن القضاة دائماً عندما يصدرون أحكامهم، يستندون في ذلك على مادة واحدة وأو أكثر من المواد القانونية، يعني التسليم، فعلى المؤمنين الإستناد مواد القانون الالهي فقط.

وقد وردت الآية التاسعة بعد الأوامر الإلهية العشرة التي وردت قبلها (بخصوص الشرك، والإحسان إلى الوالدين، والكف عن قتل الأولاد - وبشكل عام - أهراق الدماء البريئة، والأعمال القبيحة الأخرى) إذ يقول تعالى في نهاية هذه الطائفة: ﴿وَإِنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

ومن هذا التعبير يتضح لنا جيداً أن «الصراط المستقيم» يعني حكم الله تعالى وقانونه وأوامره، وكل ما هو دونه يعدّ من الطرق المعوجة والمنحرفة والتي تبعد الناس عن صراط الله المستقيم، ويستفاد من هذا التعبير أيضاً، أن إتباع الطرق الأخرى تؤدي إلى بث التفرقة والتشتت والإختلاف، والدليل على ذلك واضح أيضاً، لأنّ رأي الناس وحتى العلماء الكبار في تشخيص منافع ومفاسد الأعمال يختلف إختلافاً كبيراً عن بعضهم البعض، ومتى ما أحييت مسألة تشريع القوانين إلى الناس، فإن الإختلاف والتشتت سوف يحكمان المجتمعات الإنسانية على الدوام. ينقل «أبن مسعود» في حديثٍ عن النبي الأكرم ﷺ، أن النبي ﷺ خطّ خطأً مستقيماً، ثم قال: (١).



وفي الآية العاشرة والأخيرة، بالرغم من عدم تصريحها باختصاص سنّ القوانين بالله تعالى، إلّا أنّها تنطوي على تعبير معين يستفاد منه بشكل جيد عدم وجود أي مصدر للتشريع غير الله تعالى، إذ تقول الآية المباركة ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ

عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا».

ونعلم أن «الدين» بمعناه الحقيقي يشمل جميع شؤون الحياة البشرية، وبالنظر إلى أن الإسلام هو خاتم الأديان السماوية، وسيبقى قائماً حتى قيام الساعة، فإن مفهوم هذه الآية يعني أن جميع ما يحتاجه الإنسان من حيث القوانين قد أخذه الإسلام بنظر الاعتبار حتى قيام الساعة، وبناءً على ذلك لا يبقى أي مجال لقوانين أخرى.

وتجدر الإشارة إلى أن بعض هذه القوانين خاصّة وجزئية، والبعض الآخر عامّة وكلية، وواجب علماء الدين والمشرّعين الإسلاميين، القيام بتطبيق تلك الكليات على مصاديقها، واستنباط القوانين والضوابط اللازمة منها.



وقد تم التأكيد مراراً على هذا المعنى في الروايات الإسلامية أيضاً، وللإمام علي عليه السلام خطبة مؤثرة ومفصلة في ذمّ الذين يسمحون لأنفسهم بتشريع القوانين في المحيط الإسلامي معتبرين ذلك إجتهاذاً، إذ يقول عليه السلام في جانب من هذه الخطبة: «أَمْ أَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ دِيناً نَاقِصاً فِاسْتَعَانَ بِهِمْ عَلَى إِتْمَامِهِ، أَمْ كَانُوا شُرَكَاءَ لَهُ فَلَهُمْ أَنْ يَقُولُوا وَعَلَيْهِ أَنْ يَرْضَى»^(١).

وهناك روايات متعددة تصرّح بأن كل ما تحتاجه الأمة الإسلامية إلى يوم القيامة مأخوذ بنظر الاعتبار في القوانين الإسلامية، حتى دية خدش بسيط في بدن الغير، على أنه يجب أخذ هذه الأحكام من أهلها. وهذه تبين وبشكل واضح أن التشريع في

الإسلام مختص بالله تعالى، ولا مجال لتشريع الآخرين، وبناءً على ذلك فإن ما يحصل في المجالس التشريعية الإسلامية، هي عملية تطبيق القواعد العامة لقوانين الإسلام على مصاديقها ومواردها.

ونقرأ في حديث ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: (إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَمْ يَدْعُ شَيْئاً يَخْتِاجُ إِلَيْهِ الْأُمَّةُ إِلَّا أَنْزَلَهُ فِي كِتَابِهِ وَبَيَّنَّهُ لِرَسُولِهِ) ^(١).

ونقرأ في حديث آخر ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: (مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا وَفِيهِ كِتَابٌ وَسُنَّةٌ) ^(٢).

وورد في روايات أخرى أن جميع الأحكام والقوانين اللازمة، شُرعت للامة الإسلامية، ومنها ماورد في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال ولمزيد الإطلاع على كثرة وسعه الأحاديث الواردة في هذا المجال يراجع المجلد الأول الباب (٤) من كتاب جامع احاديث الشيعة: «مَا تَرَكَ عَلَيَّ شَيْئاً مِنْ إِلَّا كَتَبَهُ حَتَّى أُرِشَ الْخَدَشَ» ^(٣).



١ - أصول الكافي، ج ١، ص ٥٩، الحديث رقم ٢.

٢ - نفس المصدر السابق، الحديث رقم ٤.

٣ - جامع أحاديث الشيعة، ج ١، باب رقم ٤ من أبواب المقدمات، الحديث رقم ٢٦.

هل يمتلك الرسول ﷺ والمعصومون حق التشريع؟

إنّ مسألة الولاية على التشريع، أو بتعبير أبسط، حق التشريع بالنسبة للرسول ﷺ والأئمة المعصومين عليهم السلام من المسائل المعقدة جداً، إذ تناولت الأحاديث الإسلامية هذه المسألة مراراً وتكراراً.

فهل يمتلك الرسول الأكرم ﷺ الحق في أن يضع ما يراه من المصلحة على شكل قانون المسلمين حتى مع عدم نزول الوحي الإلهي بشأن تلك المسألة؟
لا شك في أن هذا الأمر ليس محالاً بشرط أن يمنحه الله تعالى مثل هذا الحق (أي حق التشريع)، ومفاد الكلام هنا هل وقع مثل هذا الأمر، وهل تشهد الأدلة النقلية على ذلك أم لا؟

لدينا الكثير من الروايات (وبعضها صحيحة السند والبعض الآخر ضعيفة) إذ تقول: إنّ الله تبارك وتعالى قد «فوض الأمر» إلى الرسول الأكرم ﷺ والأوصياء من بعده (والمراد من مسألة «تفويض الأمر» هنا حق التشريع).

وقد جمع المرحوم الكليني الروايات المتعلقة بموضوع «التفويض» في الجزء الأول من أصول الكافي، وصنّفها في باب واحد، إذ ينقل في هذا الباب عشرة أحاديث في هذا المجال، ومن جملة هذه الأحاديث نقرأ في حديث عن الإمام الباقر والإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّمَا قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَوَّضَ إِلَى نَبِيِّهِ أَمْرَ خَلْقِهِ لِيَنْظُرَ كَيْفَ طَاعَتْهُمْ، ثُمَّ تَلَى هَذِهِ الْآيَةَ، وَمَا أَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ

فانتهوا^(١).

ونقرأ في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام:

(إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَدَّبَ نَبِيَّهٖ عَلَى مَحَبَّتِهِ فَقَالَ: وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ، ثُمَّ فَوَّضَ إِلَيْهِ فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا، وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ...) ^(٢). فإذا القرائن الموجودة في العبارات الواردة في هذا الحديث توَّضح بشكل جلي ما المراد من التفويض.

وقد جاء في بعض هذه الروايات أنه بعد هذا التفويض الإلهي، مارس الرسول ﷺ أمر التشريع وشرع بعض القوانين، منها: أن الله تبارك وتعالى جعل الصلاة ركعتين وأضاف الرسول ﷺ ركعتين أخريين عليهما (في صلوات الظهر والعصر والعشاء)، وركعة واحدة في المغرب، وتشريع الرسول ﷺ هذا ملازم للفريضة الإلهية والعمل به واجب، كما أضاف ﷺ على ذلك (٣٤ ركعة أخرى (أي ضعف الفرائض) بعنوان صلاة النوافل، وأوجب الله تعالى صيام شهر رمضان المبارك، وقال الرسول ﷺ باستحباب صيام شهر شعبان وثلاثة أيام من كل شهر... ^(٣).

ويلاحظ في أحاديث أخرى واردة في أمر تفويض التشريع إلى الرسول ﷺ، نماذج أخرى من تشريعات الرسول ﷺ ^(٤).

وفيما يتعلق بالمراد من «تفويض الأمر» هناك عدة احتمالات بخصوص هذه

١ - أصول الكافي، ج ١، ص ٢٦٧، الحديث رقم ٥.

٢ - أصول الكافي، ص ٢٦٥، الحديث رقم ١.

٣ - نفس المصدر، ص ٢٦٦، الحديث رقم ٤.

٤ - للمزيد من التوضيح ودراسة جميع روايات التفويض عليكم بمراجعة كتاب أنوار الفقه، ج ١، ص ٥٥٢.

المسألة، منها:

- ١ - تفويض أمر التشريع للرسول ﷺ كلياً.
 - ٢ - تشريع جزئي في الموارد المحدودة، وفيها أن الرسول ﷺ قام بتشريع بعض الأحكام قبل نزول الأحكام الإلهية أو بعدها، وأمضاها الله تعالى.
 - ٣ - تفويض أمر الحكومة والتدبير والسياسة وتربية النفوس والمحافظة على النظام.
 - ٤ - تفويض أمر العطاء والمنع (فيعطي من بيت المال لمن يرى فيه صلاح، ويمنع من لا يرى فيه صلاح).
 - ٥ - التفويض في بيان حقائق أسرار الأحكام، أي يبين للناس كل ما يرى فيه المصلحة من الأسرار والأحكام، ولا يفصح عن ما لا يرى فيه المصلحة.
- والمعنى الثاني هو المستفاد من مجموع الروايات الواردة في باب التفويض، وهو أن الرسول ﷺ قام بالتشريع في موارد محدودة بإذن الله تعالى (ولعلها لم تتجاوز حدود العشرة موارد)، وأن الله تعالى قد أمضى هذا الأمر، وبعبارة أخرى، أن الله تبارك وتعالى قد أعطاه هذه الصلاحية في قيامه بالتشريع في بعض الموارد، ومن ثم أمضاها الله تعالى.
- ويستفاد أيضاً من هذه الروايات وبشكل جيد، أن الله تبارك وتعالى، قد أعطاه هذا المقام لعدة أسباب:
- أولاً: لكي يبين عظمة مقامه ومنزله وبأن تشريعاته من سنخ تشريعات الله تعالى.
- والثاني: لكي يمتحن الناس ويرى مدى تسليمهم لاوامر النبي ﷺ.
- والثالث: إن الله تعالى قد أيده بروح القدس، وأطلعته من خلال ذلك على أسرار الأحكام الإلهية.

ومن خلال مذكرنا، أعلاه تتضح لنا عدة أمور:

١ - يُستفاد من مجموع روايات التفويض، أن الله تبارك وتعالى أعطى رسول الإسلام ﷺ الولاية على التشريع إجمالاً، لكي يمتحن طاعة الخلق من جهة، ولتعظيم المقام الرفيع للرسول ﷺ وبيان منزلته عند الله تعالى من جهة أخرى.

٢ - إنَّ هذا التفويض لا يتمتع بصفة الكلية والشمول، بل بتحقيق في موارد محدودة ومعدودة، ولهذا السبب كان الرسول ﷺ ينتظر نزول الوحي في الأمور المهمة التي كان المسلمون يسألونه فيها غالباً، وهذا دليل على عدم شمول التفويض، وإلا لمادعت الضر إلى أن ينتظر الرسول ﷺ نزول الوحي، بل كان بمقدوره أن يشرع أي قانون يراه. (فتأمل).

٣ - هذا المقام الرفيع أُعطي له ﷺ بإذن الله تعالى، وإضافة لذلك فإن بعض القوانين التي شرعها الرسول ﷺ، أمضاها الله سبحانه وأقرها. وبناءً على ذلك فلا دليل على تعدد الشارع والمشرع إطلاقاً، بل أن تشريع النبي ﷺ يُعدّ أيضاً فرعاً من تشريع الله تعالى.

٤ - هذا المقام الرفيع والسامي تحقق للنبي ﷺ بعد النبوة وبعد أن صار مؤيداً بروح القدس، وكان معصوماً، ولم يطرأ على فعله أي خطأ أو زلل، وبناءً على ذلك فالذين لا يتمتعون بهذه الشروط لن تتحقق لهم مثل هذه المنزلة الرفيعة.

٥ - بالرغم من أن الأئمة المعصومين عليهم السلام كانوا مؤيدين بروح القدس، ولم يصدر عنهم أي خطأ أو إنحراف إطلاقاً، إلا أنهم لم يصدروا تشريعاً جديداً، لأنه بعد إكمال الدين وإتمام النعمة الإلهية، فإن جميع الأحكام التي تحتاجها الأمة إلى يوم القيامة وطبقاً للروايات الكثيرة التي قد تصل إلى حد التواتر، قد تمَّ تشريعها ولم يبق مجال لأي تشريع جديد، وبناءً على ذلك فإن واجب الأئمة المعصومية عليهم السلام إقتصر على

توضيح وتبيين الأحكام التي وصلت إليهم عن الرسول الأكرم ﷺ سواء بدون واسطة أو بالواسطة.

سؤال:

من الممكن أن يُقال أنه يُستفاد من بعض الروايات، أن أمير المؤمنين علي (ع) فرض الزكاة على الخيل فكان ذلك تشريعاً جديداً.

والرواية هكذا: أن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام قالوا: (وَضَعَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ الْخَيْلِ الْعِتَاقِ الرَّاعِيَةِ فِي كُلِّ فَرَسٍ فِي كُلِّ عَامٍ دِينَارَيْنِ وَعَلَى الْبَرَاذِينَ دِينَاراً).

وجاء أيضاً في رواية علي بن مهزيار أن الإمام الجواد عليه السلام عندما جاء إلى بغداد في عام ٢٢٠ هـ فرض خمساً آخر غير الخمس الواجب المتعارف عليه في قسم عظيم من الأموال، ولمرة واحدة فقط^(١).

وكلا الحديثين معتبران من حيث السند، وبناءً على ذلك لا بد من القول أن الأئمة المعصومين عليهم السلام كانوا يمتلكون حق التشريع أيضاً.

الجواب:

إنَّ الأحكام الكلية في التشريع تختلف مع الأحكام التنفيذية للحاكم، فالأحكام الكلية هي نفس القوانين الثابتة والمستمرة التي تبنى قائمة في كل عصر وزمان ومكان إلى يوم القيامة، إلّا أنَّ الأحكام الصادرة عن الحاكم الشرعي هي التي تصدر بسبب الأمور الضرورية وأمثالها وبشكل مؤقت (مثل حكم تحريم التباكو الذي صدر في فترة محدّدة لغرض محاربة الإستعمار الإقتصادي الإنكليزي من قبل مرجع

كبير ثم رفع بعد إنتهاء الخطر).

يستفاد من القرائن الواردة في رواية الإمام الجواد عليه السلام وبشكل واضح، أنه عليه السلام لما جاء إلى بغداد كان الشيعة يعانون الفاقة والضعف، وقد أقر الإمام تعدد الخمس في تلك السنة لغرض حل هذه المشكلة بشكل خاص، والواقع أنه عليه السلام طبق أحكام العناوين الثانوية والضرورة على إحدى مصاديقها، بدون أن يمثل ذلك تشريعاً جديداً.

ويمكن أن يكون حكم الزكاة الوارد في رواية الإمام أمير المؤمنين عليه السلام من هذا النوع أيضاً، ولذا فإن هذا الحكم محدود بذلك الزمان فقط، ولم ينظر إليه الفقهاء كتشريع عام ولم يصدروا فتاواهم طبقاً لتلك الفتوى. (فتأمل).

٦ - مما ورد في البند الخامس يتضح لنا أن غير الأئمة المعصومين عليهم السلام لا يملكون حق تشريع القوانين الكلية الإلهية بطريق أولى، لأنه بإختتام النبوة وإرتحال النبي صلوات الله وسلامه عليه وإكمال الدين وإتمام النعمة، لم يبق مجال لتشريع الآخرين من جهة، وإن جميع الأحكام الإلهية الكلية التي يحتاجها الإنسان إلى يوم القيامة تمّ تبينها طبقاً للكثير من الروايات الواردة بذلك الشأن، ومن جهة أخرى فإن غيرهم من الناس ليسوا معصومين وغير مؤيدين بروح القدس لكي يثبت لهم مثل هذا الحق، خاصة وقد أعتبرت الروايات السابقة هذا المعنى شرطاً للحاكمية على التشريع.

٧ - لا بد من الإلتفات إلى أن البعض من روايات التفويض، لم تنظر إلى مسألة تشريع الأحكام، بل تناولت تسليمهم أمر الحكومة والولاية، أو تسليمهم بيت المال.

٨ - تعتقد طائفة من علماء السنة بتفويض تشريع الأحكام إلى الفقهاء في مالا نصّ فيه، وتوضيح ذلك: يقسم علماء السنة المسائل إلى قسمين: مافيه نص (في القرآن والسنة) ومالا نصّ فيه.

وفيما يتعلق بالقسم الأول يعتقدون جميعاً بوجوب العمل بالآوامر والنصوص، وفي القسم الثاني يعتقد الكثير منهم بوجوب الذهاب إلى القياس أولاً، بمعنى قياس تلك المسألة التي لم يرد فيها نص مع المسائل التي ورد فيها حكم معين، والإفتاء بحكم شبيه بذلك الحكم لتلك المسألة، وبغير ذلك فإن علماء الدين مكلفون بدراسة مصلحة ومفسدة ذلك الأمر، ثم وضع حكم مناسب حسب ما هو أفضل وأقوى برأيهم، ويجب على أتباعهم القبول بذلك الحكم، والعمل به كحكم الهي. وهذا ما يصطلحون عليه أحياناً بـ«الإجتهد» (طبعاً الإجتهد بمعنى الخصاص، وليس الإجتهد بمعنى إستنباط الأحكام من الأدلة الشرعية)، وأحياناً يصطلحون عليه بكلمة «التصويب»، ويقولون أن ما يضعه الفقيه في هذه الموارد على شكل قانون يحظى بتصويب الله تعالى! ولو وضع فقهاء مختلفون أحكاماً متعددة ومختلفة، فإنها جميعاً تحظى بالقبول بعنوان حكم الهي!

وبهذا الشكل فإنهم يعطون للفقهاء حقّ في التشريع في الموارد التي لم يرد بشأنها نصّ أو دليل خاص.

إلا أن فقهاء الشيعة السائرون على مذهب أهل البيت عليهم السلام يخالفون لهذا الكلام جملةً وتفصيلاً ويقولون: إنّ جميع الأحكام التي يحتاجها الإنسان إلى يوم القيامة وردت في الشريعة الإسلامية ولم يبق شيء لم يُذكر له حكم لكي يقوم أحدٌ بتشريع قانونٍ ما. ولكن البعض من هذه الأحكام وردت بشكل صريح في القرآن الكريم أو السنة النبوية الشريفة، أو سنة الأئمة المعصومين عليهم السلام، والبعض منها ورد بشكل القواعد الكلية والأصول العامة، أو بعبارة أخرى إنّ في «العمومات» و«الإطلاقات» هناك أدلة أولية وثانوية، بحيث أن لكل موضوع من المواضيع، هناك حكم ثابت له، سواء كان هذا الحكم حكماً واقعياً تارةً أو حكماً ظاهرياً تارةً أخرى.

وبناءً على ذلك لا وجود لشيء بإسم الإجتهد (بالمعنى الخاص) أو القياس، أو مالا نص فيه، فمسؤولية الفقهاء تقتصر على تطبيق الأحكام الكلية على مصاديقها فقط.

ويتضح لنا مما تقدم ذكره أن «التشريع» في المجالس التشريعية لا يعني في عرف مذهب أهل البيت عليهم السلام وضع أحكام جديدة بشأن المسائل التي يواجهها الإنسان، بل المراد به تطبيق الأصول على الفروع أو تشخيص الموضوعات المختلفة بمعنى التشريع الموضوعي.

وخلاصة القول، إن مجالس التشريع في مذهب الشيعة، ليست بمعنى وضع الأحكام الكلية ازاء أحكام الإسلام، أو بدل مالا نص فيه، والمسألة هي من قبيل تطبيق الأحكام، أو التشريع الموضوعي، ولهذا السبب وُضع «مجلس صيانة الدستور» إلى جانب المجلس التشريعي، لكي يُشرف عليه جمعٌ من الفقهاء ويتأكدوا من أن القوانين الموضوعية غير مخالفة لاحكام الإسلام.

وحتى مجلس «تشخيص المصلحة» الذي أُقر مؤخراً في الدستور، هو الآخر بمعنى تشخيص الموضوع أيضاً، وليس جعل القانون.

وبعبارة أوضح، إن إحدى العناوين الثانوية هو عنوان الأهم والمهم، يعني متى ما تعارضت مسألتان شرعيتان مع بعضهما، كما هو الحال مثلاً في المحافظة على أموال الناس وعدم التصرف بها إلا بأذن صاحبها مع مسألة الحاجة الملحة لفتح شارع في المدينة أو طريق في الصحراء، فمن جهة تعتبر مسألة المحافظة على النظام في المجتمع الإسلامي واجبة، ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا بشق الطرق الضرورية، ومن جهة أخرى فإن المحافظة على أموال الناس أمرٌ واجب، ففي هذه الحالات يجب تقديم الأهم على المهم، وأن تُمنح الإجازة بفتح هذه الطرق، مع دفع الأضرار

والخسائر الناجمة عن ذلك إلى مالكي تلك الأراضي.

وكذلك الحال فيما يتعلق بمسألة وضع الأسعار على المواد المختلفة، فالقانون الإسلامي أساساً، يقول بحرية الأسعار والتسعيرة، ولكن في الحالات التي تصبح فيها هذه الحرية سبباً لإستغلال بعض المجاميع الإنتهازية والجشعة، ويضعون المجتمع بالتالي في وضع حرج بحيث تتوقف معها مسألة المحافظة على النظام الإقتصادي في المجتمع على تحديد الأسعار، فمما لاشك فيه أن مسألة المحافظة على النظام مرجحة، ومن الممكن هنا القيام بإصدار قانون لتحديد الأسعار، وتكليف الحكومة الإسلامية بتنفيذه.

وعلى مجلس تشخيص المصلحة في هذه الموارد، إختيار الأهم من خلال دراسته الدقيقة للأمر، لكي تقوم الحكومة الإسلامية بتنفيذ القانون، بالضبط كما هو معروف من أن المحافظة على النفس واجبة وأكل اللحم الحرام ممنوع، ولكن في موارد خاصة عندما ينحصر فيه حفظ النفس على الإستفادة من اللحم الحرام فتط، نسمح بذلك ونعتبره أمراً مجازاً، وذلك لأن أهمية حفظ النسل أكبر وأهم من ذلك. وبناءً على هذا المنهزم فإن (مجلس تشخيص المصلحة) يختلف كثيراً عن الإجتهد والإستحسان والمصالح المرسلة الشائعة بين علماء السنة، إذ يدور الأمر هنا بين تعارض وتضاد حكمين، فتصبح مسألة تشخيص المصلحة هي الأهم، في حين أن الذي يحصل هناك بعارة عن وضع حكم معين لموضوعٍ يعتد بعدم وجود حكم معين له. (فتأمل).

ومن مجموع ما ذكرنا أعلاه نستنتج أن المجلس التشريعي يعد أحد أركان الحكومة الإسلامية، ذلك أنه في كل زمان ومكان وفي كل مرحلة معينة تبرز مجموعة من المتطلبات والمسائل المستحدثة التي تستوجب تحديد القانون الخاص بها بشكل دقيق، ولكن التشريع هنا معنى التخطيط وتطبيق الأصول على الفروع، واستخراج الفروع من القوانين الكلية وتشخيص المواضيع بشكل دقيق.

* * *

مجلس الشورى وإنتخاب النّوّاب

يجب علينا هنا أن نبحث أولاً مسألة أهمية الشورى في الإسلام، ومواردها، وصفات الذين ينبغي أن نستشيرهم.

أهمية وضرورة المشورة:

تُعَدّ مسألة المشاورة وخاصة في الأمور الإجتماعية وما يتعلق بمستقبل المجتمع من أهمّ المسائل التي عرضها الإسلام بدقة وأهمية خاصة، ولها مكانة متميزة في آيات القرآن الكريم والروايات الإسلامية وتاريخ أئمة الإسلام العظام. وقد جاء الأمر بالمشورة في عدة آيات من القرآن الكريم.

ففي الآية «١٥٩» من سورة آل عمران أمر الله تعالى رسوله الكريم ﷺ، بأن يشاور المسلمين في الأمور المهمة وهو قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾.

وفي الآية «٣٨» من سورة الشورى، وعند بيان الأوصاف المتميزة للمؤمنين حقاً يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾.

وكما تلاحظون في هذه الآية، أن مسألة الشورى هي بمستوى الإيمان بالله تعالى والصلاة، إذ يبين ذلك أهميتها الإستثنائية.

ويقال أحياناً إن السبب في صدور الأمر إلى الرسول ﷺ بمشاورة الناس كان لغرض إحترام المسلمين وأشراكهم في المسائل الإجتماعية فقط. ذلك أن الذي يعزم

على الأمور في نهاية المطاف هو شخص الرسول (ص) وليس الشورى، وهذا هو قوله تعالى في نهاية الآية الكريمة: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾.

ولكن من المسلم به أن المراد من الآية الكريمة في نهايتها ليس المقصود به أن يقوم الرسول ﷺ بمشاورة الناس ومن ثم لا يأخذ بوجهات نظرهم وآرائهم، ويختار طريقاً آخر، ومثل هذا الأسلوب لا ينسجم أولاً مع الهدف الذي تقصده الآية (لأنه سيصبح سبباً لعدم إحترام الرأي العام، ويؤدي بالتالي إلى إنزعاج المسلمين وترتب نتائج عكسية)، ولا ينسجم من جهة أخرى مع تأريخ النبي الأكرم ﷺ أيضاً، لأنه ﷺ عندما كان يشاور الناس في الحوادث والملفات المهمة، فإنه كان يحترم آراء الناس، حتى أنه كان يتجاهل أحياناً وجهة نظره الكريمة، بهدف تقوية ودعم مبدأ المشاورة بينهم.

تجدر الإشارة إلى أن آية المشاورة ونظراً للآيات الواردة قبلها وبعدها، يُراد بها غزوة «أحد»، ونعلم أنه في مسألة أحد، لم يكن الرسول ﷺ موافقاً على الخروج بالجيش من المدينة، ولكن بما أن أكثرية آراء المسلمين إستقرت على هذا الأمر، فقد وافق ﷺ على الخروج (١).

وعلى فرض أن هذه الآية تعطي هذه المزية للرسول ﷺ بأن تكون مشاورته للناس ذات جنبه تشريفية، إلا أن الآية الواردة في «سورة الشورى» والتي توضح القانون العام للمسلمين بشكل واضح وجلي، تؤكد على أن الأمور المهمة يجب أن تُنجز من خلال الشورى بين المسلمين، وأن الشورى تلعب دوراً مصيرياً.

ومن البديهي أن العمل بالشورى يكون في المسائل التي لم ينزل بها حكم خاص من قبل الله تعالى، وعندما نقول بأن الشورى في مسألة خلافة الرسول ﷺ لا

إعتبار لها، بسبب وجود أمر خاص من قبل الله تعالى في هذا المجال، ومع تعيين الوصي وخليفة الرسول ﷺ عن طريق الوحي ومن خلال شخص رسول الإسلام ﷺ، لم يبق مجال للشورى بعد ذلك.

وبعبارة أخرى، إن الشورى يُعمل بها دائماً في المواضع، وليس في الأحكام التي صدر حكمها من قبل الله تعالى.

وعلى أي حال فإن مسألة الشورى التي ذكرت في الإطار المبين أعلاه، تُعدّ ركناً ومبدأً أساسياً في الإسلام. إذ أن التعبير بكلمة «أمر» إشارة إلى الأمور المهمة، وخاصة المسائل التي يحتاجها المجتمع، ويحمل هذا المصطلح مفهوماً واسعاً لدرجةٍ يشمل معها جميع الأمور السياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية المهمة.

وقد صدر الأمر بالشورى في القرآن الكريم كذلك في الأمور المهمة المتعلقة بنظام الأسرة (المجتمع المصغر، ومن ذلك فطام الطفل قبل بلوغ الحولين الكاملين إذ يشير إلى مبدأ الشورى، وهو قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾^(١) وهذا دليل على الأهمية البالغة للشورى في الأمور.



أهمية الشورى في الأحاديث الإسلامية:

لقد ذكرت أهمية إستثنائية في الأحاديث الإسلامية لهذا الأمر، سواء تلك التي نقلت عن شخص الرسول الأكرم ﷺ، أو عن الأئمة المعصومين عليهم السلام، لدرجة

اعتُبرت معها مسألة الشورى في الحديث النبوي الشريف إحدى أسباب إحياء المجتمع، وتركها بشكل إحدى أسباب موت المجتمع إذ قال ﷺ:

«إِذَا كَانَ أَمْرُكُمْ خِيَارَكُمْ وَأَغْنِيَاءُكُمْ سُمَحَائِكُمْ وَأَمْرُكُمْ شُورَى بَيْنَكُمْ فَظَهَرُ الْأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ بَطْنِهَا، وَإِذَا كَانَ أَمْرُكُمْ شِرَارَكُمْ وَأَغْنِيَاءُكُمْ بُخْلَاءُكُمْ وَلَمْ يَكُنْ أَمْرُكُمْ شُورَى بَيْنَكُمْ فَبَطْنُ الْأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ ظَهْرِهَا»^(١)!

وبلغت أهمية الشورى إلى درجة أن قال عنها الإمام علي عليه السلام:

(الِاسْتِشَارَةُ عَيْنُ الْهَدَايَةِ، وَقَدْ خَاطَرَ مَنْ اسْتَفْنَى بِرَأْيِهِ)^(٢).

ونقرأ في حديث آخر عن الإمام علي عليه السلام أيضاً أنه قال:

(لَا يَسْتَفْنِي الْعَاقِلُ عَنِ الْمُشَاوَرَةِ)^(٣).

والسبب في ذلك واضح أيضاً، وجاء ذلك في تعبير جميل ورد في بعض

الروايات عن الإمام علي عليه السلام في هذا المجال إذ قال:

(حَقٌّ عَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يُضِيفَ إِلَى رَأْيِهِ رَأْيَ الْعُقَلَاءِ وَيَضُمَّ إِلَى عِلْمِهِ عُلُومَ الْحُكَمَاءِ)^(٤).

وجاء في حديث آخر أيضاً عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: (من شاور ذوي العقول

استضاء بأنوار العقول)^(٥).

وبناءً على ذلك فالمشاورة هي السبب في إضافة عقل الآخرين وعلمهم

وتجربتهم إلى عقل المرء وعلمه وتجربته، إذ أن الإنسان في هذه الحالة قليلاً ما يقع

١ - تحف الحقول، باب الأحاديث القصيرة للنبي ﷺ، الحديث رقم ١٣.

٢ - البحار، ج ٧٥، ١٠٤٢.

٣ - غرر الحكم.

٤ - غرر الحكم.

٥ - غرر الحكم.

في الخطأ والانحراف. والاحاديث الواردة في هذا المجال كثيرة جداً، ونختتم هذا البحث المختصر بحديث آخر عن النبي الأكرم ﷺ، وحديث عن الإمام علي عليه السلام.

قال النبي الأكرم ﷺ:

(لا مظاهره أوثق من المشاورة) ^(١).

وقال الإمام علي عليه السلام:

(شاور ذوي العقول تأمن من الزلل والتدم) ^(٢).

وهناك ملاحظة أخرى جديرة بالإشارة إليها، إذ ليس من الضروري أن يكون مستوى الذين نشاورهم أرفع درجةً من المشاورين أنفسهم، ولربما نجد أفراداً بسطاء يمتلكون من العقل والفطنة الفطرية ما يجعل مشاورتهم تحل الكثير من المعضلات، كما ورد ذلك في حديث عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، إنه دار الحديث ذات مرة في مجلسه عليه السلام عن أبيه المعصوم عليه السلام فقال: ... (إن الله تبارك وتعالى ربّما فتح على لسانه) ^(٣).

ونختتم الحديث حول أهمية المشاورة بأبيات من الشعر الحسن لأحد الشعراء العرب إذ يقول:

أقرن برأيك رأي غيرك واستشِرْ فالحق لا يخفى على الأثنين

للمرء مرآة تريه وجهه ويرى قفاه بجمع مرأتين

أي أن المرأة الواحدة تريه جانباً منه، فإذا أراد أن يرى جوانب متعددة فعليه

١ - بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٠٠.

٢ - غرر الحكم.

٣ - ميزان الحكمة، ج ٥، ص ٢١١.

بمرأتين.

صفات المستشارين:

مما لا شك فيه أن الطرف الذي يشاوره الإنسان، وخاصة في الأمور المهمة والمسائل الاجتماعية الحساسة، لا يمكن أن يكون أي شخص كان، بل يجب أن يمتلك صفات خاصة تجعله فرداً صالحاً للمشورة، ولهذا السبب نجد الروايات الإسلامية وصفت مجموعة من الناس بأنهم «أفراد جديرون بالمشاورة» ومجموعة أخرى بأنهم «غير جديرون».

ويقول الإمام الصادق عليه السلام في حديث مروي عنه:

(إن المشورة لا تكون إلا بحدودها الأربعة ... فأولها أن يكون الذي تشاوره عاقلاً، والثاني أن يكون حُرّاً متديناً، والثالث أن يكون صديقاً مؤاخياً، والرابع أن تطلعه على سرّك فيكون علمه به كعلمك...) ^(١).

ونطالع في حديث آخر عن الإمام علي عليه السلام أنه قال:

(خير ما شاورت ذووا النهى والعلم واولوا التجارب والحزم) ^(٢).

وورد في النقطة المقابلة لهذا المعنى، نهى شديد عن المشورة مع الأفراد «البخلاء» و «الجبّاء» و «الحريصون» و «الحمقى»، إذ قال النبي الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم للإمام علي عليه السلام:

(يا علي لا تشاور جبّاناً فإنه يضيّق عليك المخرج، ولا تشاور البخيل فإنه

١ - نفس المصدر السابق، ص ٣١٨.

٢ - غرر الحكم.

يقصّر بك عن غايتك، ولا تشاور حريصاً فإنه يزّين لك شرّها^(١).

كما ورد النهي في الروايات أيضاً عن مشاورة الأفراد الحمقى والجهلاء والكذابون.

ويُستفاد مما تقدم أن المستشارين - وخاصة في الأمور المهمة - يجب أن يكونوا من الأذكياء، والعقلاء، والمحسنين، وذوي التجربة، والصادقين، والأمناء، والشجعان والأسخياء، وإن فقدان أو زوال كل واحدة من هذه الصفات يوجب وهن وتخلخل أركان وأسس المشاورة.

وعلى سبيل المثال عندما يكون المستشار فرداً أحمقاً وجاهلاً، فإنه سيقلب الحقائق للإنسان، وبالشكل الذي ورد ذكره في الأحاديث، فإذا أراد أن يُحسن إليك فسوف ينقلب إلى شر! ولو كان جباناً فإنه سيحول دون الإقدام المناسب والحزم في الأمور، فتذهب تلك الفرصة السانحة، ولو كان كذاباً - وكما تعبّر الروايات عنه - يتّربّ اليك البعيد، ويبعد عنك القريب ويشبه في ذلك السراب الذي يخدع العطاشى في الصحراء. ولو كان بخيلاً يحول دون أعمال الخير ويخوّفك دائماً من الثمر وعسر الحال، ولو كان قليل التجارب أو عديمها، فإنه سيؤدّي إلى العبث وإفشال البرامج والمناهج البناءة، ولو كان حريصاً فإنه سيدعوك إلى ممارسة الظلم والعدوان لكي يطفئ بذلك نار الحرص^(٢).

ومن خلال ما تقدم ذكره من الملاحظات يجب أن نتوخى الحذر الشديد في إختيار من نستشيرهم، وخاصة في المسائل الاجتماعية المهمة التي تأخذ بنظر الإعتبار حقوق الآخرين، وأن تؤخذ المعايير الآتية الذكر بنظر الإعتبار بشكل دقيق.

١ - البحار، ج ٧٠، ص ٣٤.

٢ - إن جميع ما ذكر أعلاه تقريباً ورد في الروايات المختلفة.

وهناك ملاحظة أخرى جديرة بالذكر أيضاً، إذ أن المشاورة في الإسلام تؤدي إلى إيجاد الحق بمعنى أن الشخص المستشار إما أن لا يقبل المشاورة، أو يتقبلها ولكن بشرط أن يراعي حق أداء الأمانة في ذلك، وأن يجعل بين يدي من إستشارة ما يرى فيه الخير والصالح، وبغير ذلك فإنه يعد «خائناً»! والخيانة في المشاورة تعدّ من كبائر الذنوب.

ونقرأ في حديث ورد عن رسول الله ﷺ:

(من إستشارة أخوه المؤمن فلم يمخّضه النصيحة سلب الله لُبَّهُ) (١).

وورد في حديث آخر عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: (خيانة المستسلم والمستشير من أفضع الأمور وأعظم الشرور وموجب عذاب السعير) (٢).
أن الحديث عن المشاورة وفروعها وما يتعلق بها واسع جداً، وما جاء أعلاه يعدّ غيضاً من فيض وعصارة من هذه الأبحاث التي تساعد على فتح الطريق أمام الأبحاث اللاحقة.

ونختتم بحثنا هذا بقطع جميل آخر من الشعر الذي يتناول صفات المستشارين:

لا تستشر غير ندبٍ حازمٍ فطنٍ	قد إستوى منه إسرار واعلان
فللتدابير فرسان إذا ركظوا	فيها أبروا كما للحرب فرسان (٣).

* * *

١ - بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ١٠٤.

٢ - غرر الحكم.

٣ - حياة الحيوان، وميري، ج ١، ص ١٧٣.

كيفية إنطباق مجالس الشورى مع موازين المشورة الإسلامية

هناك سؤال مهم يطرح نفسه وهو: إننا موافقون على أنّ مسألة الشورى والمشاورة تعدّ من أهمّ القوانين الإسلامية الأساسية، ولكن الطريقة المتبعة حالياً في إنتخاب مجموعة من الأفراد، الذين يجتمعون في مجلسٍ معين مثل «مجلس الشورى الإسلامي»، وتتم إدارة جلساته طبقاً لقانون خاص بهذا المجلس، ويتناولون فيه القضايا المختلفة بالبحث والدراسة والمشاورة، ومن ثم يصوّتون على تلك الأمور بأكثرية الآراء، وتصبح تلك القرارات لازمة التنفيذ، فما هو الدليل الشرعي على صحة هذا الأسلوب في الشورى؟!

وبعبارة أخرى، إنّ مثل هذه المراسيم والإجراءات المعمول بها في المجالس التشريعية الفعلية، لم ترد في آية آية أو رواية أو سند تاريخي، فكيف نثبت شرعيتها ولزوم الالتزام بلوازمها؟ في الوقت الذي يشكّل فيه مجلس الشورى في عصرنا هذا واحد من الأركان الأساسية الثلاثة للحكومة الإسلامية، بلوائحه الداخلية وآدابه وتقاليده الخاصة به.

ويلاحظ هذا المعنى أيضاً في إقرار اللوائح في المستويات الأدنى، وعلى مستوى مجالس الوزراء والمسؤولين عن المسائل الإقتصادية والثقافية والسياسية والعسكرية.

وفي معرض الإجابة على هذا السؤال المهم لابد أن نقول وبأختصار: إن مجالس الشورى الحالية تمثل في الواقع نفس «الصورة المتبلورة للمشورة» والتي وردت في الدين الإسلامي.

وتوضيح ذلك: أنه من الأفضل في المسائل الاجتماعية المتعلقة بالبلاد التشاور مع جميع الناس وفي جميع أنحاء البلاد، ولكن بما أن مثل هذا الأسلوب غير ممكن عملياً، وفضلاً عن أن جميع الناس لا يملك الخبرة اللازمة في جميع المسائل، ولهذين السببين لا يوجد أي حل آخر لهذه المسائل سوى أن يُصار إلى انتخاب النواب من قبل الناس لكي يتشاوروا فيما بينهم، وما يختاره هؤلاء النواب - الذي يمثل حضورهم في ذلك المجلس حضور جميع الناس - ويصادقون عليه، يعدّ مصداقاً كاملاً وجامعاً للشورى الإسلامية الحقيقية.

وبما أن إتفاق جميع الآراء في أغلب المسائل لا يتحقق عادةً، فلا يوجد حلّ لذلك إلا من خلال رأي الأكثرية كمعيار ومقياس لذلك والذي غالباً ما يكون أقرب إلى الواقع.

الأكثرية هنا طبعاً هي الأكثرية المتشكلة من الأفراد المؤمنين والواعين، سيّما وأنّ افتراضنا مبنيّ على أنّ الناس وبحكم تكليفهم الديني ينتخبون ممثليهم من الأفراد الذين يمتلكون الصفات اللازمة لهذا الأمر.

وبناءً على ذلك فإن ما يُقال من أن القرآن الكريم يذم الأكثرية في كثير من الموارد، لا يشمل الموضوع الذي نتحدث عنه قطعاً، إذ أنّ الأكثرية المقصودة في قوله تعالى: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾^(١) و ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢) و ﴿أَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾^(٣) و

﴿أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾^(٤) وأمثالها ناظرة إلى الأكثرية في المجتمعات المنحرفة والنضالة لا الأكثرية المؤمنة والعالمة والملتزمة.

إن هذه الضمائر وبقرينة ما جاء قبلها، تعود جميعاً إلى المشركين والجهلاء والمتعصبين وغير الملتزمين، اذ لم يصرح القرآن ابداً بأن: «أكثر المؤمنين أو أكثر المتقين لا يعلمون ولا يفقهون»، ولهذا السبب فاننا نقرأ في علم الاصول في باب «التعادل والتراجيح» عندما يدور الحديث حول الروايات المتعارضة: إن الشهرة بين الفقهاء هي إحدى المرجحات، والمشهور هو نفس الاستناد إلى قول أكثرية الفقهاء، وقد ورد في الحديث: «خُذْ بِمَا اشْتَهَرَ بَيْنَ أَصْحَابِكَ وَدَعْ الشَّاذَّ النَّادِرَ، فَإِنَّ الْمُجْمَعَ عَلَيْهِ لَا رَيْبَ فِيهِ».^(٥)

بل ويستناد من تاريخ النبي الأكرم ﷺ أنه كان يحترم رأي الأكثرية من المسلمين في موارد المشاورة. بالرغم من كونه ﷺ يمثل العقل الكلي. ويتضح ذلك في معركة أحد عندما شاور المسلمين بخصوص مسألة البقاء داخل المدينة أو الخروج عنها وخوض الحرب خارجها، فلما رأى إجماع أكثرية المسلمين على تأييد النظرية الثانية، قبلها وعمل بها، حتى إنه ﷺ تجاهل رأيه الشخصي المؤيد للأقلية. فأعطى بذلك أكبر درس في تاريخ الاسلام بشأن مسألة الشورى^(٦). حتى اننا وكما هو معلوم لدينا بأن نتيجة هذا الامر لم تكن ايجابية تماماً، ولكن بالرغم من ذلك فإن فوائد احترام الشورى كانت أكثر بكثير من الخسائر الفادحة لمعركة أحد! (فتأمل).

٣ - (التوبة - ٨)

٤ - (المؤمنون - ٧٠)

٥ - وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٧٥، الحديث رقم (١)، الباب رقم (٩) من صفات القاضي.

٦ - سيرة ابن هشام، ج ٣، ص ٦٦.

وحصل ما يشبه هذا الامر ايضاً في معركة «الخنديق»، فتد جاء في مغازي الواقدي ان النبي الاكرم ﷺ كان يشاور اصحابه كثيراً في المسائل والامور العسكرية والحربية، ومن ذلك أنه قال ﷺ لأصحابه قبل وقوع معركة الخندق، هل نغادر المدينة ونقاتل جيش المشركين، أم نبقي في المدينة ونحفر خندقاً حول المدينة، أم نكون على مقربة من المدينة ونجعل الجبل خلفنا؟! وعندها اختلف اصحاب النبي الاكرم ﷺ حول هذه المسألة... فرأى جمع من أصحابه ان يخرج النبي ﷺ خارج المدينة، ولكن سلمان قال: كنا اذا داهمنا فرسان العدو وخشيناهم، نحفر الخندق حول المدينة، فهل تجيزنا يا رسول الله أن نحفر خندقاً حول المدينة؟ فنالت وجهة نظر سلمان قبول (اكثر) المسلمين (ورجّحوا حفر الخندق وقبل الرسول الاكرم ﷺ بهذا الرأي).^(١)

ونكرر القول مرة أخرى، انه في عملية الشورى، عندما تتعرض مجموعة ما للقيام بمسألة الشورى - وخاصة في المسائل الاجتماعية المهمة - فقلماً يحصل الاجماع على رأي واحد، ولو أهملت الاكثرية ولم يؤخذ بها، لن ينجز أي عمل على الاطلاق.

ومن اللازم أن نذكر الملاحظة التالية ايضاً، وهي أن مسألة الشورى والمشاورة، قبل ان يقرها الدين الاسلامي كانت متداولة بين سائر العقلاء في العالم ايضاً، وقد أقرها الدين الاسلامي - مع إضافة بعض الشروط المهمة اليها - حيث أن الامر بين سائر العقلاء في العالم يستند الى أن المعيار هو رأي الاكثرية، هذا فيما يتعلق برأي الاكثرية.

وأما اللوائح المعمول بها في المجالس التشريعية لاسلوب ادارة تلك المجالس

وكيفية أخذ الآراء، فهي موضوعة ايضاً على اساس تصويت ذلك المجلس وعن طريق تلك الشورى.

وبناءً على ذلك فان مجالس التشريع الاسلامية، بجميع التشريفات المتبعة في أمر الانتخابات، والمنتخبين، وإدارة الجلسات، وكيفية مناقشة المسائل، وتقسيمها الى مسائل فورية وغير فورية، وامثال ذلك، فانها تمثل نفس «الشكل المنظم لقاعدة الشورى» التي ينظر لها الاسلام باعتبارها إحدى الثوابت الأساسية، اذ يمكن مطابقة جميع تلك الممارسات مع هذه القاعدة.

ومن البديهي انه متى ما انحرفت هذه المجالس عن نظرية الشورى الاسلامية من حيث مواصفات المشاورين او الامور الاخرى. ويُصار الى انتخاب افراد غير واعين أو غير ملتزمين، أو يتحول المحيط الحر لابتداء الرأي الى جو من الضغوط، أو يتم اقرار شيء ما خلافاً للقوانين الاسلامية والضوابط الدينية المسلم بها، فان هذا المجلس سوف لن يكون مجلساً اسلامياً للشورى ولن ندافع عنه اطلاقاً.

المسؤولية الرئيسية لمجلس التشريع الاسلامي:

إن تعبير «السلطة المقننة» أو «المجلس التشريعي» - المقتبس من الأجانب - يؤدي احياناً الى ان يتداعى الى الذهن بأن المراد به قيام ممثل الشعب في هذا المجلس بوضع القوانين، أي قيامهم بتشريع الحلال والحرام، في حين أن الامر ليس كذلك، اذ كما أشرنا الى ذلك في بحوثنا السابقة أن العمل الرئيسي للممثلين في هكذا مجلس تطبيق الاحكام الكلية على المصاديق، والفهم الموضوعي للإمور، أي ينبغي عليهم الجلوس والتشاور لتحديد المواضيع المعقدة التي يحتاجها المجتمع، بهدف تطبيق الاحكام الاسلامية عليها.

وعلى سبيل المثال يعدّ الدفاع عن دولة الاسلام ضد الغزو الاجنبي وقتالهم أمراً واجباً، كما أن عقد الصلح معهم في ظروف خاصة يؤدي الى تعزيز وتقوية دعائم الاسلام وردّ كيدهم وشرّهم، الا أنّ تشخيص هذا المعنى وتحديدّه، وهو هل أن الحرب مثلاً في الظروف الحالية، تؤدي الى دفع شرّهم أم الصلح؟ هذا الامر بحاجة الى الفهم والخبرة الموضوعية، ويعقد المجلس في هذه الحالة جلسة خاصة، ومن خلال دراسته للموضوع من كافة جوانبه، يختار مافيه الصلاح للامة.

وكذلك فيما يتعلق بكيفية انفاق اموال بيت المال، وكيفية تنظيم الخزينة وتوزيعها بشكل عادل، لتصبح مصداقاً للعدل والمساواة، فان المجلس يعقد اجتماعه الخاص بهذا الموضوع، ويختار ما يراه المصداق الحقيقي للاصلاح.

ومن الممكن طبعاً في بعض الاحيان أن يخطأ المجلس في محاولته لتطبيق الاحكام الاسلامية على مصاديقها، لأن اغلب النواب عادةً ليسوا من الفقهاء والمجتهدين، ولهذا السبب بالذات ولغرض الحد من الوقوع في هذه الاخطاء، فقد تم تشكيل مجلس صيانة الدستور في نظام الجمهورية الاسلامية، ويضم نخبة من الفقهاء والحقوقيين، اذ يقوم بالاطمئنان على اسلامية القوانين، والدراسة الموضوعية لها من قبل المجلس.

ومن خلال هذا الكلام يمكن الخلوص الى هذه النتيجة، وهي وجود اختلافين رئيسيين بين المجالس التشريعية الاسلامية، والمجالس التشريعية للانظمة العلمانية والغربية:

١ - تقوم المجالس التشريعية غير الدينية بتشريع الاحكام فعلاً ويضعون الحلال والحرام والمجاز والممنوع، دون أن يستندوا في ذلك الى حكم الهي، ولكن في المجالس التشريعية الاسلامية، يتمثل العمل الرئيسي فيها بتطبيق الاحكام الالهية

الكلية على مصاديقها أو الدراسة والدراسة الموضوعية لها.

٢ - الهدف الاساسي في المجالس التشريعية الاسلامية، هو تأمين الاحتياجات لغرض حل المشاكل وتطوير المجتمع الاسلامي في جميع المجالات الايجابية ضمن اطار التعاليم الاسلامية، بينما نجد أن الهدف المطلوب في المجالس التشريعية الغربية والعلمانية هو السعي لتحقيق متطلبات الناس، سواء كانت هذه المتطلبات منحرفة وتؤدي الى انحطاط المجتمع، أو ايجابية وبناءة ومنيدة. ولهذا السبب فانا نشاهد ونلاحظ انه يتم في هذه المجالس التصويت على قوانين مخزية وحمقاء من قبيل السماح بالاختلاط الجنسي، والاعتراف الرسمي بعقد الزواج للذكور، ونظائرها من القوانين المخزية!

بينما نجد أن الهدف الاساسي في التشريع الاسلامي يتمثل بتحقيق إرادة الله سبحانه وتعالى، والاصول المعروفة في الدين الاسلامي، والاهتمام بتلبية المتطلبات السليمة للناس في هذا الإطار، وليست كل حاجة أو رغبة منحرفة.



الركن الثاني:

السلطة التنفيذية

القوانين بشكل مجرد، عبارة عن كلمات مدونة على الورق، ولا تظهر قيمتها الحقيقية إلا بعد أن تصل إلى مرحلة التطبيق العملي، وهي بالضبط تشبه وصفة الطبيب، التي مهما كانت دقيقة وصحيحة في تشخيصها للداء والدواء، لن يكون لها أدنى تأثير يذكر على حالة المريض إلا بعد أن يُعمل بها، إذ أن تشخيص المرض، والقيام بجميع التحليلات وبدقة، والمعرفة الصحيحة بكمية ونوعية الادوية كلها على حدة، والتطبيق العملي لها على حدة - بل أن الركن الاساسي يتمثل بالجوانب العملية.

إن أي قانون مهما كان مثالياً وقيماً، لن يكون له أدنى تأثير ملموس ما لم نتحرك نحو تطبيقه، «السلطة التنفيذية» هي التي تحفظ ماء وجه السلطة التشريعية. وبالرغم من أن هذه المسألة تعدّ من الواضحات، إلا أن القرآن الكريم له اشارات غنيّة المعنى بشأنها ومن ذلك:

١ - عندما بُلّغ النبي موسى عليه السلام بالرسالة في جانب الطور في الوادي الايمن، وأخذ الأمر بالتصدي لفرعون وانقاذ بني اسرائيل والدعوة إلى التوحيد والحق والعدالة، طلب من الله تعالى أن يعينه على تنفيذ ذلك وقال:

﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا^(١) مِنْ أَهْلِ هَارُونَ أَخِي أَشْدُّ بِهِ أَرْزِي وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي﴾^(٢).

١ - يقول «الماوردي» في الاحكام السلطانية: من الممكن أن يكون وزير من مادة «وزر» اي مشتق من الثقل، ذلك انه يتحمل المسؤولية، أو من مادة وزر لمعنى الملجأ والملاذ (لانه ملجأ الناس)، او من مادة أزر بمعنى السند (لان السند الرئيسي هو الله تعالى). (الاحكام السلطانية، ص ٢٤).

٢ - ونطالع في قصة «بني اسرائيل» و «طالوت»: عندما انتفض بنو اسرائيل من ظلم «جالوت»، ذلك الرجل الذي أخرجهم من ديارهم وأسّر أبنائهم، فخططوا لقتاله وخوض الحرب ضده، ولتطبيق هذه الخطة، لابدّ من قائد خبير وجدير، ومدبّر من جميع الجوانب، ومن أجل اختيار مثل هذا الرجل، قصدوا نبي زمانهم «اشموئيل» وقالوا له: ﴿اجْعَلْ لَنَا مَلِكًا تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(١).

فأوحى له الله تعالى بأن يختار طالوت، ذلك الشاب المؤمن الواعي والشجاع، وقال: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا» (البقرة - ٢٤٧).

٣ - ونقرأ في قصة النبي يوسف عليه السلام كذلك: عندما تنبأ بسنين عجاف من الناحية الاقتصادية لأهل مصر، ووضع لهم برنامجاً حكيماً لتجاوز هذه السنين الصعبة، اختار سلطان مصر النبي يوسف عليه السلام لتنفيذ ذلك البرنامج والاشراف عليه، وتمّ ذلك الاختيار باقتراح من النبي يوسف عليه السلام، اذ يقول القرآن الكريم بهذا الشأن: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا﴾^(٢).

وتمكن النبي يوسف عليه السلام بما يمتلكه من القدرة الجيدة والادارة الرشيدة، أن يعبر ببلاد مصر من تلك السنين العجاف ويحافظ عليها.

٤ - مما لا شك فيه أن الأرض شهدت قيام حكومة النبي سليمان عليه السلام والتي تعدّ من أكبر الحكومات التي قامت على وجه البسيطة، ولغرض دفع عجلة تطور المجتمع البشري الى الامام، ونشر العدالة فيه، لجأ النبي سليمان عليه السلام الى الاستفادة القصوى من جميع الوسائل والسبل الممكنة، وبدرجة عالية من الحنكة الادارية

٢ - (طه - ٢٩ الى ٣١).

١ - (البقرة - ٢٤٦).

٢ - (يوسف - ٥٥).

والضبط العالي، وبعبارة أخرى، فقد سخر الله تعالى له كل الامكانيات اللازمة لتحقيق تلك الاهداف، وتمكن هو ايضاً ومن خلال الاستفادة من هذه الوسائل، أن يحقق اهدافاً هامة وسامية.

ويشير القرآن الكريم في سورة النمل المباركة في شرح قصة حكومة داود وابنه سليمان عليه السلام، الى العلم الواسع والجم الذي يتمتعان به عليهما اذ يقول:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا...﴾ ثم يضيف قائلاً: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مِنْطِقَ الطَّيْرِ وَأَعْطَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (١).

ويتحدث القرآن الكريم في سورة سبأ المباركة عن الأب وابنه عليهما السلام اذ يقول:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَآلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ أَنْ إِعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ - وَلَسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غَدُوها شَهْرَ وَرَوَاحُها شَهْرٌ وَأَرْسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغُ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ - يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ إِعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (٢).

إن القوة الادارية التي كان يتمتع بها سليمان عليه السلام وشدة انضباطه في الأمور التنفيذية وادارة البلاد، كانت إلى درجة أنه عندما قضى فيها نحبه وهو متكئ على عصاه (ولهذا السبب مات واقفاً)، كان عماله يؤدون واجباتهم بمنتهى الدقة، حتى اكلت دابة الأرض منسأته وسقط على الأرض، كما جاء ذلك في القرآن الكريم:

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتْ

١ - (النمل - الآية ١٥ و ١٦)

٢ - (سبأ / ١٠ إلى ١٣)

الْجِنَّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١١﴾

وكل هذه الامور تحكي عن مدى الادارة المحكمة والتوعية السليمة للشئ وشدة التزامه وانضباطه في العمل.

وكما يلاحظ في عالم الخلقة من أن المكلنين من قبل الله تعالى بتنظيم وإدارة العالم في مختلف المجالات والمشار اليهم في القرآن الكريم بعبارة ﴿وَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾^(٢) ووردت الكثير من الاشارات الاخرى ايضاً بشأن اعمال الملائكة في هذا المجال، ففي عالم البشرية ايضاً لا يمكن اشاعة النظام وتنفيذ القوانين بدون جهاز تنفيذي قوي ومنظم ومعتبر يتم فيه تقسيم الاعمال وتوزيع المسؤوليات.

ويتضح هذا الامر بشكل جلي في كتاب الإمام علي عليه السلام لمالك الاشراف الذي يضم النموذج الكامل للنظام التنفيذي من حيث كيفية ادارة الدولة. وبعد أن يشير الامام علي عليه السلام في هذا الكتاب الى مسألة المستشارين ينتقل للإشارة الى واجبات مالك الاشراف باعتباره حاكم بلاد مصر، اذ يأمره عليه السلام ويقول: «اختر وزراءك من الافراد ذوي السيرة الحسنة والاذكاء».

ومن ثم ينتقل الى ذكر الامور والجوانب الادارية والتنفيذية المختلفة للدولة، فيشير في البداية الى مسألة القوة الدفاعية والجيش الاسلامي المقتدر، ومن ثم يشير الى الموظفين والعمال الحكوميين، وبعد ذلك يشير الى القضاة، ثم ينتقل الى التجار والامور التجارية والصناعية والاقتصادية، واخيراً يتناول المسائل المتعلقة بالمحتاجين، والمعوزين في المجتمع، ويتطرق الى شرح وواجبات ومسؤولية كل منهم في هذا المجال من خلال شرح مستفيض ودقيق، ويذكر في ذلك أدق الامور

واظرفها.

إن هذا العهد الذي يعدّ في الواقع مستخلصاً من آيات القرآن الكريم والروايات النبوية الشريفة، تمّ تنظيمه بالشكل الذي لم تتمكن فيه القرون الاربعة عشر أن تغطيه بغبارها وتجعل منه عهداً تقادمت عليه السنون فعاد قديماً فحسب، بل أن عظّمته وبريقه أصبح اكثر بهاءً بمرور الزمان عليه، ونموذجاً بارزاً من التخطيط الاسلامي في مجال الاصول التي ينبغي أن تسير الادارة الاسلامية، والنظام التنفيذي في الحكومة الاسلامية



النظام التنفيذي للحكومة الاسلامية في عصر النبي الاكرم ﷺ :

بالرغم من أن الحكومة الاسلامية على عهد النبي الاكرم ﷺ كانت بسيطة جداً في تكوينها، الا أن كل ما تحتاجه الحكومة القوية والمقتدرة، كان منظوراً في تركيبة تلك الحكومة، اذ كان مسجد الرسول ﷺ بما يعنيه من بساطة عجيبة، يمثل القاعدة الاساسية للحكومة ونظامها التنفيذي.

فهو من جانب يمثل الجامعة الاسلامية، ذلك لأنه يمثل مهذاً لتعلم الدين والقراءة والكتابة والتربية في الليل والنهار.

ويمثل من جانب آخر مقر الجيش الاسلامي، ومركز القائد العام لهذا الجيش.

ومن جهة ثالثة يمثل محكمة القضاء أو كما يقال بيت العدالة.

ومن جهة رابعة يمثل مركز بيت المال وجمع الزكوات والغنائم الحربية، وبالرغم

من صغر حجمه وبساطته التي كان عليها فانه كان يسع لاستيعاب جميع هذه الامور!

وقد اختار النبي الأكرم ﷺ لكل امرٍ من هذه الأمور، مسؤول أو عدد من المسؤولين، واستمر هذا الأمر بعده ﷺ على هذا المنوال، وخاصةً في عصر الامام علي عليه السلام، إذ اتخذ طابعاً جديداً وتنظيمات أوسع بموازاة توسع رقعة الدولة الإسلامية وتطورها في العالم، إذ تمّ توضيح قواعده في عهده عليه السلام لمالك الاشترا (رض).

وكل ذلك يدل على أنه لا بد من النظر الى مسألة النظام التنفيذي بعد مسألة الشورى، اذ بدون ذلك يفقد أي قانون قيمته واعتباره.



صفات وشروط المسؤولين التنفيذيين:

تناول القرآن الكريم وبشكل صريح في ثلاثٍ من آياته المباركة - وعلى نحو الإشارة في العديد من الآيات الاخرى - صفات وخصائص العمال اللائقون في الحكومة.

فقرأ أولاً في قصة طالوت وبني اسرائيل: «عندما اعترض بنو اسرائيل على انتخاب طالوت من قبل نبيهم (اشموئيل) لقيادة الحكومة، وقالوا بعدم جدارته بسبب عدم امتلاكه المال والثروة (وعدم انتسابه إلى احدى العوائل والاسر المعروفة في بني اسرائيل)، خاطبهم نبيهم قائلاً: لقد أوتي اثنتان من الصفات: سعة العلم، وقدرة في الجسم، وبسبب هاتين الصفتين (العلم والقوة) اختاره الله تعالى. (سورة البقرة - الآية ٢٤).

وبناءً على ذلك فقد عدّ القرآن الكريم صفتي العلم والقوة على أنهما يمثلان

الشرطين الاساسيين لرئيس الحكومة الاسلامية أولاً، ومن ثم يشمل ذلك جميع العاملين في تلك الحكومة أيضاً.

ويشير القرآن الكريم في قصة يوسف عليه السلام الى شرطين آخرين أيضاً فيما يتعلق بالمدرء والموظفين في المستويات العليا للحكومة كالعاملين على حفظ بيت المال (وزير المالية) اذ يقول تعالى: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾^(١).

وفي قصة موسى وشعيب ايضاً أشار القرآن الكريم على لسان بنات شعيب الى شرطين آخرين أيضاً بخصوص العمال اللائقون: ﴿قَالَتِ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾^(٢).

وبناءً على ذلك فان القرآن الكريم يشترط العلم والوعي والعقل، والقوة والقدرة، والامانة والاستقامة في جميع المستويات، بدءاً برئيس الحكومة ومروراً بالوزراء وحتى العاملين الصغار - مع تفاوت المناصب.

وقد تمت الاشارة ايضاً في العديد من الآيات المباركة في القرآن الكريم، الى هذا المطلب، وذكر فيها بعض الشروط التي ينبغي توفرها في العاملين في الحكومة، ومنها:

- ١ - اجتناب التعاطي مع المسرفين: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾^(٣).
- ٢ - اجتناب التعاطي مع السفهاء: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾^(٤).

١ - (يوسف - ٥٥)

٢ - (القصص - ٣٦)

٣ - (الشعراء - ١٥١)

٤ - (النساء - ٥)

٣ - اجتناب اتخاذ المضلين: ﴿وَمَا كُنْتُ مَتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصْدًا﴾^(١).

٤ - اجتناب المكذبين: ﴿وَلَا تُطِيعِ الْمَكْذِبِينَ﴾^(٢).

٥ - اجتناب الهمازين والنامامين والمناعون للخير والمعتدين الأثمين والحاقدين والسبئيين: ﴿وَلَا تُطِيعِ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ - هَمَّازٍ مَشَاءٍ بَنَمٍ - مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِمٍ - عَتْلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾^(٣).

٦ - عدم اتباع هوى النفس: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾^(٤).

٧ - واخيراً ضرورة اتباع المؤمنين والتعاون معهم وعدم الاستنادة من غير المسلمين في المناصب الحساسة والذي يؤدي الى تسلطهم على المسلمين: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾^(٥) وتمثل هذه بعض الشروط والصفات التي من الضروري مراعاتها لدى القائمين على اعمال الحكومة الاسلامية.



شروط القائمين على الحكومة في الاحاديث الاسلامية:

وردت في الاحاديث الاسلامية ايضاً شروط ثقيلة جداً وكثيرة للقائمين على الحكومة، والتي لا يمكن بدونها تحقيق اقامة الحكومة الاسلامية بشكل كامل مطلقاً.

١ - (الكهف - ٥١)

٢ - (القلم - ٨)

٣ - (القلم - ١٠ الى ١٣)

٤ - (النساء - ١٣٥)

٥ - (النساء - ١٤١)

١ - العلم والوعي في أعلى مستوياتها:

نقرأ في حديث عن النبي الأكرم ﷺ: «مَنْ أَمَّ قَوْماً وَفِيهِمْ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْهُ لَمْ يَزَلْ أَمْرُهُمْ إِلَى السَّفَالِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»! (١).

ونقرأ في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام: «مَنْ دَعَى النَّاسَ إِلَى نَفْسِهِ وَفِيهِمْ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْهُ فَهُوَ مُبْدِعٌ ضَالٌّ»! (٢).

٢ - سعة الصدر وانفتاح الفكر والاستعداد على تحمّل الحوادث المختلفة:

نقرأ في إحدى الكلمات القصار المعروفة للإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

«آلَةُ الرِّيَاسَةِ سَعَةُ الصَّدْرِ» (٣).

٣ - الوعي بمسائل الزمان:

نقرأ في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام:

«الْعَالَمُ بِزَمَانِهِ لَا تَهْجُمُ عَلَيْهِ اللَّوَابِسُ»! (٤).

٤ - مراعاة العدالة وعدم التفريق بين الناس:

ونقرأ في حديث أن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قال لعمر بن الخطاب:

«ثَلَاثٌ إِنْ حَفِظْتَهُنَّ وَعَلِمْتَ بِهِنَّ كَفْتِكَ مَا سِوَاهُنَّ، وَإِنْ تَرَكْتَهُنَّ لَمْ يَنْفَعَكَ شَيْءٌ سِوَاهُنَّ».

١ - الوسائل، ج ٥، ص ٤١٥ (الباب ٢٦ من ابواب صلوة الجماعة).

٢ - سفينة البحار، ج ٢ (مادة العلم).

٣ - نهج البلاغة، الكلمات القصار ١٧٦.

٤ - اصول الكافي، ج ١، ص ٣٧.

قال: «وما هُنَّ يا أبا الحسن؟»

قال: إقامة الحدود على القريب والبعيد، والحكم بكتاب الله في الرضا والسخط، والقِسْمُ بالعدل بين الأحمر والأسود.
«فقال عمر: لقد أوجزت وأبلغت!»^(١).

٥ - الاهتمام بمكافأة المحسنين والعفو عن المذنبين الذين يؤمل بتوبتهم وعودتهم عن ذنوبهم:

نقرأ في حديث عن الامام الصادق عليه السلام:

«ثلاثة تجب على السلطان للخاصة والعامة: مكافأة المحسن بالاحسان ليزدادوا رغبة فيه، وتغمُّد ذنوب المسيء ليتوب ويرجع عن غيئه، وتألفهم جميعاً بالاحسان والانصاف»^(٢).

٦ - النظر لمصالح الناس ومصالحه بعين المساواة!

من ضمن الاوامر التي أصدرها الامام علي عليه السلام لمحمد بن ابي بكر عندما اختاره لولاية بلاد مصر ما يلي:

«أحب لعامة رعيتك ما تحب لنفسك وأهليتك، واكره لهم ما تكره لنفسك وأهل بيتك، فان ذلك أوجب للحجة وأصلح للرعية»^(٣).

١ - بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٣٤٩، الحديث ٥٣.

٢ - بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٢٣٣.

٣ - البحار، ج ٧٢، ص ٢٧.

٧- الارتباط العاطفي مع الناس:

لقد اعتبرت بعض الروايات الاسلامية السلطان العادل بمنزلة الوالد، وأوصت الناس أن يحترموه احترام الأب، والمراد بهذا الحديث أنه ينبغي للسلطان أيضاً أن ينظر للناس بعين الابوة ويعتبرهم بمنزلة ابنائه، وبناءً على ذلك لابد من اقامة روابط عاطفية قوية بينه وبين الناس كما هو الحال بين الأب وابنائهم، ويقول الامام موسى بن جعفر عليه السلام في حديثٍ ورد عنه:

«إِنَّ السُّلْطَانَ الْعَادِلَ بِمَنْزِلَةِ الْوَالِدِ الرَّحِيمِ فَأَحِبُّوْا لَهُ مَا تُحِبُّوْنَ لِأَنْفُسِكُمْ وَأَكْرَهُوا لَهُ مَا تَكْرَهُوْنَ لِأَنْفُسِكُمْ»^(١).

٨- الابتعاد عن البخل، والجهل، والجفاء والظلم:

يقول الامام امير المؤمنين علي عليه السلام في هذا المجال:

«وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْوَالِي عَلَى الْفُرُوجِ وَالْدَّمَاءِ وَالْمَغَانِمِ وَالْأَحْكَامِ وَإِمَامَةِ الْمُسْلِمِينَ؛ الْبَخِيلُ، فَتَكُونَ فِي أَمْوَالِهِمْ نَهْمَتُهُ، وَلَا الْجَاهِلُ فَيُضِلُّهُمْ بِجَهْلِهِ، وَلَا الْجَافِي فَيَقْطَعُهُمْ بِجَفَائِهِ، وَلَا الْخَائِفُ لِلدُّوْلِ، فَيَتَّخِذَ قَوْماً دُونَ قَوْمٍ، وَلَا الْمُرْتَشِي فِي الْحُكْمِ فَيَذْهَبَ بِالْحُقُوقِ وَيَقِفُ بِهَا دُونَ الْمَقَاطِعِ، وَلَا الْمُعْطَلُ لِلْسُّنَّةِ فَيَهْلِكُ الْأُمَّةُ»^(٢).

٩ - عدم المصانعة والتعاطي مع اهل الباطل:

يقول امامنا ومولانا امير المؤمنين علي عليه السلام في كلماته القصار في نهج البلاغة:

١ - وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ٤٧٢، الحديث رقم (١).

٢ - نهج البلاغة، الخطبة رقم ١٣١.

«لا يقيم امر الله سبحانه إلا من لا يصابغ ولا يضارغ ولا يتبع المطامع»^(١).

١٠ - النظر بعين الامانة لمقامه ومنصبه:

وهذه الملاحظة ايضاً جديرة هي الاخرى بالاهتمام، وهي أن المناصب والمسؤوليات في الحكومة الاسلامية، تم اعتبارها في العديد من الروايات على انها امانة الهية، دون اعتبارها على أنها وسيلة للتعالي والاستفادة منها للاغراض الشخصية، حتى أنه أشير لهذا الامر في بعض الآيات المباركة في القرآن الكريم، قبل الروايات الاسلامية، اذ نقرأ في الآية ٥٨ من سورة النساء قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾.

وقد ورد في نهاية هذه الآية في كتب التفسير والحديث روايات متعددة على أن المراد بالامانة، هو الولاية والحكومة، وعلى رأس ذلك ولاية الائمة المعصومين (عل)^(٢)، ومن ذلك ما نقرأه في إحدى الروايات الواردة في تفسير الآية الأنفة:

«يعني الامامة، والامامة الامانة»!

وينقل في كتاب دعائم الاسلام ايضاً في حديث عن الامام علي عليه السلام انه كتب الى «رفاعة» قاضي الاهواز مايلي:

«اعلم يا رفاعة، إن هذه الامارة أمانة، فمن جعلها خيانة فعليه لعنة الله الى يوم

١ - الكلمات القصار، الكلمة رقم ١٢٠.

٢ - نُقل في تفسير البرهان سبع روايات على الأقل في هذا المجال، وتلاحظ في كتاب بحار الأنوار ايضاً في الجزء ٢٣ و ٦٧ و ١٠٢ (في الصفحات ٣٨٠، و ٢٨٠، و ٢٥٣ على التوالي)، روايات متعددة بهذا الشأن:

القيامة، ومن إستعمل خائناً فإن محمداً ﷺ بريء منه في الدنيا والآخرة»^(١).
وينقل في تفسير الدر المنثور عن الامام علي عليه السلام ايضاً أنه قال:
«حق علي الامام أن يحكم بما أنزل الله وأن يؤدي الأمانة، فاذا فعل ذلك نحق
على الناس أن يسمعو له وان يطيعوا وأن يجيبوا اذا دعوا»^(٢).
ونطالع في نهج البلاغة ايضاً، أن أمير المؤمنين عليه السلام قال في كتابه الى والي
آذربايجان:

«وان عملك ليس بطعمة ولكنه في عنقك امانة»^(٣).

ومن البديهي أن هذه الروايات لا تحجّم المفهوم الواسع للآية التي توصي
بالمحافظة على جميع الامانات، بل وكما هو واضح لدينا فانها تمثل المصدق
الواضح للامانة الالهية.

ومما لاشك فيه ايضاً أن الذي ينظر الى هذه المناصب بعين الامانة الالهية، فان
اسلوبه في التعاطي مع هذا الامر يختلف كثيراً عن ذلك الذي ينظر لها على انها ملك
مطلق له، وكذا الحال بشأن الاموال والثروات، فان القرآن الكريم يعبر عنها ايضاً بأنها
عبارة عن أمانة الهية بين يدي الناس، موضحاً بأن المالك الاصلي لها هو الله تبارك
وتعالى، وهو الذي أودعها بأيدي الناس أياماً معدودات، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَمَّنُوا
بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾^(٤).

ومن المسلّم به أن صرف الاموال المودعة بعنوان أمانة لدى الانسان في الموارد
الخاصة التي يجيزها صاحب تلك الاموال لا يوجد فيه أية صعوبة، في حين أن
الانسان لو كان هو المالك الاصلي لها، فان صرف تلك الاموال ليس سهلاً عليه.

١ - دعائم الاسلام، ج ٢، ص ٥٣١.

٢ - الدر المنثور، ج ٣، ص ١٧٥.

٣ - نهج البلاغة، الكتاب الخامس.

٤ - (الحديد - ٧)

تركيب النظام التنفيذي

يتألف النظام التنفيذي عادةً من شبكة واسعة، يقف على رأسها رئيس الحكومة، ويليه الوزراء في المرتبة التالية، ويأتي في المرتبة الثالثة منهم المدراء العامون والمحافظون، ورؤساء الأقسام والنواحي التابعة، وكل دولة سواء كانت كبيرة أو صغيرة، فأنها بحاجة إلى هذه التقسيمات، سواء كانت بهذه المسميات أو غيرها. والواقع أن هذه الشبكة الواسعة تمتلك فلسفة واضحة، تستمد قوتها من مسألة ضرورة تقسيم الأعمال.

وتمثل هذه المسألة في عالم التشريع والأنظمة البشرية، صورة واضحة عن تركيبة النظام التكويني، فعندما ننظر إلى بدن الإنسان من حيث تشكيلاته الداخلية والخارجية، نرى أن هذا «العالم الصغير» الذي تلخص فيه «العالم الكبير»، يمتلك نظاماً تنفيذياً غايةً في الانسجام، مع شبكة واسعة لتقسيم الأعمال.

وعندما يعزم العقل لأداء عملٍ ما، ويصدر الأمر النهائي بذلك، يبدأ كل جزء من أجزاء جسم الإنسان بأداء نشاطه الخاص به، ويواصل تنفيذ ذلك العمل إلى مراحلته النهائية بانسجام كامل.

وكمثال بسيط على ذلك، عندما يشعر الإنسان بالخطر، كأن يفهم بواسطة العين أو الأذن، بوجود حيوان مفترس بالقرب منه (كأن يرى هيكله أو يسمع صوته)، ولا يملك سلاحاً يدافع به عن نفسه، وبالقرب منه ملجأ يمكن أن يلوذ به، فإن أمر الفرار

نحو ذلك الملجأ سيصدر له من العقل، وسرعان ما تبدأ شبكات الاعصاب والعضلات بالعمل، وتزداد ضربات القلب بشدة عالية لا يصل الميز من الدم الى العضلات، وتزداد سرعة عمل الرئتين لتنقية الدم وتصفية، وايصال الميز من الأوكسجين اللازم لحركة العضلات، وتزول جميع آثار التعب والكسل والنوم من الانسان بشكل مؤقت، ويراقب أوضاعه وحركاته بمنتهى الذكاء واليقظة، وبعبارة اخرى يطير الكرى عن مقلتيه.

وينسى الانسان فجأةً وبشكل لا ارادي جميع الامور التي من الممكن أن تشغل فكر الانسان وتعيقه عن اداء هذا العمل من قبيل الجوع، والعطش، والالم! ويستنفر الجسم جميع طاقاته الكامنة فيه، ويصبح مستعداً لأداء أصعب الاعمال وأكثرها مشقة، ويبدى الانسان احياناً عشرة اضعاف مما يبديه من الطاقة في الحالات الاعتيادية، وجميع هذه الامور تتم بشكل تلقائي واتوماتيكي تماماً وبمستوى عالٍ من الدقة والظرافة، بحيث أن مجرد مطالعة هذا الموضوع لوحده يكفي للوقوف على علم الله تعالى وعجيب قدرته، والاطلاع على حقيقة التوحيد.. وكل مجتمع بشري ينطبق عليه نفس الحكم الذي ينطبق على الجسم، ولهذا السبب لا بد من تقسيم الاعمال فيه بشكل دقيق، ومواصلة تأمين متطلباته الثقافية، والاقتصادية، والعسكرية، والمادية والمعنوية، من خلال التخطيط الدقيق لذلك، وبالرغم من الاختلاف الموجود بين كل منها، فان التناغم والتنسيق واكمال كل منها للآخر يعدّ أمراً في غاية الضرورة.

ولهذا السبب أيضاً فان جميع المجتمعات البشرية - سواء المتدينة أو البعيدة عن الدين، شرقيها أو غربيها، قديمها أو جديدها - رضخت لهذه القاعدة في حياتها الاجتماعية، بالرغم من التفاوت الموجود فيما بينها في كيفية تقسيم الاعمال

والمناصب والمسؤوليات، اذ أن البعض منها بدائي جداً في ذلك والبعض الآخر تعمل بشكل دقيق للغاية.

النظام التنفيذي في عالم الخليفة:

بالرغم من الله تبارك وتعالى قادر على كل شيء، وكل مايريد يه يتحقق بارادته تعالى فوراً: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(١).

وبالرغم من ذلك كله فان الآيات المباركة للقرآن الكريم توضح وبشكل جلي، أن الله تبارك وتعالى قسّم الاعمال في هذا العالم، اذ خلق طوائف من الملائكة ليقوم كل منها بانجاز إحدى الاعمال المهمة في هذا العالم.

فيشير القرآن الكريم أحياناً بشكل عام الى هذه المسألة وهو قوله تعالى:

﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةَ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مِّثْنَىٰ وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ﴾^(٢).

ويقول في موضع آخر: ﴿فَالْمَذَبَّرَاتِ امْرَأَ﴾^(٣).

وينقل في موضع آخر قول الملائكة: ﴿مَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ وَإِنَّا لَنَخُنُ الصَّافُونَ

وَإِنَّا لَنَخُنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾^(٤) واحياناً اخرى يشير الى طوائف خاصة منها لها وظائفها

الخاصة، اذ يمكن أن نشير فيما يلي الى المجاميع التالية كنموذج على ذلك:

١ - الملائكة المبلغين للوحي والمنزلين للكتب السماوية:

﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾^(٥).

١ - (يس - ٨٢)

٢ - (فاطر - ١)

٣ - (النازعات - ٥)

٤ - (الصافات - ١٦٤ - ١٦٦)

٥ - (النحل - ٢)

٢ - مجموعة حملة العرش:

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾^(١).

٣ - مجموعة المراقبين لأعمال الناس:

﴿وَأَنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ - كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾^(٢).

٤ - مجموعة جند الله الذين يعززون المؤمنين في الحروب وحوادث الحياة

القاسية:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾^(٣).

٥ - مجموعة حفظة الناس ازاء الكثير من الاخطار والحوادث:

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾^(٤).

٦ - مجموعة المكلفين بقبض الارواح:

﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾^(٥) ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾^(٦).

٧ - الملائكة المكلفون بتقسيم الارزاق:

﴿فَالْمُقْسِمَاتِ أَمْرًا﴾^(٧) إذ يقول البعض في تفسير هذه الآية الكريمة، وجرياً مع

تناسب الآيات الواردة قبلها، بأنها تشير الى الملائكة الذين يقسمون الارزاق بين العباد، بينما يقول البعض الآخر بأنها تشير الى الملائكة المكلفين بتقسيم جميع

١ - (غافر - ٧)

٢ - (الانفطار - ١٠ إلى ١٢)

٣ - (الاحزاب - ٩)

٤ - (الانعام - ٦١)

٥ - (السجدة - ١١)

٦ - (النحل ٣٢)

٧ - (الذاريات - ٤)

الاعمال في عالم الوجود.

٨ - الملائكة المكلفون بنشر السحاب ونزول الامطار والمكلفون بتشتيتها بعد

هطول الامطار:

﴿وَالنَّائِثِرَاتِ نَشْرًا - فَأَلْفَارِقَاتٍ فَرَقَاتِ﴾^(١).

٩ - الملائكة المكلفون بابطال وساوس الشياطين عن قلوب المؤمنين، والذين

يصدون هجوم الشياطين على افكار المؤمنين، فيقضون على وساوسهم:

﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾^{(٢)(٣)}.

١٠ - الملائكة الذين ينزلون في ليلة القدر، والمكلفون بابلاغ تقديرات الله تعالى

على مدى سنة كاملة، تلك المقدرات التي تحدد وفقاً لاستحقاق الافراد وحسن

اعمالهم، وليس بدون حساب وبشكل اجباري:

﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾^(٤).

وكما تلاحظون فان الله تبارك وتعالى وبالرغم من قدرته التامة على جميع

الاعمال، فإنه يقسم تدبير أمور هذا العالم بين الملائكة، وجعل لكل مجموعة منهم

واجباً وتكليفاً محدداً.

* * *

ونلاحظ في الروايات الاسلامية أيضاً تعبيرات متعددة وبليغة بشأن أصناف

١ - (المرسلات - ٣ و ٤)

٢ - الصافات - ٢

٣ - قيل الكثير في الالوجه في تفسير هذه الآية، واحدى تلك المعاني ماجاء اعلاه.

٤ - (القدر - ٤)

الملائكة، من حيث تقسيم المسؤوليات، ومن جملة ذلك ماورد في نهج البلاغة في خطبة الاشباح:

«ومنهم من هو في خلق الغمام الدُّيح، وفي عظم الجبال الشَّمَخ... وفي فترة الظلام الأيهم، خَرَقَتْ اقدائمهم تخوم الارض السفلى فهي كرايات بيض قد نقذت في مخارق الهواء، وتحتها ريح هفافة، تحبسها على حيث انتهت من الحدود المتناهية، قد استفرغتهم اشغال عبادته، ووصلت حقائق الايمان بينهم وبين معرفته... قد ذاقوا حلاوة معرفته، وشربوا بالكأس الروية من محبته»^(١)

ولدينا المزيد من الروايات الاخرى بشأن تقسيم المسؤوليات فيما بين الملائكة، لو ذكرناها جميعاً لطال بنا المقال^(٢).

ويمكننا أن نستخلص مما تقدم ذكره أنفاً المفهوم القرآني التالي: لو أرادت البشرية أن تسير نظام ربوبية الباريء جلّ وعلا في الوجود وتطبق نظام ادارته في عالم التكوين، لابد لها أن تهتم وبكل دقة بمسألة تقسيم الاعمال والمسؤوليات في المجتمع الانساني، لكي تقترن حياة افراد المجتمع بالموفقية والنجاح.

وبعبارة أخرى: نحن نعلم أن نظامي التكوين والتشريع يجب أن يعملأ بشكل متناغم، ولا بد لحياة البشرية أن تستلهم فلسفتها من خلقه الباري جلّ وعلا وتضطنّع بصبغة الله تعالى، وأن كل ما هو حاكم هناك يجب أن يكون هو الحاكم هنا، أن الاهتمام والالتفات الى هذه الحقيقة يدعونا الى مسألة تنظيم الامور التنفيذية.

* * *

١ - نهج البلاغة، الخطبة رقم ٩١ (المعروفة بخطبة الاشباح).

٢ - وللمزيد من الايضاح بشأن اضاف الملائكة عليكم بمراجعة بحار الأنوار، ج ٥٩، ص ١٧٤ وما يليه.

النظام التنفيذي في عصر النبي ﷺ

بالرغم من أن الحكومة الإسلامية على عهد الرسول ﷺ كانت بسيطة جداً، إلا أنه في نفس الوقت كانت مسألة تقسيم المسؤوليات في النظام التنفيذي لهذه الحكومة، واضحة جداً ومدروسة بشكل دقيق.

ومن ذلك أن النبي الأكرم ﷺ كان يختار للمعارك - التي لا يشارك فيها بشخصه قائداً - أو عدداً من القادة، وحتى أنه ﷺ أحياناً كان يعين خليفة للقائد الأول لتلافي الحوادث المحتملة الوقوع للقائد الأول، وعلى سبيل المثال في معركة مؤتة كان القائد الأصلي للجيش جعفر بن أبي طالب ثم اُضيف قائلاً: لو حصل أمر لجعفر فبعده «زيد بن حارثة» على الجيش، ولو حصل له أمر أيضاً «فعبد الله بن رواحة» على الجيش، ولو حصل له أمر ما أيضاً، على المسلمين أن يختاروا شخصاً من بينهم عن طريق الشورى لقيادة الجيش^(١).

وجاء في التواريخ أيضاً أن كان للرسول ﷺ كتاباً للوحي وللأمور الأخرى، اذ يمكن أن نذكر من بينهم الامام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وكذلك «زيد بن ثابت»، و«علاء بن الخصرى» و«أبي بن كعب»^(٢).

واختار ﷺ بعض الأفراد لجمع أموال الزكاة والأمناء على بيت المال، اذ يمكن أن نذكر من بينهم «مهاجر بن أبي أمية» المكلف بجمع أموال بيت المال في صنعاء، و«زياد بن لبيد» في «حضر موت» و«عدي بن حاتم» في قبيلة «طي» و

١ - سيد المرسلين، ج ٢، ص ٤٤ - ونقل بعض المؤرخين الأمراء الثلاثة بشكل آخر، ولا يوجد بينهم وبين مرادنا اختلاف.

٢ - الكامل لابن الأثير، ج ٢، ص ٣١٣.

«مالك بن نويرة» في «بني حنظلة»، و«زبرقان بن بدر» في قبيلة «بني سعد» و«العلاء بن الحضرمي» في «البحرين»^(١).

وعين الرسول ﷺ ايضاً بعض الخبراء لتحسين محصول بساتين النخيل لغرض دفع الزكاة، ومنهم «عبدالله بن رواحة».

كما أنه ﷺ كان يعين الامراء للمناطق المختلفة، ويمكن أن نذكر من بينهم عليّ عليه السلام، و«معاذ بن جبل» على اليمن، و«عتاب بن اسيد» على «مكة» و«عثمان بن ابي العاص» على منطقة «بني ثقيف».

لقد كان للرسول ﷺ، العديد من الرسل الذين أرسلهم للملوك ورؤساء البلدان المجاورة، ومنهم «عبدالله بن حذافة» الذي بعثه الى «كسرى» ملك الساسانيين، و«دحية الكلبي» الى «قيصر» ملك الروم، و«حاطب بن ابي بلتعة» الى «المقوقس» ملك مصر، و«عمرو بن امية» الى «النجاشي» ملك الحبشة^(٢).

وبهذا الشكل نشاهد أنه في تلك الحكومة الخالية عن أي نوع من انواع التشريعات، نجد نظاماً تنفيذياً منسجماً بشكل كامل ويتألف من اقسام مختلفة، وقد اختار ﷺ لكل قسم منها مسؤول أو عدة مسؤولين، يحكمون فيها.

وهذا كله يوضح لنا بشكل جلي، أن مسألة تقسيم المسؤوليات والادارات في الاقسام المختلفة للنظام التنفيذي للحكومة الاسلامية، يعد أمراً مسلماً به ولا يمكن اجتنابه.

١ - سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ٢٤٦.

٢ - خاندان وحي، ص ٢٦.

كيفية انتخاب رئيس السلطة التنفيذية والمسؤولين الآخرين:

في النظرة الكونية الاسلامية التي تقول بأن الحكم لله، وأن مصدر شرعيتها في المجتمعات البشرية تستند الى الاجازة والتفويض الالهي، من الطبيعي أن يتم في الانظمة التنفيذية تعيين المسؤولين في جميع المستويات من قبل النبي الاكرم ﷺ ومن ثم الائمة المعصومين (عل) وبعدهم خلفائهم ونوابهم اي الفقهاء العظام.

ولهذا السبب نجد أن النبي الاكرم ﷺ عندما شرع ببناء الدولة الاسلامية في بداية الهجرة الى المدينة، وعمل على توسيعها فيما بقي من عمره الشريف. كان يقوم ﷺ بتعيين الولاة وامراء الجيش والقضاة والسفراء بنفسه، ومن المحتمل أن كان ﷺ يقوم باستشارة أصحابه في الحالات المهمة بشأن انتخاب أولئك الاشخاص.

ومن المؤكد عندما يتحول الامر الى الفقيه الجامع للشرائط، وخاصة في عصرنا وزماننا - اذ تعتبر المشاركة الجماهيرية في أمر الحكومة من البديهيات ذلك أنه بدون مشاركتهم لن تتوفر دواعي المساهمة والتعاون مع الحكومة مطلقاً - يجب أن تكون مسألة الشورى والمشاورة مع الناس على رأس البرنامج الخاص باختيار المستويات الرفيعة للسلطة التنفيذية.

وبعبارة أخرى: لا بد أن يكون للناس المعرفة الكافية حول رئيس السلطة التنفيذية، والشخص الاول في هذه السلطة، والتعاون في هذا المجال - ومتى ما كان الفقيه الجامع للشرائط غير مبالياً بهذا الامر، فانه يعرض مصالح المسلمين للخطر ويتسبب في زعزعة النظام الاسلامي، وبناءً على ذلك فانه يفقد بالتالي شرعية

ولايته ايضاً.

وليس بوسع الولي الفقيه أن يقول أنا خليفة المعصوم، وأنا الذي أعين جميع المدراء التنفيذيين ورئيس الوزراء والوزراء ورئيس الجمهورية في الحكومة الاسلامية مطلقاً، ذلك لأن هذا الامر لا ينسجم مع مصالح الناس وغبطة المسلمين وشروط الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويؤدي الى زعزعة دعائم الحكومة، وتضعيف اسسها وقدرتها، بل أن جذور مثل هذه الحكومة سرعان ما تنقلع من صفحة التاريخ والمجتمع.

إذاً، يجب عليه أن يحترم قاعدة الشورى القرآنية في هذا الامر، ويعطي الاهمية لاختيار الناس، ويدعوهم للمساهمة في هذا الامر، وأحدى افضل الطرق لذلك هو مانص عليه دستور الجمهورية الاسلامية، من أن انتخاب رئيس الجمهورية يتم في البداية من قبل الشعب، ويكتسب دعمه الشعبي من خلال آرائهم، ثم يصار في المرحلة النهائية الى صدور الامر بتنصيبه من قبل الفقيه الجامع للشرائط، لكي يصار الى تثبيت جنبته الشعبية من جهة، ويضمن من جهة أخرى الجنبه الالهية التي تشكل اساس هذا الانتخاب. (فتأمل).

وهذه الملاحظة هي الاخرى جديرة بالاهتمام، وهي أن التجربة أثبتت بأن انتخاب الناس في مجتمع مؤمن وملتزم متى ماتم من خلال الاعداد الصحيح والمسبق والتدريب والمعرفة الكافيين، غالباً مايكون صحيحاً.

بينما لو حصل في بعض الموارد خطأ معين في تشخيص الشعب وضمير الأمة وهذا قليل ونادر - يجب على الفقيه الجامع للشرائط أن يستفيد من صلاحياته، ويُعرض عن تنفيذ تنصيب مثل هذا الشخص، ولكن من حيث أن الولي الفقيه

منتخب هو الآخر من قبل الشعب، (كما سنشير لذلك لاحقاً)، يجب أن يقوم بتنوير الازدهان من خلال التدبير والدراية الصحيحة ورائه الوثائق والادلة، ويعمل على توعية الضمير الشعبي تجاه هذا الأمر، ولو حصل خطأ معين عليه أن يتف بوجهه ويتصدى له.

ولكن كما قلنا أن هذا الامر يحصل في موارد نادرة جداً، خاصة وأن صلاحية المرشحين لهذا الامر يجب أن تؤيد من قبل مجموعة من أهل الخبرة والدراية، لذا من المستبعد أن تحصل مشكلة مهمة في هذا الامر.

طبعاً من الممكن أن يتحقق اختيار الشعب بشكل غير مباشر، بمعنى أن يختار الناس نوابهم لمجلس الشورى الاسلامي، ومن ثم يقوم النواب بترشيح إحدى الشخصيات لمنصب رئاسة الوزراء، وبعد المداولة اللازمة واحرازه الصلاحية يمنحونه رأي الاعتماد والثقة، ولغرض تنفيذ هذا الحكم يراجعون الولي الفقيه بعد ذلك، ومن ثم يقوم الولي الفقيه ايضاً إما بشكل مباشر احياناً، أو بشكل غير مباشر (كما نشاهد ذلك بخصوص فقهاء مجلس صيانة الدستور) بتأييد هذا الرأي والموافقة عليه وتنفيذه.

وبالرغم من أن رئيس السلطة التنفيذية، اي رئيس الجمهورية في نظام حكم الجمهورية الاسلامية يتم انتخابه في الوقت الحاضر من قبل الشعب، إلا أن مسؤولي الدرجة الاولى اي الوزراء، يتم تعيينهم بواسطة اقتراحه وانتخاب نواب الشعب في مجلس الشورى. وبهذا الشكل فان الشعب يشارك ويساهم عن طريقين في انتخاب الوزراء: أولاً عن طريق نواب المجلس، وثانياً عن طريق رئيس السلطة التنفيذية، والاثنان منتخبان عن طريق الشعب.

كما أن الفقيه الجامع للشرائط، يشرف على هذا الأمر أيضاً عن طريق مجلس صيانة الدستور، وعن طريق المصادقة على تنفيذ تنصيب رئيس الجمهورية أيضاً. إن هذا الأسلوب الغير معقد نسبياً يضمن من جهة تدخل الفقيه الجامع للشرائط في هذا الانتخاب طبقاً للموازن الشرعية، ومن جهة أخرى مشاركة الشعب أيضاً، وبهذا الشكل تتم مراعاة الجنبتين الشرعية والشعبية بشكل دقيق. (فتأمل).

* * *

الثقافة الحاكمة على الحكومة الاسلامية

هذا الجزء من المسائل المتعلقة بالحكومة الاسلامية يعد من أهم الاجزاء واكثرها حيوية، لأنّ من الممكن أن نفهم مما تقدم عن النظام التنفيذي في الحكومة الاسلامية، أنها تسير بنفس الاسلوب الذي يسير عليه الحكام غير الإسلاميين.

أي أن تقسيم المسؤوليات، وتشكيل الوزارات وانتخاب الوزراء، والمدراء الكبار والادنى منهم، ورئيس الجمهورية أو رئيس الوزراء مطلوب هنا أيضاً، وكذا الحال بالنسبة لمسألة الانتخابات الشعبية، والاستناد الى آراء وارادة الشعب، والانتخاب المباشر أو غير المباشر من قبل نواب الشعب في مجلس الشورى وامثال ذلك، موجودة هي الاخرى أيضاً. وبناء على ذلك فان الفرق الوحيد لهذه الحكومة مع سائر الحكومات، يكمن في الاسم والعنوان فقط!

الا أن ذلك يعد خطأ فاحشاً، لأن الشيء الاهم الذي يفرّق بين الشعوب والحكومات والجمعيات يكمن في الثقافة الحاكمة عليهم، خاصة وأن الحكومة أو المؤسسات والجمعيات هي بمنزلة الجسم فقط، وروحها يكمن في الثقافة الحاكمة عليها.

ولغرض الوقوف على الثقافة الاسلامية الحاكمة على هذه التنظيمات، يلزمنا المزيد من البحوث، وهي بحاجة إلى كتاب أو مجموعة من الكتب المستقلة، وما تطالعونه هنا يمثل في الواقع فهرساً من تلك البحوث، هذا الفهرست الذي بإمكانه

أن يوضح للقراء الكرام الكيفية الاجمالية لهذه المسألة واهدافها وأهميتها.
وبشكل عام فان ثلاثة أصول اساسية تتحكم بنظام الحكومة الاسلامية. والتي
تميّزها عن سائر الحكومات الشعبية:

١ - معرفة المسؤولين التنفيذيين بأنهم المؤتمنون على أمر الله تعالى، ويجب
عليهم المحافظة على ما أودع بأيديهم من أمر الحكومة والمناصب الحكومية
كوديعة وامانة الهية، وبأنهم بمثابة حلقة الوصل بين الله سبحانه وتعالى وعبادة، وأن
ينفذوا بدقة كل ما أمر به تعالى بشأن عبادة، وليس بإمكانهم مطلقاً أن ينشغلوا
بالتفكير في المحافظة على مناصبهم أو مصالحهم الشخصية أو مصالح جماعة
معينة.

في حين أن الحكام الماديين يفكرون في كيفية المحافظة على مناصبهم
ومصالحهم الشخصية اكثر من أي شيء آخر، ومن الممكن احياناً ان يعمدوا الى
صرف الملايين من أجل الوصول الى أحد المناصب، والمؤكد أنهم وبعد استلام
الحكم يقومون بتعويض ما أنفقوه ويزيدون عليه اضعافاً مضاعفة، أو على الأقل
يتعلق هؤلاء الأفراد بطبقة معينة من المجتمع، ومن أجل المحافظة على مصالح تلك
الطائفة التي ينتمون لها، والتي رصدت مبالغ طائلة لايصاله الى سدة الحكم، يقومون
بشتى الجهود، من أجل أن تعود على تلك الطبقة بالمزيد من الفوائد والارباح
المضاعفة.

ولذا فان اختلاف هذا المنظار عن المنظار الذي يعمل بموجبه الحكام والمدراء
الاسلاميون واضح جداً وفي جميع المجالات.

٢ - ينظر الناس لهم على أنهم مبعوثين من قبل الله تعالى، ذلك لأن طاعتهم تعد
فرعاً من طاعة الله تعالى، وأوامرهم بمنزلة أوامر الله.

ويعتبرون قوانين الحكومة الإسلامية - في حالة قيام تلك الحكومة على الأسس الصحيحة - بمنزلة قانون الله، ويعتقدون بأن طاعتها توجب النجاة في الآخرة، وأن مخالفتها يعد ذنباً ويوجب العذاب يوم القيامة.

هذه النظرة تختلف كثيراً عن النظرة السائدة في الحكومات المادية، إذ يرى الناس أن الأحكام عبارة عن أفرادٍ مثلهم، وهم غالباً في صدد المحافظة على مصالحهم الشخصية أو مصالح الحزب والجماعة التي ينتمون لها، وإذا شعروا بأن الناس غير راضين بالقوانين المشرعة، وأمنوا من العقاب، فإنهم سرعان ما يتخلّون عن واجبهم في تحمّل مسؤولياتهم.

٣ - في الحكومة الإسلامية وبشكل عام يجب أن تلقى الروح المعنوية والقيم الأخلاقية بظلالها على جميع الأمور، وأن تأتي المسائل الأخلاقية والإنسانية على رأس قائمة الأعمال، ويجب أن تكون الدوافع أبعد بكثير من الدوافع المادية، وليس الهدف النهائي من تشكيل الحكومة والحياة الأفضل إنما يتمثل في توفير المقدمات اللازمة للسير إلى الله والقرب من الباري وإيجاد التكامل الروحي والمعنوي؟! فهل يمكن أن تتساوى هذه الأهداف والدوافع أهداف ودوافع الشعب والعاملين في حكومة مادية؟

طبعاً لغرض الوصول إلى التحقيق حكومة الهيئة تامة وكاملة، لا بد أن تطوي طريقاً طويلاً وشاقاً، ولا بد من إعطاء دروس كثيرة للمجتمع، ولكن مهما يكن الحال فإن محتوى هذه الحكومة قياساً للحكومات المادية، من حيث العنصر الثقافي «متفاوت» للغاية بل و«متباين» أيضاً.

ومن خلال هذا التحليل ننتقل الى الآيات القرآنية المباركة، ومن ثم الى الروايات الاسلامية، لغرض الوقوف على الثقافة الحاكمة على المحاور المختلفة للحكومة الاسلامية ومناقشتها:

١ - نقرأ في الآية رقم ١٥٩ من سورة آل عمران:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْتَفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

وبناءً على ذلك فان الحاكم الاسلامي وبالإضافة الى الحزم والعزم الشديدين، فهو مطالب ومكلف بالعفو والصفح، وحتى الاستغفار واللين والانسجام، وأن يرى في الله تعالى السند والملاذ الاول والاخير في كل حال من الاحوال.

٢ - وفي الآية ٣٤ من سورة فصلت المباركة يأمر الباري تعالى بغسل العداوة والبغضاء بماء المحبة والاحسان، وتلافي مواجهة الاحبة بالمثل كلما أمكن ذلك إذ يقول تعالى: ﴿أُدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾.

ولكنه تعالى يضيف مباشرة بقوله الكريم:

إن سيطرة مثل هذه الثقافة على النظام الاسلامي التنفيذي والتي تقف بالضد تماماً من الثقافة المادية تضيي عليه نورانية وصفاء، وتعطي له معنى ومفهوماً آخرين.

٣ - ويقول تعالى في الآية ٣٨ من سورة الكهف المباركة تجاه اصرار الذين يعتقدون بأن واجب النبي الاكرم ﷺ أن يُبعد الفقراء وأن كانوا مؤمنين ومخلصين، ويقترب من الطبقات الغنية والمتنفذة، اذ تقول الآية بكل صراحة وحزم: «وَاصْبِرْ نَفْسُكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ

وَكَانَ أَمْرُهُ قُرْطًا».

وشتان بين هذا المنطق الذي يرى في الحب والايمان بالله تعالى لدى هؤلاء الافراد أئمن وأغلى شيء لديهم، ويأمر بصد الاغنياء الغافلين عن ذكر الله، وليس الفقراء المخلصين المؤمنين، وبين منطق الذين يعلنون اليوم بكل صراحة في العالم، بأن القيمة العليا تكمن في المصالح والمنافع المادية، ويضحون بجميع القيم الاخرى في سبيل تلك المصالح.

٤- وتخاطب الآية ٢٦ من سورة صّ وبلهجة حازمة وشديدة للنبي داود عليه السلام: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

وكما نرى، فإن الآية الكريمة تنذر هذا النبي المعصوم والقُدوة للناس بأن يحذر وساوس النفس الامارة، لئلا تصبح سبباً لانحرافه عن طريق الحق والعدالة. وعلى هذا الأساس، يجب على الحاكم الإسلامي أن يراقب نفسه جيداً ويحذر من الأهواء والدوافع الدنيوية والحبّ والبغض أن تتحكم في أعماله وتصرفاته فيضيع بها حقاً أو يرتكب باطلاً، وما أشد ما إختلف هذا الميزان للحاكم مع من يقول بأن القاضي يعتبر مسؤولاً فقط أمام القانون لا أكثر، ذلك القانون الذي له أكثر من ألف طريقة للتخلص والتبرير.

٥- وفي الآية (١٣٥) من سورة النساء يخاطب القرآن الكريم جميع المؤمنين ويذكرهم بأصل مهم، وهو تقديم الأصول والضوابط على الروابط، ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ نَعَرُّوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

وبهذا لا ينبغي للروابط بين الأب والأم والأبن والأخ أن تكون حجر عثرة أمام تطبيق القانون وإجراء العدالة، بل حتى المنافع الشخصية لا بد من نسيانها وتركها في مقابل الحق.

ومن البديهي أن مثل هذه الكلمات يمكن أن تطرح في المحافل المادية، ولكن مضافاً إلى عدم وجود الضمانات العملية في تطبيقها، لا يمكن تصوّر مفهوم صحيح عنها، ولهذا نجدهم يقدّمون المنافع الشخصية والحزبية دائماً على القيام بالعدل والقسط، فالروابط حاکمة هنا على الطوابط، وأحياناً يتم هذا المعنى من سحق القوانين علناً في التصرفات المتناقضة للحكّام الماديّين فيما لو تشابهت المفردات، أحدها يسير وفق المصلحة والآخر على الصّد منه، فهنا تتضح زيف الشعارات المتعلقة بالقسط والعدل وحقوق البشر ويثبت بطلانها.

* * *

هناك ملاحظات ملفتة للنظر في الروايات الإسلامية لبيان الثقافة الحاكمة على الحكومة الإسلامية يطول شرحها، ولكن يمكن الإشارة إليها بإختصار:

١ - بالرغم من أن الحرب تمثل منتهى الخشونة لدى الإنسان، وتكون مع الأسف ضرورية في بعض الأحيان مقابل من لا يدرك سوى منطق القوة، مع ذلك نجد أن الإسلام في برنامجه الحربي قرن المسائل الإنسانية مع وحشية الحرب، وأوجب على المسلمين رعاية الأصول الأخلاقية في حربهم مع الإعداء الشرسين.

عندما كانت مجموعات المجاهدين من جيش الإسلام تتوجه إلى ميادين القتال كان رسول الله ﷺ يدعوهم إليه ويوصيهم بوصاياه، ويقول:

«سِيرُوا بِسْمِ اللَّهِ وَبِإِلَهِهِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلَى مِلَّةِ رَسُولِ اللَّهِ لَا تَغْلُوا، وَلَا تُمَثِّلُوا وَلَا تَغْدِرُوا وَلَا تَقْتُلُوا شَيْخاً فَايئاً، وَلَا صَبِيّاً وَلَا امْرَأَةً وَلَا تَقْطَعُوا شَجْراً إِلَّا أَنْ تَضْطَرُّوا إِلَيْهَا، وَإِذَا رَجُلٌ مِنْ أَدْنَى الْمُسْلِمِينَ أَوْ أَفْضَلِهِمْ نَظَرَ إِلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَهُوَ جَارٍ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ فَإِنْ تَبِعَكُمْ فَأَخَوْكُمْ فِي الدِّينِ وَإِنْ أَبَى فَأَبْلِغُوهُ مَأْمَنَهُ وَاسْتَعِينُوا بِاللَّهِ عَلَيْهِ»^(١).

ونقرأ في حديث آخر:

«نَهَى رَسُولُ اللَّهِ أَنْ يُلْقَى السُّمُّ فِي بِلَادِ الْمُشْرِكِينَ»^(٢).
«مَا بَيْتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَدُوّاً قَطُّ»^(٣).

ونقرأ أيضاً في حديث آخر عن وصايا النبي ﷺ الحدرية إلى الإمام علي عليه السلام عندما كان الإمام عازماً على التوجه إلى اليمن:

(لا تقاتلن أحداً حتى تدعوه، وأيم الله لأن يهدي الله على يدك رجلاً خيراً لك من طلعت عليه الشمس وغربت)^(٤).

* * *

٢ - الآداب للإسلامية في جمع الضرائب:

ونقرأ في الآداب المتعلقة بجمع الزكاة والأموال لبيت المال أن الإمام علي عليه السلام

١ - فروع الكافي المجلد ٥ صفحة ٢٧ - ٢٨ - ح ١.

٢ - فروع الكافي المجلد ٥ صفحة ٢٨، ح ٢.

٣ - فروع الكافي المجلد ٥ صفحة ٢٨ (باب وصية رسول الله ... ح ٢٣).

٤ - فروع الكافي المجلد ٥ صفحة ٢٨، ح ٤.

كلما بعث رجلاً لجمع الزكاة أوصاه بوصايا عديدة. منها ما يلي:

«انْطَلِقْ عَلَى تَقْوَى اللَّهِ وَخَدِّه لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَا تُرَوِّعَنَّ مُسْلِمًا، وَلَا تَجْتَازَنَّ عَلَيْهِ كَارِهًا، وَلَا تَأْخُذَنَّ مِنْهُ أَكْثَرَ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِي مَالِهِ فَإِذَا قَدِمْتَ عَلَى الْحَيِّ فَأَنْزِلْ بِمَائِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخَالِطَ أَبْيَاتَهُمْ، ثُمَّ امْضِ إِلَيْهِمْ بِالسَّكِينَةِ وَالْوَقَارِ حَتَّى تَقُومَ بَيْنَهُمْ، فَتُسَلِّمْ عَلَيْهِمْ وَلَا تُخْدِجَ بِالتَّحِيَّةِ لَهُمْ، ثُمَّ تَقُولَ: عِبَادَ اللَّهِ! أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ وَلِيُّ اللَّهِ وَخَلِيفَتُهُ لَأَخْذَ مِنْكُمْ حَقَّ اللَّهِ فِي أَمْوَالِكُمْ فَهَلْ لَكُمْ فِي أَمْوَالِكُمْ مِنْ حَقٍّ فَتَوَدُّوهُ إِلَى وَلِيِّهِ، فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: لَا، فَلَا تُرَاجِعْهُ، وَإِنْ أَنْعَمَ لَكَ مُنْعِمٌ فَانْطَلِقْ مَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخِيفَهُ أَوْ تُوعِدَهُ أَوْ تُعَسِّفَهُ أَوْ تُرْهَقَهُ»^(١).

وبعد هذه التعليمات، يوصيه الإمام عليه السلام بوصايا مؤكدة عن كيفية الانتخاب العادل لزكاة بيت المال من بين الأموال الجيدة والسقيمة، ورعاية الرفق والمداراة والمحبة. وغير ذلك مما يعتبر نموذجاً واضحاً على حاكمية القيم الإسلامية في هذه الأمور في المعاملة مع الناس.

قد يتصور البعض أن طريقة المعاملة هذه في مسألة الضرائب الإسلامية توجب الضعف والفتور لدى الناس، وتختلف كثيراً عما نشاهده اليوم من كيفية جمع الضرائب.

ولكن لا ينبغي الغفلة عن أن هذه التعليمات واردة في المجتمع الإسلامي الذي شربن شقافة إسلامية وشعر الأفراد فيه بالمسؤولية.

كما إننا نجد الآن وفي بعض المجتمعات غير الإسلامية كثيراً من الأشخاص وبسبب الثقافة الحاكمة هناك يدفعون الضرائب عن طيب خاطر من دون أن يطالبهم أحد، وأكثر من ذلك وأفضل ما يجري في مجتمعنا الإسلامي حيث تأتي الناس

زرافاتاً ووحداناً إلى مراجع الدين ليؤدوا ما عليهم من الخمس الواجب وبدقة متناهية حتى حساب عدة كيلو غرامات من السكر أو الشاي الموجودة في البيت مما زاد عن مؤنة السنة، حيث أن الناس يشعرون جميعاً بالمسؤولية، وهكذا في مثل زكاة الفطرة وشعور الناس بالمسؤولية تجاهها.

وكلما إنتشرت وتعمقت هذه الثقافة والشعور، بالمسؤولية إتضح الجواب عن هذا الإشكال كاملاً.



٣ - الإقتصاد في كل شيء:

من المميزات الثقافية الإسلامية أيضاً الإقتصاد والدقة في مخارج أموال البيت المال بعنوان أنه وديعة وأمانة إلهية بيد المسؤولين يحاسبون عليها يوم القيامة حساباً عسيراً، والحادثة المعروفة التي وقعت لعقيل أحد الشواهد على ذلك عقد ما طلب من أخيه الإمام علي عليه السلام أن يفضله على الآخرين في العطاء، فنجد أن الإمام علي عليه السلام رفض أدنى إمتياز بين أخيه والآخرين حتى أنه عليه السلام أحصى له حديدة وقربها من يده وحذره من عذاب الله يوم القيامة.

وهناك موارد أخرى كثيرة ستبين دقة المسؤولين ورجال الإسلام العديمة النظر في هذا المجال ومن ذلك تعليمات الإمام علي عليه السلام إلى الكتاب في الحكومة الإسلامية حيث يقول عليه السلام:

«ادِقُوا أَقْلَامَكُمْ وَقَارِبُوا بَيْنَ سَطُورِكُمْ وَاحْذِقُوا عَنِّي فَضُولَكُمْ، وَاقْصِدُوا قَصْدَ

الْمَعَانِي، وَإِيَّاكُمْ وَالْإِكْثَارَ، فَإِنَّ أَمْوَالَ الْمُسْلِمِينَ لَا تَحْمَلُ الْإِضْرَارَ»^(١).

وقد بيّن الإمام الصادق عليه السلام هذا المعنى بصورة كلية حيث قال:

«إِنَّ الْقَصْدَ أَمْرٌ يُجِبُّهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَإِنَّ السَّرْفَ يُبْغِضُهُ حَتَّى طَرْحَكَ الثَّوَاءَ فَإِنَّهَا تَضِلُّ لِشَيْءٍ وَحَتَّى صَبَّكَ فَضَلَ شَرَابِكَ»^(٢).

وقد ثبت في هذا الزمان من أن كل شيء لا ينبغي أن يطرح، فيمكن الاستفادة حتى من القمامة والمواد الزائدة للمصانع وغيرها، وحتى إن مياه المجاري مع قذارتها ورائحتها النتنة يتم تصفيتها من جديد وإرسالها إلى المزارع، وكذلك يتم جمع القمامة فيصنعون منها منتوجات مختلفة، ونختم هذا الكلام بحديث كريم من دعاء الصحيفة السجادية للإمام علي بن الحسين عليهما السلام في هذا المجال حيث يدعو الله تبارك وتعالى ويقول:

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَاحْجُبْنِي عَنِ السَّرْفِ وَالْإِزْدِيَادِ، وَقَوِّمْنِي بِالْبَذْلِ وَالْإِقْتِسَادِ، وَعَلِّمْنِي حُسْنَ التَّقْدِيرِ، وَأَقْبِضْنِي بِلُطْفِكَ عَنِ التَّبَذِيرِ»^(٣).

* * *

٤ - التمايز بالفضيلة لا بالحسب والنسب:

ثم إنتخاب عتاب بن أسيد من قبل النبي صلّى الله عليه وآله أميراً على مكة المكرمة، وكان شاباً شجاعاً ذكياً، فكتب له رسول الله صلّى الله عليه وآله في كتاب تنصيبه هذا كلمات منيرة

١ - الخصال (المجلد ٢١ الباب ٢٥ ح ٨٥) - بحار الأنوار - ج ٧٣ - ص ٤٩، ج ١٠١، ص ٢٧٥.

٢ - بحار الأنوار: ج ٦٨، ص ٣٤، ح ١٠.

٣ - الصحيفة السجادية: الدعاء ١٣٠ (دعائه في المعونة على قضاء الدين).

توضح الثقافة السامية للإسلام في المجال التنفيذي في الحكومة الإسلامية ونقرأ في بعض كلماته:

«فَهُوَ لَنَا خَادِمٌ وَفِي اللَّهِ أَخٌ وَلِأَوْلِيَانَا مُوَالٍ، وَلَا عِدَائُنَا مُعَادٍ، وَهُوَ لَكُمْ سَمَاءٌ ظَلِيلَةٌ، وَأَرْضٌ زَكِيَّةٌ، وَشَمْسٌ مُضِيئَةٌ وَلَا يَخْتَجُّ مُخْتَجٌّ مِنْكُمْ فِي مُخَالَفَتِهِ بِصَغَرِ سِنِّهِ، فَلَيْسَ الْأَكْبَرُ هُوَ الْأَفْضَلُ، بَلْ الْأَفْضَلُ هُوَ الْأَكْبَرُ!»^(١)



٥ - الإمام علي عليه السلام عندما أراد بيان الرأفة الإسلامية وشفقة الحاكم الإسلامي على سائر الرعية في عهده المعروف بعهد مالك الأشتر الذي يعتبر حقاً أفضل مرسوم إداري كتب لحد الآن ولا يصبه غبار النسيان على مرور الزمان، كتب يقول فيه:

«وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ وَالْمَحَبَّةَ لَهُمْ وَاللُّطْفَ بِهِمْ، وَلَا تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبْعاً ضَارِياً تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ، فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ: إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ أَوْ نَظِيرُكَ فِي الْخَلْقِ».

وفي الحقيقة أن الثقافة الإسلامية الحاكمة على الروابط بين المسلمين وبين غيرهم تتخلص في هذه الجملات المحدودة.



٦ - الإعتدال على الشعب:

في مكان آخر من كتاب العهد هذا، يوصي الإمام عليه السلام بأن يجعل الوالي إعماده على الطبقة العامة والكادحة، والإجتناب عن الطبقة المترفة ومولاتها، والسعي دائماً لكسب رضا الطبقة الأولى دون الثانية، يقول عليه السلام:

«وَلْيَكُنْ أَحَبَّ الْأُمُورِ إِلَيْكَ أَوْسَطُهَا فِي الْحَقِّ وَأَعَمُّهَا فِي الْعَدْلِ وَأَجْمَعُهَا لِرِضَى الرَّعِيَّةِ، فَإِنَّ سُخْطَ الْعَامَّةِ يُجْحِفُ بِرِضَى الْخَاصَّةِ، وَإِنْ سُخْطَ الْخَاصَّةِ يُغْتَفَرُ مَعَ رِضَى الْعَامَّةِ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الرَّعِيَّةِ أَثْقَلَ عَلَى الْوَالِيِّ مَوْثِقَةً فِي الرِّخَاءِ وَأَقْلُ مَعُونَةً لَهُ فِي الْبَلَاءِ وَأَكْرَهُ لِلْإِنصَافِ وَأَسْأَلُ بِالْإِلْحَافِ وَأَقْلُ شُكْرًا عِنْدَ الْإِعْطَاءِ وَأَبْطَأُ عَذْرًا عِنْدَ الْمَنْعِ، وَأَضْعَفُ صَبْرًا عِنْدَ مُلِمَاتِ الدَّهْرِ مِنْ أَهْلِ الْخَاصَّةِ، وَرَأْنًا عِمَادُ الدِّينِ وَجَمَاعُ الْمُسْلِمِينَ وَالْعُدَّةُ لِلْأَعْدَاءِ، الْعَامَّةُ مِنَ الْأُمَّةِ، فَلْيَكُنْ صِغُوكَ لَهُمْ وَمَيْلُكَ مَعَهُمْ».

ويأمر عليه السلام في محل آخر بأن يتعد كل البعد عن أهل الحسد والذين يبحثون عن عيون الناس، ويقول:

«وَلْيَكُنْ أَبْعَدُ رَعِيَّتِكَ مِنْكَ وَأَسْنَأُهُمْ عِنْدَكَ، أَطْلِبُهُمْ لِمَعَايِبِ النَّاسِ، فَإِنَّ فِي النَّاسِ عُيُوباً أَلْوَالِي أَحَقُّ مَنْ سَتَرَهَا، فَلَا تَكْشِفَنَّ عَمَّا غَابَ عَنْكَ مِنْهَا، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ تَطْهِيرَ مَا ظَهَرَ لَكَ وَاللَّهُ يَحْكُمُ عَلَى مَا غَابَ عَنْكَ!».

* * *

٧- الإتصال المستمر بالعلماء:

التعاون والتماس المستمر مع المتخصصين والمفكرين والعلماء من كل فن أحد النقاط المهمة في الثقافة الإسلامية الحاكمة على الجهاز التنفيذي، وقد جاء في عهد مالك الأشتر أيضاً:

«وَأَكْثَرُ مُدَارَسَةِ الْعُلَمَاءِ وَمُنَاقَشَةِ الْحُكَمَاءِ فِي تَثْبِيتِ مَا صَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ بِلَادِكَ
وَأَقَامَةِ مَا اسْتَقَامَ بِهِ النَّاسُ قَبْلَكَ»^(١).

ويستفاد من هذه العبارة بصورة جيدة أن على المسؤولين والحكام الإسلاميين أن يكون لهم دائماً مستشارين أو مجموعات من المستشارين في مختلف المسائل السياسية والاجتماعية، ولا يتخذوا قراراً أو يبرموا أمراً في المسائل المهمة من دون مراجعة هؤلاء المستشارين.



٨ - الثقافة الحاكمة على الجهاز القضائي:

يستفاد أيضاً من الصفات المذكورة للقضاة في هذا العهد نكات مهمة جداً لم يُتطرق إليها بهذه الدقة في أي مذهب أو دين، وتوضح جانباً من الثقافة الحاكمة على الأجهزة القضائية في الحكومة الإسلامية، يقول عليه السلام:

«ثُمَّ اخْتَرِ لِلْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ أَفْضَلَ رَعِيَّتِكَ فِي نَفْسِكَ مِمَّنْ لَا تَضِيقُ بِهِ الْأُمُورُ،
وَلَا تُمَحِّكُهُ الْخُصُومُ وَلَا يَتِمَادَى فِي الزَّلَّةِ، وَلَا يَخْصُرُ مِنَ الْقِيَاءِ إِلَى الْحَقِّ إِذَا عَرَفَهُ،
وَلَا تُشْرِفُ نَفْسُهُ عَلَى طَمَعٍ وَلَا يَكْتَفِي بِأَذْنَى فَهْمٍ دُونَ أَقْصَاهُ، وَأَوْقَفَهُمْ فِي الشُّبُهَاتِ
وَأَخَذَهُمْ بِالْحُجَجِ، وَأَقْلَهُهُمْ تَبَرُّماً بِمُرَاجَعَةِ الْخَصْمِ، وَأَصْبَرَهُمْ عَلَى تَكْشُفِ الْأُمُورِ
وَأَضْرَمَهُمْ عِنْدَ اتِّضَاحِ الْحُكْمِ، مِمَّنْ لَا يَزْدَهِيهِ إِطْرَاءُ، وَلَا يَسْتَمِيلُهُ إِغْرَاءُ وَأُولَئِكَ
قَلِيلٌ!»^(٢).

١ - نفس المصدر.

٢ - نفس المصدر.



٩- الارتباط المباشر مع الناس:

الارتباط المباشر مع الناس ارتباطاً واقعياً وصحيحاً لا ظاهرياً تشریفاتياً من النقاط المهمة الأخرى التي إستند عليها في هذا العهد، ويأمر الإمام عليه السلام مالك الأشر بعنوانه حاكماً مطلعاً على الثقافة الإسلامية بهذه الصورة:

«وَأَجْعَلْ لِدَوِي الْحَاجَاتِ مِنْكَ قِسْماً تُفَرِّغُ لَهُمْ فِيهِ شَخْصَكَ وَتَجْلِسُ لَهُمْ مَجْلِساً عَاماً فَتَتَوَاضَعُ فِيهِ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَكَ وَتُقْعَدَ عَنْهُمْ جُنْدَكَ وَأَعْوَانُكَ مِنْ أَحْرَاسِكَ وَشُرَطِكَ حَتَّى يُكَلِّمَكَ مُتَكَلِّمُهُمْ غَيْرَ مُتَتَعِّعٍ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي غَيْرِ مَوْطِنٍ: «لَنْ تُقَدَّسَ أُمَّةٌ لَا يُؤْخَذُ لِلضَّعِيفِ فِيهَا حَقُّهُ مِنَ الْقَوِيِّ غَيْرَ مُتَتَعِّعٍ»^(١).

وقد أثبت التجارب أن الارتباط غير المباشر بالشعب، يكون سبباً لتزييف الواقع وعدم الإطلاع الكامل عن الأوضاع الجارية. غالباً، وعدم حصول الضعفاء من الناس على الأخص على حقوقهم، مضافاً إلى الارتباط المباشر يوجب ازدياد المحبة يوماً بعد آخر بين المسؤولين و بين أفراد الشعب.



١٠ - الإهتمام بالمحرومين

آخر نقطة مهمة أخرى نذكرها كخاتمة في بحث الثقافة الحاكمة على الجهاز التنفيذي في الحكومة الإسلامية بالرغم من المطالب الكثيرة في هذا المجال لم تذكر بعد، وهي الأهميّة القصوى للإهتمام بالمحرومين في الثقافة الإسلامية، ففي العهد المذكور لمالك الأشتر و عندما يصلح الإمام علي عليه السلام إلى هذا الموضوع بتغير لحن كلامه كلياً، و يقول:

«ثُمَّ اللَّهُ اللَّهُ فِي الطَّبَقَةِ السُّفْلَى مِنَ الَّذِينَ لَا حِيلَةَ لَهُمْ مِنَ الْمَسَاكِينِ وَالْمُحْتَاجِينَ وَأَهْلِ الْبُؤْسَى وَالزَّمْنَى فَإِنَّ فِي هَذِهِ الطَّبَقَةِ فَانِعاً وَمُعْتِراً وَاحْفَظْ لِلَّهِ مَا اسْتَحْفَظَكَ مِنْ حَقِّهِ فِيهِمْ، وَاجْعَلْ لَهُمْ قِسْماً مِنْ بَيْتِ مَالِكَ، وَقِسْماً مِنْ غَلَاتِ صَوَافِي الْإِسْلَامِ فِي كُلِّ بَلَدٍ، فَإِنَّ لِلْأَقْسَى مِنْهُمْ مِثْلَ الَّذِي لِلْأَدْنَى، وَكُلُّ قَدْ اسْتُرِعِيَتْ حَقُّهُ فَلَا يَشْغَلَنَّكَ عَنْهُمْ بَطَرٌ، فَإِنَّكَ لَا تُعَذِّرُ بِتَضْيِيعِكَ التَّافَةَ، لِأَحْكَامِكَ الْكَثِيرِ الْمُهِمِّ، فَلَا تُشْخِضْ هَمَّكَ عَنْهُمْ وَلَا تُصَغِّرْ خَدَّكَ لَهُمْ»^(١)

إنّ هذا التأكيد والإصرار الشهيد والعديم النظير لأمير المؤمنين عليه السلام بالنسبة إلى هذه الطبقة يعتبر من أوضح معالم العدالة الإجتماعية في الإسلام لحفظ حقوق الناس و خاصة الطبقة المستضعفة، والأسلوب العملي الذي إتبعه الإمام عليه السلام في أيام حكومته شاهد على هذا المدعى.

* * *

النتيجة:

ما تقدّم يعتبر جانباً من الثقافة الحاكمة على النظام التنفيذي في الإسلام و نموذجاً من مجمل الثقافة الإسلامية في هذا المجال يبيّن أبعاد هذه الحكومة الإلهية والشعبية، وبواسطته يمكننا الوصول إلى هذه الحقيقة وهي أن ما يطرم فعلاً بعنوان الحكومة الإسلامية تفصله عن الشكل الأصلي لهذه الحكومة فاصلة واسعة بالرغم من الحركة نحو ذلك الهدف المنشود:

* * *

كيفية إنتخاب رئيس الجهاز التنفيذي

هناك طرق مختلفة في عالم اليوم لإنتخاب رئيس القوة التنفيذية و مسؤولي الدّرجة الأولى، فتارة عن طريق الإنتخاب المباشر، والأخرى الإنتخاب غير المباشر. و ثلاثة تنصيبه من قبل مسؤول زعلى.

أما بالنسبة إلى النبي ﷺ فالإنتخاب تارة يكون إلهياً، و تارة يكون من النبي ﷺ إنتخاب الرّسول نفسه لمنصب الرّسالة والنّبوة فواضح أنّه كان بإنتخاب الله تعالى له، والآيات القرآنيّة شاهدة على ذلك:

١ - النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم. (١)

٢ - يا أيّها الذين آمنوا أطيعوا الله و أطيعوا الرّسول و أولي الأمر منكم. (٢)

٣ - فلا وربّك لا يؤمنون حتّى يحكمون فيما شجر بينهم، ثمّ لا يجدوا في أنفسهم حرجاً ممّا قضيت و يسلموا تسليماً. (٣)

٤ - فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم. (٤)(٥)

١ - الأحزاب / ٦

٢ - النّساء / ٥٩

٣ - النّساء / ٦٥

٤ - ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ، لضمير في (أمره) يعود إلى الرّسول ﷺ، والبعض الآخر ذهب إلى رجوعه إلى الله تعالى، وممكن الاوفق لمحتوى الآية الشريفة هو المعنى الأول، وإليه ذهب صاحب الميزان.

و من الواضح أن الإطاعة المطلقة للنبي ﷺ الواردة في هذه الآيات الشريفة ملازمة لتنصيبه ﷺ قائداً للمجتمع الإسلامي.

و هناك آيات أخرى في القرآن الكريم تؤيد هذا المعنى أيضاً.

أمّا بالنسبة إلى الأئمة المعصومين عليهم السلام فإعتقادنا أنهم أيضاً منتخبون من قبل الله تعالى و تمّ نصبهم بواسطة الرسول ٦، و هناك آيات من سورة المائدة «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ...»^(١) الواردة في واقعة الغدير والمذكورة في التفسير الأمثل بشرح كاف، وكذلك روايات عديدة من مختلف الفرق الإسلامية حول إنتخاب للإمام علي عليه السلام و نصبه خليفة و اماماً بعد الرسول ﷺ، وكذلك الروايات الواردة عن الرسول ﷺ، حول تعيين الأئمة الإثني عشرى، والروايات الواردة عن الأئمة والمعصومين عليهم السلام (تعيين كلّ إمام لما بعده) (وتمّ شرحها في المجلد ٩ من نفحات القرآن) كلّها شاهدة على هذا المدعى ولا حاجة بنا إلى التكرار.

هذا بالنسبة إلى النبي الأكرم ﷺ والأئمة المعصومين عليهم السلام، و أمّا بالنسبة إلى من يأتي بعدهم وفي الفترة اللاحقة، فيمكن للولي الفقيه الجامع للشرائط أن يعين شخصاً لذلك المقام، لأنّ الولي الفقيه والصالح والذي تتوفر فيه سائر الشروط المعتبرة هو النائب عن الأئمة المعصومين عليهم السلام كما في بحث ولاية الفقيه والذي سنشير إليه فيما بعد، ويجب على الحاكم الشرعي والفقيه الجامع للشرائط أن يضع نصب عينيه مصلحة الأمة في جميع الشؤون الإجتماعية والسياسية، وبلا شك أن مصلحة الأمة توجب أن يكون إنتخاب مسؤولي الجهاز التنفيذي بمشورة الناس ومشاركتهم حتى يتسنى لهم التعاون بينهم بشكل أفضل فيما بعد، وهذا لا يكون إلاّ

بإنتخاب الشعب هؤلاء المسؤولين، سواء كان بطريقة مباشرة أو غير مباشرة وخاصة في عصرنا الحاضر الذي سادت فيه شتافة مشاركة الشعب في الحكومة في المجتمعات البشرية.

وعلى هذا الأساس يُرشح عدة أشخاص تتوفر فيهم الصلاحية الكافية والشروط اللازمة لأحراز هذا المنصب المهم والحساس طبقاً لتأييد مجلس الخبراء الصالحين، ويتمّ عرضهم على الناس، ثم ينتخب الشعب آخر هؤلاء الأشخاص ضمن برنامج إنتخاب صحيح وسالم، ومن المعلوم أنّ من يتمتع بشعبية أكبر وأوسع هو الذي سيفوز بالإنتخابات، وبما أن تأييد الناس له وتكاتفهم معه أكثر فسيكون هو الأصلح لهذا المنصب.

ثم تأتي النوبة لتنفيذ الحكم من قبل الولي الفقيه الجامع للشرائط لكي ينتهي بالأمر إلى الأئمة المعصومين عليهم السلام والنبى الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم حيث ينتهي في الواقع إلى إذن الله تعالى ورضاه.

ومن المعلوم أن تنفيذ حاكمية هذا الشخص والذي يتمتع بشعبية أكبر، وتدلّ أكثرية الآراء التي حصل عليها أنه يتمتع بحماية أوسع من الشعب هي بصلاح الشعب ومصلحته، وسوف لا يمتنع الولي الفقيه الموظف برعاية مصالح الأمة من تنفيذ هذا الحكم.

النتيجة: هي أن الحكومة الإسلامية التي تطوي مسيرها من الأعلى - أي حكومة الله - إلى الناس، يمكنها أن تتوافق بصورة كاملة مع موازين الحكومة الشعبية، مع فارق بينهما، وهو أنّ المرشحين لأشغال منصب رئاسة القوة التنفيذية في الحكومة - الإسلامية لابد أن تتوفر فيهم عدة شرائط من الإسلام والإيمان والامانة والتقوى، بخلاف نظام الحكم غير الإسلامي الذي لا إعتبار فيه لهذه الشرائط مطلقاً، وهذا

فارق مهم يفرق بين الحكومة الإلهية عن الحكومة المادية بالرغم من اشتراكهما في شكل الحكومة الشعبية.

كان هذا بالنسبة إلى المسؤول الأول للجهاز التنفيذي، أما بالنسبة إلى المسؤولين الكبار من الدرجة الثانية فما بعد، فيمكن أن تكون مشاركة الشعب في إنتخابهم بصورة مباشرة أو غير مباشرة. مثلاً يمكن للشعب أن يدلي بأصواته للوزراء، أو يتم ذلك عن طريق نوابه في مجلس الشورى الإسلامي، وفي كلا الصورتين يكون لرأي الناس ومشاركتهم دخل في إنتخاب الوزراء، ولكن في هذه المرحلة أيضاً لابد من توفر بعض الشروط كالإسلام والإيمان والأمانة في المتخبين، لأنهم إنتخبوا من أجل إجراء أحكام الإسلام وتحقيق العدالة الإجتماعية ونشر الثقافة الإنسانية والفضائل الأخلاقية، فلو كان فارغاً منها فكيف يمكنه السعي إلى إيجادها ونشرها؟

الركن الثالث

الجهاز القضائي

في

الحكومة الإسلامية

تمهيد:

إن القضاء والتحكيم لحلّ الاختلافات ورفع المشاجرات موجود بين الناس من قديم الأيام. حتى في المجتمعات البدائية كان هناك نوع من التحكيم لحلّ الاختلاف من قبل رئيس القبيلة أو بعض أقربائه أو يتم تعيين شخص لهذا الغرض، وفي الحقيقة أنّه من العسير أن يذكر تاريخ بداية القضاء سوى أن تقول أن عمره يتزامن مع عمر المجتمعات البشرية.

والدليل على ذلك واضح، لأنه كما أننا نعلم بأن حياة الإنسان هي حياة إجتماعية، وبدون شك إن هذا النوع من المعيشة بالرغم من الإيجابيات يعتبر ميدان خصب لنشوء الاختلاف والتضاد، وبعبارة أخرى، إن هذه الحياة الإجتماعية بالرغم من أنها تعتبر منبعاً لمنافع كثيرة وبركات للمجتمعات البشرية وتؤدي إلى التطور المادي والمعنوي، إلا أنها تحتوي أيضاً على نقاط سلبية ومشكلات عديدة، وتتلخص في الصراعات التي تظهر دائماً لدفع التجاوز وإرجاع الحق إلى أهله، فلولا وجود الجهاز القضائي الصحيح لحلّها، تبدلت المجتمعات البشرية إلى ميدان للصراع الدائم والدامي يحرق الأخضر واليابس.

ومن الجدير بالذكر إلى أن هذا الصراع والاختلاف والذي يكون تارة بين اثنين أو أكثر من الأشخاص، وتارة أخرى بين قبيلتين أو دولتين ليس من الضروري أن يكون نابعاً من روح العدوان والأنانية وإتباع الهوى. بل لو فرضنا وجود مجتمع يكون

مصدقاَ تاماً للمدينة الفاضلة، وكان جميع من فيها على أعلى مستويات الإيمان والأخلاق والتقوى والثقافة الإنسانية، فمع ذلك يمكن لأختلاف الأذواق وعدم الإطلاع على جزئيات الحقوق الإجتماعية والقوانين الموضوعة أن تكون سبباً لظهور الخلافات في تشخيص الحقوق الحقّة للأفراد.

على هذا الأساس يكون وجود القوة القضائية على كل الأحوال جزءاً لا يتجزأ عن المجتمعات الإنسانية وبدونها لا يمكن العيش في مختلف السطوح والمستويات الثقافية والفكرية.

ومن البديهي أن القوة القضائية تتوسع وتعمق بموازاة توسع المجتمعات البشرية، لأنه مضافاً إلى زيادة التعداد الكمي وكثرة الصراعات بسبب كثرة الروابط نلاحظ زيادة في كيفية الصراعات وتنوعها، فلو لم تتوسع القوة القضائية بموازاة توسع المجتمع لكان الجانب الإجتماعي مهدداً بالخطر بسبب الاختلافات العميقة والخطرة.

وخلاصة الكلام: أن من الضروري وجود جهاز قضائي مقتدر مع ضمانات كافية لأجراء الأحكام وتعميم العدالة الإجتماعية ومنع الظلم والفساد، ووضع نهاية للصراعات والمنازعات والتنفيذ الصحيح للقوانين، وكذلك الرقابة الدقيقة على الأجهزة التنفيذية، وتعريف المسؤولين في مختلف المراتب بوظائفهم، وبذلك أعطى الدين الإسلامي أهمية بالغة لهذه المسألة ووضع لها المقررات الكثيرة والمتنوعة، لأنه دين الحياة الحقيقية للبشرية بمضمون قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾^(١)

نكتفي بهذه الإشارة ونرجع إلى القرآن الكريم حيث أشار إلى هذا الموضوع في

عدة آيات، منها:

١ - يقول القرآن الكريم مخاطباً النبي الأكرم ﷺ:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً﴾^(١).

٢ - ويقول في موضوع آخر مخاطباً الرسول الأكرم ﷺ بالنسبة إلى التحكيم لغير المسلمين:

﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾^(٢).

٣ - ويقول في مكان آخر مخاطباً جميع المؤمنين:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً﴾^(٣).

٤ - ومن جهة أخرى يوصي المؤمنين بالخضوع والتسليم لحكم النبي ﷺ

وعدم إظهار التبرم لا في الظاهر ولا في الباطن، والقبول بالحق والعدل بالروح والبدن مهما كان الحق مرأً، ويقول:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾^(٤).

٥ - ويقول أيضاً:

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلُ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا

١ - النساء - ١٠٥.

٢ - المائدة - ٤٢.

٣ - النساء - ٥٨.

٤ - النساء - ٦٥.

وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١١﴾.

٦- ويؤكد القرآن الكريم حتى على على مسألة الشهادة في المحاكم والتي هي إحدى المقدمات المهمة في القضاء بالحق والعدالة، ويخاطب جميع المؤمنين قائلاً:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ تَوَمَّ عَلَىٰ أَنْ لَا تَعْدِلُوا إِعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٢).

فعلى هذا الأساس لا يمكن لأي شيء أن يخل بالحق والعدل في المجتمع الإسلامي فالشهادة ينبغي أن تكون عادلة سواء في حق الصديق و العدو، والقضاء يجب أن يدور حول محور العدالة ويكون الأقرب والأبعد بالنسبة إليه على حد سواء.

* * *

من يكون له حق القضاء؟

تمهيد:

كما أن حق الحكومة والحاكمة يعود إلى الله تعالى على أساس أصل «التوحيد الأفعالي» المسلّم به. كذلك حق القضاء أيضاً يعود إلى من له الأذن من الله تعالى. «التوحيد الأفعالي» يقول: إنّ كل الأفعال تعود إلى الله تعالى، و«توحيد الخالقية» يقول: إنّ كل شيء في هذا العالم خُلق منه و«توحيد الحاكمية» الذي هو فرع توحيد الخالقية يقول: إنّ الحكومة لله تعالى خالصة، وهذا هو السبب في كون القضاء في محيط حكومته من إختصاصه تبارك وتعالى ومن يأذن له بذلك.

من جانب آخر يقول توحيد الطاعة: إنّ الأمر المطاع والمقبول إنما هو أمر الله تعالى ومن يعود أمره إلى أمر الله تعالى، فعلى هذا الأساس لابد أن يكون الحكم القضائي المقبول أيضاً بإذن منه تعالى.

لو نظرنا إلى المجتمع البشري من هذه الزاوية فسوف نجد أن مبدأ القضاء واضح جداً، فلا نقع في حيرة في تشخيصه مطلقاً، لأنّ أنظارنا متوجهة إلى نقطة واحدة وهي التي صدر منها الوجود، وإنبعثت منها الخلائق، والأمر النافذ في كل شيء هو أمره، إذن فلا بد أن نسعى كي تكون محاكمنا القضائية خاضعة لأمره ومصطبغة بصبغة إلهية كي نحصل بذلك على مشروعيتها.

نعود بعد هذا التمهيد إلى القرآن الكريم لنكتشف مسألة إنحصار القضاء والتحكيم بالله تعالى:

١ - نقرأ في سورة الأنعام، الآية ٥٧:

﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾.

وقد جاء صدر هذه الآية الشريفة ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ في سورة يوسف الآية ٤٠ كذلك.

ويمكن أن يكون ما جاء في سورة يوسف له مفهوم أوسع بحيث يشمل الحكومة والقضاء، ولكن ما جاء في الآية المذكورة فيه إشارة أقوى إلى القضاء وحل الاختلافات بقريئة ذيل الآية الكريمة، وقد أشار إلى هذا المعنى مجموعة من المفسرين.

أمثال الطبرسي في مجمع البيان والفخر الرازي في التفسير الكبير^(١).

٢ - نقرأ في الآيات ٤٤ و ٤٥ و ٤٧ من سورة المائدة قوله تعالى:

﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ... فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ... فَأُولَئِكَ هُمُ

الْفَاسِقُونَ﴾.

فهم كفّار لأنهم خرجوا عن جادة التوحيد (توحيد الحاكمية)، وظالمون لأنهم ظلموا أنفسهم والآخرين وحرموا من مصالح الأحكام القطعية وغرقوا في دوامة مفسدات الأحكام الجاهلية، وفاسقون لأنهم خرجوا عن دائرة الطاعة، والفسق كما تعلم هو الخروج عن طاعة المولى، وهذه الآيات الشريفة لها مفهوم واسع كذلك بحيث يشمل الفتوى في الأحكام الإلهية، ومسألة القضاء والتحكيم، ومسألة الحكومة أيضاً، فيجب أن تكون في كل من الأبعاد الثلاثة موافقة ومطابقة لحكم الله تعالى (لاحظ جيداً).

٣ - القرآن الكريم وفي الآية ٦٠ من سورة النساء يعتبر كل حكم غير إلهي حكم

طاغوت، وإتباعه يمثل السير على خطى الشيطان، فيقول:

﴿الَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾.

٤ - القرآن الكريم يعتبر أيضاً الأحكام التي تصدر عن مبدأ غير إلهي أحكام جاهلية، ويعبر عن الأشخاص الذين يريدون أحكاماً غير إلهية (كبعض اليهود الذين اختلفوا فيما بينهم فجاؤوا إلى النبي ﷺ وكانوا يريدون منه أن يصدر حكماً مطابقاً لرغبتهم) بقوله:

﴿أَفَحُكْمُ الْجَاهِلِيَّةِ يَنْفَعُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾^(١).

٥ - يقول القرآن الكريم في مكان آخر معلماً للنبي الكريم ﷺ بأن يقول:

﴿أَفَغَيْرَ حُكْمِ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾^(٢).

٦ - ويأمرنا القرآن الكريم بحل اختلافاتنا بواسطة تحكيم الله تعالى، بقوله:

﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾^(٣).

* * *

يستفاد من مجموع هذه الآيات وآيات أخرى بصورة واضحة أن نظرية القرآن في هذا الموضوع أن الحاكم والقاضي هو الله تعالى، وكذلك من جعله الله تعالى قاضياً وحاكماً من قبله، وما سوى ذلك فهو حكم الشيطان والطاغوت والجاهلية.

١ - المائدة - ٥.

٢ - الأنعام - ١١٤.

٣ - الشورى - ١٠.

وعلى هذا لابد في سلسلة مراتب القضاة في الحكومة الإسلامية أن تنتهي إلى أمر وإذن الله تعالى وتكتسب المشروعية منه، فالرسول الكريم ﷺ قد حصل على هذا المنصب من الله تعالى، والأئمة المعصومون عليهم السلام أيضاً قد إنتخبوا لهذا المقام من قبل الله تعالى وبواسطة النبي ﷺ، والقضاة الإسلاميون يكتسبون مشروعتهم من الأئمة عليهم السلام.

وقد بين القرآن الكريم هذا المعنى بوضوح في الآية ٢٠ من سورة المؤمن بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا تَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾. إذاً فقضاء الله تعالى وأوليائه هو المقبول والصحيح، لا التحكيم الجاهلي وغير الإلهي.

وهذا المعنى أيضاً ورد بصراحة أكثر في الروايات الإسلامية في أبواب القضاء منها: *

١ - ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قوله:

«اتَّقُوا الْحُكُومَةَ فَإِنَّ الْحُكُومَةَ إِنَّمَا هِيَ لِإِمَامِ الْعَالِمِ بِالْقَضَاءِ الْعَادِلِ فِي الْمُسْلِمِينَ، لَنَبِيِّ أَوْ وَصِيِّ نَبِيِّ»^(١).

٢ - وفي حديث آخر ورد عن الإمام الصادق عليه السلام بأن الإمام علي عليه السلام قال لشرح القاضي:

«يَا شَرِيحُ قَدْ جَلَسْتَ مَجْلِساً لَا يَجْلِسُهُ إِلَّا نَبِيٌّ، أَوْ وَصِي نَبِيٍّ أَوْ شَقِي»^(٢).

٣ - وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً أنه قال:

١ - وسائل الشيعة، المجلد ١٨، أبواب صفات القاضي، باب ٣، ح ٣.

٢ - وسائل الشيعة، المجلد ١٨، أبواب صفات القاضي، باب ٣، ح ٢.

«وَالْحُكْمُ لَا يَصِحُّ إِلَّا بِإِذْنِ مِنَ اللَّهِ وَبُرْهَانِهِ»^(١).

* * *

وهكذا نجد أن الأدلة العقلية الناضرة إلى التوحيد إلفعالى وتوحيد الحاكمة والمالكية تثبت إشتراط القضاء بالأذن الإلهى؁ وكذلك الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة الواردة فى هذا المجال؁ وما يقال أن المجتهد الجامع للشرائط (الولى الفقيه) له ثلاثة مناصب: منصب الإفتاء؁ ومنصب القضاء؁ ومنصب الولاية؁ فهوناظر إلى هذا المعنى.

والآن نبحث صفات القاضي فى الإسلام؁ وكذلك آداب القضاء؁ والفرق بين القضاء فى الإسلام والقضاء فى الثقافة الغربية ومسائل أخرى فى هذا الباب.

* * *

١ - مصباح الشريعة ص ١٤١ (ان إعتبار هذا الكتاب مشكوك عند العلماء؁ وخاص وأن مؤلفه لم يُعرف لحد الآن).

صفات القاضي

ذُكرت في المصادر الاسلامية شرائط ثقيلة للقاضي لعلنا لا نجد لها في أي مدرسة ومذهب آخرين، وأن اختلف في عددها علماء الاسلام وفقهاء الشيعة والسنة.

ولمّا لم يكن هذا الكتاب كتاباً فقهياً أستاذالياً، فسنشير فقط الى المجمع عليه منها عند فقهاءنا، ثم نستعرض استعراضاً خاطفاً تلك الشرائط التي وقعت محل بحث ونقاش بين العلماء والتي اعتبر البعض اشتراطها والبعض الآخر كونها أموراً كمالية في القاضي.

أما الشرائط المتفق عليها بين فقهاءنا، وكما عبّر عنها الفقيه الماهر صاحب الجواهر رضوان الله عليه - «لا خلاف أجده في شيء منها»، وكما عدّها المرحوم الشهيد الثاني من موارد الاتفاق، فهي سبعة:

١ - البلوغ، فلا يقبل قضاء الصبي الذي لم يبلغ، ولا حكومته حتى لو كان يتمتع بدرجة عالية من التقوى والعلم والاطلاع، لأن غير البالغين غير مكلفين بالاحكام الالهية، ولذا فهم خارجون عن دائرة القوانين والوامر الاسلامية، وبهذا الدليل لا يعتمد على قضائهم وحكومتهم.

٢ - كمال العقل: فلا يحق للمجنون ولا لناقص العقل ومن يفقد التعادل الروحي، أن يجلس على مسند القضاء، ودليله واضح.

٣- الاسلام والايمان: فلا تقبل حكومة الخارج عن زمرة المسلمين ومن لم يعتقد بمباني مذهب أهل البيت عليهم السلام ودليله واضح أيضاً.

٤ - العدالة: وهي مرحلة عالية من التقوى تمنع صاحبها من ارتكاب الكبائر والاصرار على الصغائر، والحق أن من لا يتمتع بمثل هذه الدرجة من التقوى، لا يتوقع أن يقضي قضاءً صحيحاً.

٥ - العلم و الإطلاع على قوانين الإلهية: في موارد حقوق الناس والحدود والديات والقصاص والمعاملات، وكذلك مقررات العدالة الاسلامية. فهل ينفذ حكم من يفقد مثل هذا الشرط (الاجتهاد المطلق أو على الاقل المتجزىء) أو غير المجتهد المطلع على كل المسائل الحقوقية ومقررات العدالة الاسلامية؟ فيه بحث ونقاش بين العلماء والفقهاء، وإن كان المشهور بينهم اعتبار الاجتهاد، حتى أن بعضهم اشترط أعلميته على كل علماء مدينته، ولكن ضعيف.

وعلى كل حال، فانه في حالة عدم الحصول على العدد اللازم من المجتهدين - المجتهد المطلق - فلا مناص من الاعتماد على غير المجتهدين، ولكن المطلعين منهم على كل المسائل عن طريق التقليد.

٦ - طهارة المولد: وبعبارة أخرى ولد الحلال، لأن ولد الحرام وإن لم يكن له ذنب في كونه ولد حرام، إلا أنه غير مقبول في المجتمع الاسلامي، فلا تكون كلمته نافذة، ولا شك في ضرورة نفوذ كلمة القاضي وقبولها - مضافاً الى ذلك، فان احتمال الانحراف والذنب في مثل هذا الانسان أكثر من احتمالهما في غيره وإن لم يكن مجبوراً على الذنب والانحراف، (لاحظوا ذلك بدقة).

٧ - الذكورة: المشهور والمعروف بين علماء الاسلام أن القاضي لا بد أن يكون

رجلاً، وأن خالف وترددَ بعض فقهاء العامة كابني حنيفة في هذا الحكم^(١).
ومن الواضح أن سيطرة العواطف والاحاسيس عند المرأة لايسمحان لها القيام
بوظيفة خشنة كمسألة القضاء والحكومة، مضافاً الى أن هذا الموضوع مورد اتفاق
 واجماع علماء الشيعة.

وهنا ثلاثة شروط وقع البحث في شرطيتها بين العلماء:

٨ - الحرّية (وعليه لا يمكن أن يكون العبد قاضياً) ولكن الكثيرين لم يقبلوا هذا
الشرط.

٩ - البصر.

١٠ - السمع.

والواقع، لا يوجد اي دليل على اشتراط هذه الثلاثة، وعليه فلا فرق في صلاحية
القضاء عند الحرو والعبد (ومن حسن الحظ أن موضوع الرقيّة منتفٍ في زماننا).
واما في خصوص السمع والبصر، فإن لم يكن القضاء في الموارد التي يحتاج فيها
الى إبصار أو الى السمع، مثلاً كان القاضي أعمى ولكن كان بإمكانه الاستماع والقضاء
بدقّة، او كان اصماً ولكن كان بإمكانه النظر وقراءة ملف الدعوى والقضاء بشكل
صحيح، فلا مانع من حكومته، وإن كان الاغلب هو أن الاعمى أو الاصم لا يمتلك
القدرة الكافية للقضاء في كل الموارد، وعليه تكون رعاية هذين الشرطين واجبة غالباً
من باب المقدمة.

وما ذكرنا هنا من الشرائط السبعة ولزومها، وعدم لزوم الشرائط الثلاثة الاخيرة،
كان في الواقع بنحو الاشارة، وأمّا تفصيل الكلام في ذلك فموكول الى الكتب

١ - نقل عن ابي حنيفة قبول قضاء المرأة في الاموال، ولكن حكي عن الطبري جواز ذلك
بقول مطلق. (بداية المجتهد، ج ٢، ص ٤٦٠، كتاب الاقضية).

الاستدلالية الفقهية^(١).

الشرائط الكمالية:

مضافاً الى الشرائط العشرة الانفة، قلنا في البحث السابق أن هناك شرائطاً وصفاتاً اخرى اعتبرت في الروايات الاسلامية للقاضي والتي لا بدّ من عدّها من شرائط الكمال، وقد وردت اشارة الى القسم المهمّ منها في عهد امير المؤمنين عليه السلام الى مالك الاشر (في ضمن الشرائط الواجبة)، وهي:

- ١ - ﴿ثُمَّ اخْتَرُ لِلْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ أَفْضَلَ رَعِيَّتِكَ فِي نَفْسِكَ﴾.
- ٢ - ﴿يَمْنٌ لَا تَضِيقُ بِهِ الْأُمُورُ﴾.
- ٣ - ﴿وَلَا تَمَحْكُهُ الْحُصُومُ﴾، سعة الصدر.
- ٤ - ﴿وَلَا يَتَادَى فِي الزَّلَّةِ﴾، عدم اللجاجة.
- ٥ - ﴿وَلَا يَحْضَرُ مِنَ الْفِيءِ إِلَى الْحَقِّ إِذَا عَرَفَهُ﴾، التسليم للحق.
- ٦ - ﴿وَلَا تُشْرِفَ نَفْسُهُ عَلَى طَمَعٍ﴾.
- ٧ - ﴿وَلَا يَكْتَفِي بِأَذْنَى فَهْمٍ دُونَ أَقْصَاهُ﴾، عدم الاكتفاء بالتحقيق السطحي.
- ٨ - ﴿وَأَوْقَفَهُمْ فِي الشُّبُهَاتِ﴾.
- ٩ - ﴿وَأَخَذَهُمْ بِالْحُجَجِ﴾.
- ١٠ - ﴿وَأَقْلَهُمْ تَبَرُّماً بِمِرَاجَعَةِ الْخُصْمِ﴾.
- ١١ - ﴿وَأَضْبَرَهُمْ عَلَى تَكْشُفِ الْأُمُورِ﴾.
- ١٢ - ﴿وَأَصْرَمَهُمْ عِنْدَ إِتْضَاحِ الْحُكْمِ﴾.
- ١٣ - ﴿يَمْنٌ لَا يَزِدُّهُ إِطْرَاءٌ وَلَا يَسْتَمِيلُهُ إِغْرَاءٌ﴾.

١٤ - ﴿وَأَنْسَخْ لَهُ فِي الْبَدْلِ مَا يُزِيلُ عِلَّتَهُ وَتَقِلَّ مَعَهُ حَاجَتُهُ إِلَى النَّاسِ﴾^(١)، ينبغي أن يكون مكتفياً من بيت المال .

ومضافاً إلى ذلك فقد وردت بعض الارشادات في الروايات الاسلامية في القاضي والتي يمكن عدّها من جهة ما، شرائط كمالية منها: عدم قبول دعوة الناس إلى طعام، عدم قبول الهدية وأن لا يذهب بنفسه للسوق لشراء حوائجه، وأن لا يدعوا احد طرفي الدعوى إلى ضيافته، والورع عن كل الامور التي قد تؤدي إلى تأثير الناس في حكمه وتغيير قناعاته فيحكم بغير الحق عالماً أو جاهلاً.



القرآن وصفات القاضي:

لم ترد الصفات والشرائط بشكل مفصل ومبسوط في القرآن الكريم، ولكن وردت تعبيرات جمعت فيها عمدة الشرائط المذكورة اعلاه.

١ - ففي موضع نجد القرآن الكريم يعتبر أن اتباع الهدى يمنع من الحكم بالعدل. حيث يقول تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾^(٢).

٢ - ونفس هذا المعنى جاء بشكل آخر في قصه حكومة وقضاء داود، حيث خوطب داود بقوله تعالى:

١ - عهد الامام علي عليه السلام لمالك الاشتر، نهج البلاغة.

٢ - النساء - ١٣٥.

﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(١).

وبذلك يعتبر القرآن أن الورع عن «أُمِّ المفسد» - وهو اتباع هوى النفس - ، أحد شروط الاساسية للحكومة بالحق، والنقطة المقابلة لها، هي الدرجة العالية من التقوى والمانعة من الانحراف عن مسير العدالة والحق، الى درجة أن أقوى العواطف الانسانية كالعلاقات العائلية لا تستطيع أن تؤثر سلباً في تلك التقوى.

٣ - وفي موضع آخر من القرآن - نجد أنه يعتبر الحكم بما انزل الله من شروط الايمان والعدالة^(٢)، ويؤكد على نبي الاسلام ﷺ أن يكون حكمه مطابقاً لما علمه الله ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾^(٣).

٤ - وفي موضع آخر نجد القرآن الكريم يُحذّر النبي ﷺ من اتباع أهواء الناس، فيقول: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾^(٤).

٥ - كما ويحذره من أن تؤثر العداءات الشخصية في القاضي فيحكم بغير عدل، بل لابد أن يكون الحكم والشهادة مطابقين دائماً للعدل والحق، سواء كانا في حق الصديق أو كانا في حق العدو، يقول تعالى في سورة المائدة: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَتَانُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَنْ لَا تَعْدِلُوا، إِعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾.

١ - ص - ٢٦.

٢ - المائدة، ٤٤، ٤٥، ٤٧.

٣ - النساء - ١٠٥.

٤ - المائدة - ٤٩.

النتيجة:

من خلال الايات المذكورة والروايات الاسلامية وفتاوى كبار الفقهاء في الصفات اللازمة للقضاء والشهادة، وكذلك الصفات الكمالية في القاضي، يمكن استفادة هذه النتيجة وهي أن الاسلام اعتنى عناية خاصة بهذه المسألة، وتابع بدقة فائقة مسألة العدالة القضائية، والزم معتقديه بها بشكل يمنع عن أي درجة من الانحراف عن الحق والعدالة في القاضي مهما كانت قليلة حتى أنه أهتم بأصغر الامور التي قد تؤثر في عدالة حكم القاضي وتحرفه عن الحق، وحذر منها.

وحتى ما اصفنا الشرائط الآتية في الفصل اللاحق حول «آداب القضاء» سيتضح لنا أكثر فاكتر اهتمام الاسلام بهذا الأمر بشكل تتصاغر معه شعارات العدالة التي ترفعها المدارس الاخرى.



آداب القضاء في الاسلام:

المسألة المهمة هي أن الاديان الالهية قد تقدمت على المدارس المادية بخطوات كثيرة في مجالات القضاء والحكومة والتواعد التي تقتضيها المجالس القضائية، بل لا يمكن المقايسة بينهما في هذا المجال، وما ذاك إلا من أجل الاسس الاخلاقية القوية التي تمتلكها الاديان الالهية في تلك المجالات.

ففي هذه الاحكام نجد لطائف ودقائق كثيرة، وعلى الرغم من أن بعضها مرتبط بالزمان السابق وقد لا يكون له اليوم مورد، ولكنها من وجهة النظر الاصولية تمتاز بمفهوم قيّم بالنسبة للمسائل القضائية.

ويكفي للاستشهاد على ذلك ما جاء على لسان «المحقق» في الشرائع في بحث آداب القضاء والذي يعتبر في الواقع عصارة ما ورد في الروايات الإسلامية وكلمات الفقهاء.

يقول: يستحب للقاضي رعاية عدة أمور:

١- إن يطلب من أهل ولايته من يسأله عما يحتاج اليه في أمور بلده (أي يتعرف على عادات الناس وأوضاعهم الاقتصادية، وأن يتعرف على العلماء والصالحين وحتى القضاء السابقين ليحصل على بصيرة كافية في عمله، إذ أن الاطلاع بأوضاع المنطقة والمحل والثقافة الحاكمة على الناس، له تأثير بالغ في مسألة القضاء والحكومة العادلة).

٢- أن يسكن عند وصوله في وسط البلد حتى ترد الخصوم عليه وروداً متساوياً.

٣- وأن يُنادى بقدومه إن كان البلد واسعاً لا ينتشر خبره فيه إلا بالنداء.

٤- أن يجلس للقضاء في موضع بارز، مثل رحبة أو فضاء ليسهل الوصول اليه (لا خلف الابواب المغلقة محاصراً بالحرس).

٥- أن يبدأ بأخذ ما في الحاكم المعزول من حجج الناس وودائعهم، لأن نظر الاول سقط بولايته. (وقد كانت العادة في تلك الازمنة أن يودع الناس وودائعهم عند الحاكم، وكذا الاموال المتنازع فيها).

٦- لو حكم في المسجد، صلى عند دخوله تحية المسجد، ثم يجلس مستدبر القبلة ليكون وجوه الخصوم اليها (ليستشعر الخصوم أنهم في محضر الله).

٧- ويسأل عن أهل السجون، ويثبت أسماءهم وينادي في البلد بذلك ليحضر الخصوم ويجعل لذلك وقتاً فإذا اجتمعوا أخرج أسم واحد واحد، ويسأله عن موجب حبسه، وعرض قوله على خصمه، فإن ثبت محبسه موجب أعاده، وإلا اشاع

حاله بحيث إن لم يظهر له خصم أطلقه.

وكذا يسأل عن الاوصياء على الايتام، وأمناء الحاكم، والحافظين لأموال الايتام (الذين يليهم الحاكم) فيعزل الخائن ويُسعد الضعيف بمشارك، ويستبدل به بحسب ما يقتضيه رأيه.

٨ - أن يحضر من أهل العلم من يشهد حكمه، فإن أخطأ نبهوه.

٩ - أن لا يتولى البيع والشراء بنفسه (حذراً من مراعاة الناس لحاله فيبيعونه بأقل من القيمة السوقية، فيتأثر بذلك).

١٠ - أن لا يقطب وجهه في مجلس القضاء، فيخاف الناس من بيان مطالبهم بصراحة، وأن لا يكون لينا فيتجراً الخصوم.

١١ - أن لا يرتب للشهادة قوماً دون غيرهم لأستواء العدول في موجب القبول.

١٢ - أن يجمع الدعاوى المقدمة في كل اسبوع مرة، ويرتبها ويحفظها، وكذا ينظم الدعاوى المقدمة في كل شهر وكل سنة، فينظمها بتواريخها (أو يصدر أوامره بهذا الصدد).

ويقول هذا الفقيه البارع في بحث وظائف القاضي وما يلزم عليه مراعاته:

في وظائف القاضي وهي سبع:

١ - التسوية بين الخصمين في السلام والجلوس والنظر والكلام والانصات والعدل في الحكم، (بمعنى أنه اذا سلّم على احدهما سلاماً مميزاً بالاحترام فعليه أن يسلم على الآخر بنفس الكيفية، وكذا في رد السلام بلا أن تؤثر فيه العلاقات الاجتماعية والمقامات الاجتماعية، واذا نظر الى احدهما بلحظات معينة فعليه أن ينظر للآخر بنفس الكيفية وحتى إذا استمع الى كلام احدهما بدقة فعليه أن يستمع

لكلام الآخر بنفس الدقة، والحاصل أن عليه مراعاة المساواة الكاملة في مجلس القضاء والحكومة في كل الجوانب حتى التشريفات والاحترامات الجزئية، وما ذاك إلا للحدّ من الانحراف الكلي الكبير).

٢ - لا يجوز له أن يُلقّن أحد الخصمين مافيه حذر على خصمه ولا أن يهديه لوجوه الإحتجاج.

٣ - إذا سكت الخصمان، استحبّ أن يقول لهما تكلّما، أو ليتكلم المدعي.

٤ - إذا ترفع الخصمان وكان الحكم واضحاً، لزمه القضاء، ويستحب له ترغيبهما في الصلح، فإن أبيا إلا المناجزة، حكم بينهما.

٥ - إذا ورد الخصوم مترتبين، بدء بالأول فالأول، فإن وردوا جميعاً، قرع بينهم.

٦ - إذا قطع المدّعي عليه دعوى المدّعي بدعوى، لم تسمع حتى يجيب عن الدعوى وينهي الحكومة ثم يستأنف.

٧ - إذا بدر أحد الخصمين بالدعوى فهو أولى^(١).

ونكرر هنا بان البحث الجامع والمستدل حول هذه المسائل موكول إلى كتب الفقه الاستدلالية ومصادر الحديث المعروفة، وما ذكرناه هنا عبارة ما جاء في تلك الكتب ليتضح النظام الحاكم على المؤسسات القضائية الاسلامية، والفرق بينه وبين سائر المدارس الوضعية.

والنقطة الاخرى المهمة هنا هي أن الروايات الاسلامية أوصت القاضي بأن لا يجلس مجلس القضاء حال الغضب^(٢).

كما ينبغي عليه أن لا يقضي بين الناس وهو عطشان أو جائع أو حال النعاس (اذ

١ - جواهر الكلام - ج ٤٠، ص ١٣٩ - ١٤٩.

٢ - وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ١٥٦.

قد تؤثر تلك الامور في حكومته سلباً^(١).

تفاوت كيفية القضاء في الاسلام عن المدارس المادية:

توجد اليوم في العالم مجالس قضائية كثيرة وهي جذابة بظاهرها ولكن متى ما قايستنا محتوى تلك المجالس القضائية الى المجالس القضائية الاسلامية، نجد بأن تلك المجالس المادية خاوية وسخيفة وخاصة نجد هذه التفاوتات ادناه واضحة فيها:

١ - ينبغي على القاضي الاسلامي أن يكون صاحب نظر ورأي، ولا يجمد على مواد القانون فقط، بل لابد أن يكون عارفاً بجذورها ومبانيها، مجتهداً فيها، وبعبارة أخرى الاجتهاد في القضاء شرط من شروطه، بينما لا نجد مثل هذا الاشتراط في دنيا اليوم ومجالسها القضائية حتى يكتفي بمعرفة مواد القانون فقط والجمود على تلك الموارد. وهذا فرق واضح بين هذه المجالس والمجالس القضائية الاسلامية.

وبتعبير أوضح، أن الاطلاع على الاحكام التي جاءت في تحرير الوسيلة (مثلاً) قد يكون عند طريق التقليد وقد يكون عن طريق الاجتهاد، وإن كانت وظيفة القاضي على أي حال تطبيق هذه الاحكام في موارد الدعوى وتشخيص صاحب الحق عن غيره، ولكن هناك فرق واضح بين ما اذا كان مطلعاً على أحكام تحرير الوسيلة عن طريق التقليد، وبينما اذا كانت ذلك بالاجتهاد وتتبع جذور تلك الاحكام ومبانيها من الكتاب والسنة والاجماع والعقل، فالاسلام يورحي بالطريق الثاني.

٢ - في النظم القضائية الحديثة، يُكتفى بلباقة القاضي في حدود القضاء والحكومة فقط، أما في الاسلام فان هذا المقدار غير كافٍ، بل لابد أن يكون القاضي نزيهاً في كل المجالات، اذ أن العدالة تعني الورع عن كل أنواع الذنب سواء كان في

دائرة المسائل التضائية، أم في دائرة غير التضاء.

ومن الواضح أن هناك فرق كبير بين من يكون ورعاً في كل المجالات عن الذنب وبين من يكون ورعاً في مجال معين ودائرة ضيقة، فاحتمال انحراف الثاني أكثر من احتمال انحراف الأول.

٣- اذا قضى قاضي المجالس القضائية الحديثة بالحق دون أن يكون مطلعاً، فانه لا يكون مسئولاً، بينما وكما اشرنا أنفاً فان مثل هذا القاضي مسئول أمام الله في نظر الاسلام، فالوصول الى الحق لا يكفي وحده لعدم تحمل المسؤولية، بل لابد أن يكون عن تحقيق وإطلاع.

٤- يعتبر الارتشاء في نظام القضاء الاسلامي ليس فقط من الذنوب الكبيرة، بل طبقاً لبعض الروايات فانه في حد الكفر والشرك، قال الامام الصادق عليه السلام: (أَمَّا الرُّشَا فِي الْحُكْمِ فَهُوَ الْكُفْرُ بِاللَّهِ) (١).

فالاسلام يمنع القاضي حتى من قبول الهدية (بطبيعة الحال الهدايا التي تقدم له باعتبار مقام القضاء، سواء قبل الحكومة والقضاء أم بعده) وقصة الاشعث بن قيس معروفة، حيث جاء ليلاً بهدية الى دار الإمام علي عليه السلام وهي طبق من الحلوى اللذيذة، فقال له الامام علي عليه السلام ما هذا؟

فقال: هدية جئت بها اليك! فغضب الامام عليه السلام وصاح به:

«هَبْلَتِكَ الْهَبُولُ أَعَنْ دِينَ اللَّهِ أَتَيْتَنِي لِتَخْدَعَنِي»؟!

أي تريد أن تعطيني الرشوة باسم الهدية (٢).

والملفت للنظر هو أن الاسلام يلعن الراشي والمرتشي والواسطة بينهما، وقد ورد

١ - وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ١٦٣، باب تحريم الرشوة، الحديث ٨.

٢ - نهج البلاغة، الخطبة ٢٤٤.

في حديث عن النبي الأكرم ﷺ: لَعَنَ اللَّهُ «الرَّاشِي» و «الْمُرْتَشِي» و «الرَّائِشَ الَّذِي بَيْنَهُمَا»^(١).

وقد وردت آيات من القرآن الكريم تشير إلى مسألة الرشوة وتذم عليها، منها قوله تعالى في سورة البقرة الآية ١٨٨:

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

وللفخر الرازي هنا تعبير جميل وهو أن «الادلء» مأخوذ من «الدلو» وهو الاناء الذي يستخرج الماء من البئر بواسطة، «والرشاء» بمعنى «الحبل» فكما أن الانسان يستخرج الماء الموجود في الدلو بالحبل، فكذلك الراشي يأكل اموال الناس بواسطة الرشوة التي يعطيها للقاضي.

نعم، فالتعبير «ولا تدلوا بها إلى الحاكم» تشبيه وإشارة لطيفة لهذا الموضوع. ويستفاد أيضاً من الآية (٤٤) في سورة (المائدة) بأن علماء اليهود حرّفوا الاحكام الالهية لمنافعهم الخاصة، وهذه المسألة وقعت مورد ذم القرآن الكريم حين يقول تعالى:

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾.

فمن هذه الايات يمكن الاستنتاج بأن القضاء والحكومة لله بالدرجة الاولى، ومن ثم نقلت منه إلى من يرى فيه المصلحة، وبتعبير آخر:

إن غير الله يأخذ مشروعية أحكامه وقضائه من الله تعالى، وهذا ما يقتضيه التوحيد الافعالي وحاكمية الله أيضاً.

* * *

الحدود والتعزيرات في الاسلام

وفي ذيل البحث عن المؤسسة القضائية في الاسلام، لابد من الاشارة السريعة الى مسألة «الحدود والتعزيرات» (وتفصيل ذلك موكول الى كتاب أو كتب مستقلة) وهذا البحث في الحقيقة مكمل لأبحاث القضاء في الاسلام، لأن وظيفة القاضي هي «احقاق الحقوق» و «اجراء الحدود» ليردع المجرمين، ويحذر المنحرفين والملوثين بالاجرام، وهنا عدة مواضيع لابد من التنبيه عليها.

١ - فلسفة الحدود والتعزيرات في الاسلام:

لاشك في أن تشريع الاحكام الالهية انما هو من أجل دعوة الناس الى القسط والعدل، وهداية المجتمع الى طرق الأمن والامان، ليتمكن الناس من كسب الفضائل والتخلص من الرذائل، والسير الى الله ومقام القرب الالهي والذي هو أعلى مقصد للخلق.

ولما لم تكن الاحكام الالهية بمفردها مؤثرة في كل النفوس، كان من اللازم أن تقترن بالانذار والتبشير لتحرك الناس نحوها وادائها.

ولما لم تكن الانذارات والبشارات الاخروية كافية لردع بعض الناس من ارتكاب المخالفات وداعية لقيامهم بالواجبات والوظائف الفردية والاجتماعية، كان من اللازم تعيين مجازات دنيوية لأولئك الذين يتجاوزن الحدود الالهية، ويسحقون الحق

والعدالة باقدامهم. لتكون تلك المجازات ضامناً لاجراء هذه الاحكام بين أولئك الذين لم يتربوا تربية دينية كافية والذين يفتقدون التقوى الالهية.

ولاشك في أن النظام الاسلامي يختلف في هذا المضممار عن النظم المادية، اذ لا يوجد في تلك النظم اي ضامن اجرائي غير تلك المجازات الدنيوية والمادية، ولذا فان كل حكم فاقد لمعاقبة المتخلف لا يعد في نظر تلك النظم قانوناً وحكماً، وانما يعتبر في نظرهم توصية اخلاقية فحسب.

وأما في النظم الالهية، فان الاعتقادات القلبية، والتعهدات المعنوية والايمان بمحكمة العدل الالهي العظيمة يوم القيامة والاعتقاد بمراقبة الله في الدنيا، كل ذلك يعتبر أحد الدواعي المهمة وضامناً اجرائياً قوياً، ولكن لما لم يكن ذلك الداعي موثراً في كل النفوس لوحدة، كان من الضروري أن يكون الى جنبه ضامناً اجرائياً مادياً، وعقوبة دنيوية.

واهتمام الشارع المقدس باجراء الحدود والمجازات ضد المتخلفين وصل الى حد بحيث ورد في الروايات المتعددة:

«حد يُقام في الارض أزكى من مطر اربعين ليلة وايامها».

وهذا الحديث مروي عن رسول الله ﷺ وعن الامام الباقر عليه السلام والامام الصادق عليه السلام أيضاً، وفي بعض المتون وردت كلمة «أفضل» أو «انفع» بدلاً عن كلمة «ازكى»^(١).

ونقرأ في حديث عن الامام السابع موسى بن جعفر عليه السلام في تفسير قوله تعالى ﴿يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ قال عليه السلام: «لَيْسَ يَحْيِيهَا بِالْقَطْرِ وَلَكِنْ يَنْعَثُ اللَّهُ رَجَالاً فَيُحْيُونَ الْعَدْلَ فَتُحْيِي الْأَرْضَ لِأَحْيَاءِ الْعَدْلِ ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَلَا قَامَةُ الْحَدِّ فِيهِ أَنْفَعُ فِي

الأرض من القطر أربعين صباحاً».

وكيف لا يكون اجراء الحدّ «أنفع» و «أفضل» و «أزكى» من قطر أربعين صباحاً، وسلامة وامن المجتمع انما هي في ذلك الأصل، وأن جذور كل خير وبركة في اجراء الحدود، اذ أن الاحكام المباركة التي تجلب الخير والنعمة والمنافع الاقتصادية لا تفيد بلا وجود أمن وأمان في المجتمع، كما أن أمن المجتمع لا يحصل بدون اجراء الحدود واحقاق الحق، ولولا ذاك لعمّ الفساد والظلم المجتمع وقتل الناس بعضهم بعضاً وخربت المدن واستضعف عباد الله، ولهذا فان أول ما طلبه ابراهيم الخليل عليه السلام من ربه عندما بنى الكعبة، هو أن يجعل ذلك البيت آمناً فقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾^(١) وبذلك طلب نعمة الأمن قبل الامور اليومية الاخرى، لأنه كان يعلم أن فقدان الأمن يمنع من الاستفادة من المواهب الاخرى.

٢ - معنى الحدّ والتعزير:

«الحدود» جمع «حدّ» وهي لغة بمعنى «المنع»، وانتخاب هذه الاسم لقسم من المجازات الشرعية هو أنها تمنع الناس من ارتكاب بعض المخالفات القانونية الشرعية. وهي في الاصطلاح الشرعي في عبارات الفقهاء، مجازات خاصة تجرى في حق المكلفين لارتكابهم بعض الذنوب.

وأما «التعزير» في اللغة فهو بمعنى «التأديب» وقد يأتي احياناً بمعنى «التعظيم» أو «النصرة» و «المنع»، وفي الاصطلاح بمعنى المجازات والاهانة، حيث لم يرد فيها مقدار معين في الشرع وإنما أوكلت الى نظر القاضي، فهو الذي يحدد مقدار

ونوع التعزير طبقاً «لميزان الجرم» الذي يرتكبه المذنب و «مقدار تحمله».
وعلى هذا فالفارق بين «الحد» و «التعزير» هو أن مقدار الاول ثابت ومحدد، وأما
التعزير فهو في الاغلب غير معين، وقلنا في الأغلب لأن بعض التعزيرات ورد فيها
مقدار معين في الروايات الاسلامية، وتفصيل ذلك في كتاب الحدود، ومع ذلك وقع
الخلاف في أن تعيين المقدار في تلك التعزيرات هل هو قطعي معين ام أنه مذكور
من باب المثال والمصداق؟

ويوجد بعض الفوارق الاخرى بين الحد والتعزير، حتى عدَّ الشهيد في كتاب
«القواعد» عشرة وجوه للاختلاف بينهما ولا مجال هنا لتفصيل الكلام فيها^(١).

٣ - تعداد الحدود الاسلامية:

ورد في الاسلام عشرة حدود اساسية لعشرة ذنوب كبيرة، وذكرت اربعة منها في
القرآن المجيد صريحة، واستفيدت الستة الباقية من السنة الشريفة.

١ - حدُّ الزنا:

قال تعالى في سورة «النور» الآية ٢:

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدُ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ففي الآية اشارة الى حد زنا المرأة والرجل، ولم يرد فيها «الاستثناءات» و
«الجزئيات» الاخرى مثل أحكام زنا المحصن والمحصنة والزنا بالمحارم والامور
الاخرى من هذا القبيل والتي بينتها السنة والروايات الاسلامية بشكل مفصل.

٢ - حدُّ السرقة:

جاء في الآية «٢٨» من سورة «المائدة»:

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.
ويوجد في هذا المورد ايضاً بعض الشرائط والخصوصيات في قطع يد السارق وبعض الاستثناءات التي وردت في السنّة والروايات الاسلامية، ونحن نعلم بان القرآن الكريم يذكر غالباً أصول المسائل فقط ويترك التفصيل والشرح للسنّة.

٣ - حدُّ القذف:

ورد في الآية «٤» من سورة «النور» فيما يرتبط بنسبة الاعمال المخالفة للعفة للأشخاص المنزهين عنها، ما يلي:

﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءٍ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

فهذه المجازات الثلاثية للقاذف، ذكرت لتطهير المحيط الاجتماعي وحفظ احترام وكرامة الناس، وللحد من اشاعة الفحشاء والفساد، كما أن هناك بعض الشرائط والخصوصيات والاستثناءات ذكرت في الروايات الاسلامية.

٤ - حدُّ المحارب:

وردت في القرآن المجيد مجازات ثقيلة لأولئك الذين يحاولون الاخلال بأمن المجتمع، وأولئك الذين يتعرضون بالاسلحة لانفس واموال وأعراض الناس، وهذه الشدّة والصرامة في المجازات إنّما هي لردع الشرورين، يقول تعالى في سورة المائدة الآية «٣٣».

﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

والمتصود من المحارب، وكما اشرنا أيضاً، هو الشخص الذي يجعل السلاح ويتعرض لاموال الناس وأعراضهم وانفسهم بالسلاح، أعم من أن يكون من قطاع الطرق أو من أهل المدن ويشمل الأشقياء الذين يتعرضون للناس بالسكين والاسلحة الباردة فيتجاوزن على انفس الناس واموالهم ونواميسهم، والملفت للنظر أن القرآن عدَّ هؤلاء من المحاربين لله ولرسوله ﷺ وهذا دليل على اهتمام الاسلام الفائق بالحریات والامن الاجتماعي وحقوق الناس.

وهناك كلام بين الفقهاء والمفسرين في أن هذه الانواع الاربعة من الحدود المذكورة في المحارب، هل هي على التخيير وبامكان القاضي أن ينتخب ايها شاء، أم أنها معينة ولكنها تختلف باختلاف الجناية التي يرتكبها المحارب؟ فمثلاً المحارب الذي يقتل الابرياء، جزاؤه الاعدام، والذي يتجاوز على أموال الناس فجزاؤه أن تقطع اصابعه، وإن ارتكب الجنائتين معاً فجزاؤه الاعدام والصلب لإعتبار الناس، وإن شهر السلاح فقط في وجه الناس وأرعبهم بدون أن يرتكب جناية أخرى، فإن جزاءه النفي عن بلده، ولا مجال هنا لبيان اختلاف الفقهاء والمفسرين بشكل مفصل، ومن اراد التفصيل فليراجع كتب الفقه المطولة (كتاب الحدود بحث «حد المحارب») وتفسير القرآن ومن جملتها «التفسير الامثل»^(١).

هذه الحدود الاربعة وردت في القرآن المجيد، وأما الحدود الستة التي وردت الاشارة اليها في السنة فهي كالآتي.

٥ - حدُّ المرتد:

والمراد به، الشخص الذي يعتنق الاسلام ثم يعود الى الكفر ويعلن رجوعه، وقد ذكر الاسلام له حداً شديداً (ولذلك فلسفة خاصة سنشير اليها فيما بعد).
في القرآن الكريم وردت الاشارة فقط الى ذم هولاء المرتدين بشدة وتوعدهم بالعذاب الالهي العظيم، بدون أن يتعرض إلى الجزاء الدنيوي لهم، قال تعالى في سورة النحل الآية «١٠٦»:

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللّٰهِ مِنْ بَعْدِ اِيْمَانِهٖ اِلَّا مَنْ اُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْاِيْمَانِ، وَلٰكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللّٰهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

ويقول عزوجل في موضع آخر:

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللّٰهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ اِيْمَانِهِمْ وَشَهِدُوا اَنَّ الرّٰسُوْلَ حَقّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللّٰهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظّٰلِمِينَ - اُولٰٓئِكَ جَزَاءُهُمْ اَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللّٰهِ وَالْمَلٰٓئِكَةُ وَالنَّاسِ اَجْمَعِينَ﴾ (١)

وكما اسلفنا فانه لم ترد اشارة في القرآن الكريم الى حد الارتداد، ولكن العذاب العظيم الذي وعد به المرتد يحكي عن الجزاء الدنيوي الثقيل أيضاً.

والمشهور بين الفقهاء هو أن المرتد إن كان فطرياً (وهو الذي انعقدت نطفته من أب وام مسلمين أو على الأقل أحدهما مسلم) فحدّه القتل ولا تقبل توبته (إذا كان رجلاً)، وإن كان مرتداً ملأً، وهو الذي ولد من اب وام كافرين، يستتاب فان تاب والآ قتل. ومن جملة من يلحق بالمرتد، الشخص الذي يسب النبي الأكرم ﷺ - نعوذ بالله - ويهينه، ويلحق بالنبي الأئمة المعصومين عليهم السلام وفاطمة (عم)، وفي الحقيقة هذا العمل من جملة اسباب الارتداد، وعليه فلا داعي لذكره كحد مستقل، وإن عنونه بعض الفقهاء في كتاب الحدود في الفقه الاسلامي بعنوان حد مستقل، وتوجد بعض

الروايات الخاصة في اباحة دم مثل هذا الشخص، وردت في المصادر الاسلامية^(١).

لماذا كلُّ هذه الصرامة في المرتدّ؟

الملاحظة أن الاسلام لم يتعامل بشدّه مع أولئك الذين لم يقبلوا الاسلام أصلاً، وإنما يدعوهم إلى الاسلام بالاعلام والتبليغ المنطقي، فإن لم يقبلوا الاسلام وقبلوا العيش مع المسلمين بشرائط الذمة فانه لا يكفّ عنهم بل يتكفل فحسب، برعاية أموالهم ومنافعهم المشروعة وأنفسهم.

وأما بالنسبة إلى أولئك الذين اعتنقوا الاسلام ثم ارتدوا فانه يتعامل معهم بشدّة، وما ذلك إلا لأن الارتداد عن الاسلام يؤدي إلى زعزعة المجتمع الاسلامي ويعدّ نوعاً من الانتفاضة ضد الحكومة والنظام الاسلامي، ويكون غالباً دليلاً على سوء نوايا المرتدّين.

ولذا وكما سبقت الإشارة فان مثل هذا المرتد الذي انعقدت نطفته من اب أو ام مسلمين، وعدل عن الاسلام وأعلن ذلك وثبت ارتداده في المحكمة الاسلامية، فان الاسلام يهدر دمه، وتقسم أمواله على اقربائه المسلمين وتنفصل عنه زوجته ولا تقبل توبته ظاهراً، أي أن هذه الاحكام الثلاثة تجري عليه على أي حال.

وأما اذا كان نادماً حقاً فان توبته تقبل ما بينه وبين الله (هذا في الرجل أما في المرأة فان توبتها تقبل ولا تقتل)، وأما اذا لم يندم ولم يتب، ولكنه لم يتفوه ظاهراً بما يدل على ارتداده، لم يتعرض له أحد باذى.

واذا لم يكن المرتد عن الاسلام مولود من مسلمين أو من مسلم فانه يؤمر بالتوبة،

١ - وسائل الشيعة ج ١٨، ص ٤٥٨، كتاب الحدود الباب ٢٥، الحديث (١ - ٤) والباب ٢١ صفحة ٤٦١، الحديث (١ - ٦).

فان تاب قبلت توبته ولم تجر عليه تلك الاحكام، واما اذا لم يتب جرت عليه (ويكفي في ذلك التوبة الظاهرية، ولم نؤمر بالتحقيق في بعاية حقيقة أمره). ومن وجهة النظر السياسية قد يبدو أنَّ حكم المرتد الفطري نوع من الارهاب العقائدي والفكري، خصوصاً لأولئك الذين لم يطلعوا على حقيقة محتوى هذه الاحكام، ولكن الانصاف اننا اذا لاحظنا ان هذه الاحكام غير مرتبطة باولئك الاشخاص الذين يعتقدون بامور لم يظهروها للملأ، وإنما هي مختصة بالمرتدين الذين يعلنون ارتدادهم، فهم في الحقيقة يعلنون عن ثورتهم ضد الحكم الاسلامي، وعليه فمن الواضح ان هذه الصرامة والشدة في حقهم ليست خالية من الدليل، كما انها لا تتنافى ابداً مع حرية الرأي والعقيدة، فكم من دولة شرقية وغربية تجري قوانيناً شبيهة بهذا القانون مع اختلافات بسيطة حيث أنها تهدر دم كل من يحاول التعرض والثورة ضد الحكومة.

وينبغي الالتفات الى هذه النكته وهي أن قبول الشخص للاسلام لابد أن يكون طبقاً للمنطق والعقل، خصوصاً أولئك الذين ولدوا من ابوين مسلمين وترعرعوا في محيط اسلامي، فانه من البعيد جداً إنهم لم يتعرفوا على محتوى الاسلام، وعليه فان ارتدادهم عن الاسلام اقرب ما يكون الى سوء القصد والخيانة منه الى الاشتباه وعدم درك الحقيقة، فمثل هذا الشخص يستحق جزاء الارتداء.

ورد في القرآن الكريم الآية ٧٢، ٧٣ من سورة آل عمران الحديث عن طائفة من المتأمرين على الاسلام الذين يظهرون الاسلام أولاً ثم يظهرون الكفر بعد ذلك ليؤهموا الآخرين أنهم لم يجدوا في الاسلام من عناصر القوة شيئاً تمنعهم على البقاء على اعتناق الاسلام، ولذا فانهم عدلوا عنه، وهدفهم من ذلك زلزلة اعتقاد المسلمين باسلامهم وايمانهم، فقد ورد في الآية ٧٢ من سورة آل عمران:

﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ
وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ وخلاصة الكلام:

أولاً: إن حكم توبة المرتد الفطري مختص بالرجال المتولدين من مسلمين،
وقبلوا الاسلام أولاً ثم رجعوا عنه، فمن لم يقبل الاسلام عند بلوغه، لاشمله تلك
الاحكام!

ثانياً: الاشخاص الذين لازالوا في حال التحقيق والفحص، غير مشمولين بهذا
الحكم حتى لو كانت نتيجة تحقيقاتهم هي الرجوع عن الاسلام واعتناق عقيدة أخرى،
لكن بشرط أن لا يظهروا خلافهم وعدائهم للاسلام بالقول، فلا يتعرض لهم حينئذٍ
أحدٌ، ويعفون عن تلك العقوبات.

ثالثاً: متى ما سُكِّتَ عن المرتدين، خيف على الاسلام من التأمر عليه يومياً من
قبل جماعات (كاليهود في صدر الاسلام) وخيانة المسلمين وزلزلة اعتقادات الناس
والثورة ضد الحكومة الاسلامية عن طريق اظهار الارتداد، ومن هنا يعم الهرج
والمرج العظيمين المجتمعات الاسلامية، خاصة وإن مثل هذه الاعمال التخريبية لها
آثار سريعة وخطيرة، ولذا فان الاسلام تعامل معها بشدة وصرامة.

٦- حدّ شرب الخمر:

بحث مسألة شرب الخمر وآثارها الوخيمة في عدة آيات من القرآن الكريم،
ولكن لم يرد في القرآن حدّ شرب الخمر، وإنما ورد ذلك في الروايات الاسلامية، و
حدّ شرب الخمر هو ثمانين جلدة، فقد ورد في حديث عن بريد بن معاوية عن
الامام الصادق عليه السلام قال:

«إِنَّ فِي كِتَابٍ عَلَيَّ يُضْرَبُ شَارِبُ الْخَمْرِ ثَمَانِينَ وَشَارِبُ النَّبِيدِ ثَمَانِينَ»^(١).

(والخمر هو الشراب المتخذ من العنب، والنبيذ: الشراب المتخذ من التمر وقد يطلق أحياناً على معنى أوسع).

وقد ورد في بعض الروايات تعليل هذا الحد بأن شارب الخمر يسكر فاذا سكر افترى وتعرض بالقذف (ناموس الناس، ومن هنا كان حدُّه حدُّ القذف)^(٢).

٧- حدُّ اللواط:

لقد بين القرآن الكريم قبح هذا العمل وعظمة هذا الذنب حين استعرض قصة قوم لوط عليه السلام، وباعتقاد بعض المفسرين فان اشارة اجمالية وردت في بيان حدِّه في الآية ١٦ من سورة النساء حيث يقول تعالى:

﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِيَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾ وهذا مبني على ان «الَّذَانِ» اشارة الى الرجلين وإن الضمير في «يَأْتِيَانِيَا» اشارة الى اللواط، في حين أن هذا الضمير يعود الى كلمة «الفاحشة» التي وردت في الآية السابقة على هذه الآية اشارة الى «الزنا».

وعلى أي حال فان حدَّ اللواط طبقاً للروايات الاسلامية هو الاعدام، في صورة تحقق الادخال، فان لم يتحقق فالجلد وقد وردت روايات كثيرة في هذا المعنى عن الأئمة المعصومين عليهم السلام^(٣).

١ - مرآة العقول، ج ٢٣، ص ٣٣٠، الحديث ٤.

٢ - نفس المصدر، صفحة ٣٣١، الحديث ٧.

٣ - راجع كتاب وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ٤١٦ (ابواب حدِّ اللواط).

٨- حدّ المساحقة:

وللمساحقة في الاسلام حدّ شديد، وهو طبقاً للمشهور، كحدّ الزنا، مائة جلدة، ولا فرق فيه بين المحصنة وغيرها.

وهذا المطلب ورد في روايات عديدة عن أئمة الدين^(١).

ولا يوجد في القرآن الكريم ما يدلّ بصراحة على هذا الحكم، ولكن بعض المفسرين يرى أن في الآية ١٥ من سورة النساء إشارة الى ذلك يقول تعالى:

﴿وَاللّٰتِي يٰٓاتَيْنَ الْفٰحِشَةَ مِنْ نِّسَائِكُمْ فَاَسْتَشْهِدُوْنَ عَلَيْهِنَّ اَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَاِنْ شَهِدُوْا فَاَمْسِكُوْهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتّٰى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ اَوْ يَجْعَلَ اللّٰهُ لَهُنَّ سَبِيْلًا﴾.

ولكن أغلب المفسرين عدّ هذه الآية إشارة الى حكم الزنا قبل نزول حكم الجلد في سورة النور، والقرائن الموجودة في هذه الآية والآية التالية لها تؤيد هذا المعنى أيضاً.

٩- حدّ القيادة:

القيادة أو الوساطة بين النساء والرجال الذين يرتكبون الافعال المنافية للعفة، لها حدّ ثابت ومعين في الاسلام أيضاً (وأن لم يُذكر ذلك الحدّ في القرآن)، وطبقاً للمشهور فان حدّ القيادة هو الجلد ٧٥ جلدة، اي ثلاثة ارباع حدّ الزنا^(٢).

١٠- حدّ الساحر:

يذمّ القرآن المجيد السحر والسحرة بشكل واضح، حيث نقرأ في قصته موسى

١ - راجع وسائل الشيعة ج ١٨ ص ٤٢، ابواب حدّ السحق والقيادة.

٢ - راجع كتاب جواهر الكلام، ج ٤١، ص ٤٠٠، وكتاب وسائل الشيعة ابواب حدّ السحق والقيادة، الباب الخامس، ج ١٨، ص ٤٢٩.

وفرعون، على لسان موسى عليه السلام:

«إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ»^(١).

وفي قصته هاروت وماروت (المَلَكَيْنِ) وردَّ ذمُّ شديد، حيث عدَّت الايات القرآنية الواردة في هذه القصة السحر ككفرًا^(٢).

ولكن لم ترد اشارة في القرآن الكريم الى حدِّ الساحر، وإنما ورد في الروايات الاسلامية إنَّ حدَّ الساحر القتل^(٣).

وهناك خلاف بين الفقهاء في أنَّ هذا الحدُّ مطلق وبدون قيد وشرط أم أنه خاص باولئك الذين يحلُّون السحر ويفعلونه أو بتعبير آخر «المرتدين»؟

كما أن هناك كلام بين العلماء في حقيقة السحر، وإنه هل للسحر واقعية ام أنه نوع تخيل؟ أم أن بعضه واقعي وبعضه تخيل؟

ومن هنا، بحثت مسألة السحر بشكل مطول في الكتب الفقهية^(٤).

وما ينبغي معرفته هنا هو أن شدة الاسلام وصرامته في مسألة السحرة قد يكون باعتبار أن هؤلاء السحرة وقفوا بوجه الانبياء وحاربوهم كما هو واضح من قصة سحرة فرعون، واحياناً يقوم هؤلاء السحرة بدور اغواء الناس البسطاء ويحرفونهم عن الاعتقاد بمعاجز الانبياء، وهذا ذنب عظيم يستوجب عقاباً شديداً.



١ - طاه - ٦٩.

٢ - البقرة - ١٠٢.

٣ - وسائل الشيعة ج ١٨، ص ٥٧٦.

٤ - وهذا البحث تارة عنون في المكاسب المحرمة في مبحث تحريم السحر، وتارة في كتاب الحدود، في مبحث حدِّ الساحر.

كان ذلك، فهرسة للحدود الالهية في الاسلام، الهدف منها تطهير المجتمع والحد من انتشار الفساد والمنكرات وضياع الأمن بين الناس.

ومضافاً الى هذه الحدود، وكما اشرنا سابقاً، فان بعض العقوبات الاخرى مقررة في الاسلام، سمّاها الفقهاء «التعزيرات» (والتعزير يأتي بمعنى المنع، التأديب، التعظيم والاحترام والنصرة أيضاً كما بينا ذلك سابقاً، وكل هذه المفاهيم تجتمع مع التعزير بمعنى «العقاب»، وذلك لأن التعزير يمنع المجرم والمذنب من الذنب، ويؤدبه، ويبعث على احترامه وتعظيمه في المستقبل، وينصره على هواه ونفسه الامارة).

قلنا بان «التعزيرات» هي العقوبات التي تجري في الذنوب التي لم يرد فيها حد معين.

وتوضيح ذلك:

إن كل قانون لابد من ضامن لاجرائه، بمعنى السند الذي يوجد مبرراً عقلائياً لاجرائه، فان خلى القانون من هذا السند تبدل الى توصية أخلاقية بحتة، وخرج عن النطاق العملي.

صحيح أن المبررات الالهية والثواب والعقاب يوم القيامة، من الدوافع القوية عند المؤمنين، ولكن الاسلام لم يكتف بهذه المبررات الاخرية وإن كان يحترمها ويقدها، ولكنه اضاف اليها دوافع دنيوية ومادية، ليعمل من كان ضعيف الإيمان والذين لا تؤثر فيهم المبررات الاخرية كثيراً، على رعاية تلك القوانين خوفاً من العقاب على اقل التقادير، كي لا يتحول المجتمع الى ميدان يجول ويصول فيه

المفسدون الفاسدون عديمو أو ضعيفو الايمان.

ولما كانت الذنوب يختلف بعضها عن البعض الآخر، كما ويختلف المرتكبون لها من جهة الاطلاع والعمر والسوابق الاخلاقية. وكذا المكان والزمان، وقدرة تحمل تلك العقوبات، اختلفت التعزيرات أيضاً، فأوكل تعيينها الى نظر القاضي فيراعي فيه الشرائط بدقة من كل الجهات فيعين ما يراه مناسباً للمجرم.

وفي الحقيقة، إن كل العقوبات الاسلامية متفاوتة - ماعدا بعض الموارد التي ادرجت في الحدود المعينة، فيوثر في التعزير ومقداره الشرائط واحوال المجرم وكيفية وكمية الذنب الذي يرتكبه، ولذا فتعين مقدار التعزير موكل الى نظر القاضي.

عدة نکات مهمة في التعزيرات الاسلامية:

١- وحدة النسق:

إن حرّية القضاة في تعيين مقدار التعزير وإن كانت امتيازاً ونقطة قوة مضيئة تمنحهم إمكان تعيين التعزيرات المناسبة للمجرمين كلّ بحسب جرمه، ولكن هذه المسألة تصير سبباً احياناً في اختلاف القضاة في المناطق المختلفة في كمية التعزيرات للجرم الواحد، وهذا الأمر لم يكن يشكل مشكلة في الزمن الماضي حيث كانت المناطق متصلة بعضها عن البعض الآخر، ولكن اليوم وبالاتفات الى الاتصالات السريعة والواسعة بين المناطق المختلفة، يشكل ذلك مشكلة حقيقية.

ولهذا الدليل، فلا مانع من أن يجلس أهل النظر والقضاة البارعون في جلسات مشتركة لتعيين حدود للتعزيرات، ولكن ينبغي أن لا تكون تلك التعزيرات معينة وإنما كحدٍ أعلى وحدٍّ أدنى كالحبس والغرامة المالية والعقوبات الاسلامية وامثال

ذلك لتكون التعزيرات على نسق واحد في المناطق المختلفة.
وهذا الامر ينسجم تماماً مع الموازين الاسلامية، وعلى اقل تقدير يمكن الاستدلال على مشروعيتها بالعناوين الثانوية.

٢ - عدم إنحصار التعزير بالجلد:

التعزير - وكما اسلفنا - له معنى واسع يشمل كل منع وتأديب، ولا يوجد اي دليل في أن هذا المعنى قد تغير في الشرع الاسلامي المقدس أو في اصطلاح الفقهاء (و بالاصطلاح ليس له حقيقة شرعية أو متشرعية)، كما أنه لم ينقل الى معنى جديد في اصطلاح الفقهاء، وإن كان كثير من الفقهاء وتبعاً للروايات اعتمدوا على مصداق خاص منه (الجلد)، ولكن بيان هذا المصداق المعروف لا يُعدُّ دليلاً على انحصار مفهوم التعزير بالجلد، وإن توهم بعض بأن التعزير مساوٍ للضرب والجلد.

ولكن التحقيق والتدقيق في كلمات الفقهاء يثبت بطلان هذا التصور.
يقول العلامة الحلبي - قدس سره الشريف - في «التحرير» بعد أن يبين بأن التعزير ورد للجنايات والذنوب التي لم يرد فيها حدٌ معين:

«وَهُوَ يَكُونُ بِالضَّرْبِ وَالْحَبْسِ وَالتَّوْبِيخِ مِنْ غَيْرِ قَطْعٍ وَلَا جَرْحٍ وَلَا أَخْذِ مَالٍ»^(١).

ويقول في كتاب «الْفَقْهُ عَلَى الْمَذَاهِبِ الْأَرْبَعَةِ» بعد نقل كلام «ابن الْقَيْمِ» وإن ظاهر عبارته أن الحاكم له تعزير المجرمين بأي طريقة يرى فيها الصلاح - اعم من الحبس أو الضرب - «وَبِالْجُمْلَةِ فَإِنَّ التَّعْزِيرَ بَابٌ وَاسِعٌ يُمَكِّنُ لِلْحَاكِمِ أَنْ يَقْضِيَ بِهِ

عَلَى كُلِّ الْجَرَائِمِ الَّتِي لَمْ يَضَعْ الشَّارِعُ لَهَا حَدًّا أَوْ كَفَّارَةً عَلَى أَنْ يَضَعَ الْعُقُوبَةَ الْمُنَاسِبَةَ لِكُلِّ بَيْئَةٍ وَلِكُلِّ جَرِيمَةٍ مِنْ سَجْنٍ أَوْ ضَرْبٍ أَوْ نَفْيٍ أَوْ تَوْبِيخٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ»^(١).

هذه مقتطفات من كلمات فقهاء الخاصة والعامة. ومضافاً إلى ذلك، فإن روايات كثيرة وصلتنا في ابواب مختلفة من الفقه، تدلُّ بوضوح على سعة معنى مفهوم ومصداق التعزير يطول المقام بذكرها هنا، ومن رغب في الوقوف عليها لابدَّ له من مراجعة بحث التعزير في كتاب الحدود والتعزيرات.

ومن مجموع ماورد في كتب «اللغة» و «كلمات الفقهاء» و «الروايات الاسلامية» في ابواب الفقه المختلفة، يمكن الاستنتاج بوضوح بأن الحاكم الاسلامي غير مقيد بانتخاب نوع معين من انواع التعزير، والموارد ادناه كلها من جملة التعزيرات، بشرط رعاية حال المجرم والمحيط الاجتماعي وكمية وكيفية الذنب وسائر الجهات:

١ - الضرب باشكال مختلفة.

٢ - الحبس بكيفية وكمية متفاوتة.

٣ - الغرامة المالية، اي أخذ مقدار من المال، وتوقيف اموال المجرم لمدة معينة (كحجز سيارات المتخلفين عن قوانين المرور).

٤ - التوبيخ العلني والسري.

٥ - النفي الى منطقة اخرى لمدة طويلة أو قصيرة، وترك المراودة، أو ترك التعامل مع المجرمين.

٦ - المنع من السفر الى خارج البلدة، أو الدولة، أو حتى الإقامة الجبرية في المنزل.

٧ - المنع من التكسب والاشتغال لمدة معينة.

٨ - حرمانه من العمل ببعض المناصب، والحقوق الاجتماعية.

٩ - التشهير بالمجرم عن طريق وسائل الاعلام بشكل محدود أو موسع.

١٠ - حرمانه من بعض الامتيازات، كمنعه من ارتداء زي الروحانيين، بالنسبة إلى الافراد الذين يرتدون ذلك الزي.

وامور اخرى يمكنها أن تردع المتخلفين والمجرمين، وتحد من تكرار تلك الذنوب من قبلهم ومن ارتكابها من قبل الآخرين.

٣ - معنى تخيير الحاكم في التعزيرات:

هناك كلام طويل بين الفقهاء في مقدار التعزيرات التي يُخَيَّر فيها القاضي، ولكنهم متفقون على أن التعزير لابد أن يكون أقل من الحد وإن اختلفوا في الحد الذي لابد أن يكون التعزير أقل منه، وهل هو حد الزنا، أم أقل الحدود، أم أنه يتناسب مع الذنب المرتكب؟

وما ينبغي التنبيه عليه هنا هو أن المراد من تخيير القاضي في انتخاب كمية وكيفية التعزير، لا يعنى أنه يتبع ميوله الشخصية في ذلك، بل المراد في التخيير هو فسح المجال للقاضي لكي يأخذ بنظر الاعتبار مناسبات «الجرم» و «الجريمة» من كل الجهات، فالقاضي وإن كان ظاهراً مخيراً في تعيين التعزير إلا أنه في الحقيقة ليس مخيراً، لأنه يُعَيَّن لكل جرم مقدراً من العقوبة يتناسب مع ذلك الجرم، بمعنى أن

الجرم اذا كان يقتضي الحبس لمدة شهر من الزمان، أو عشرين جلدة لم يمكنه زيادة تلك المدة أو عدد الجلدات حتى يوماً واحداً أو جلدة واحدة، أو فلساً واحداً في الغرامة المالية.

٤- التعزيرات في القرآن الكريم:

ذكرت في القرآن الكريم بعض موارد التعزير يمكن أن تكون نموذجاً للحكم الكلي الاسلامي:

ألف: قصة المتخلفين عن غزوة تبوك:

وتوضيحه: نقرأ في سورة التوبة، الآية ١١٨:

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

فقد بُيِّنَ في هذه الآية بنحو الإشارة، وفي الروايات والتفاسير بنحو التفصيل، التعزير العجيب الذي مارسه النبي الأكرم ﷺ في حق أولئك نفر الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك (والذين لم يأتروا بأمر رسول الله ﷺ وتركوا الجهاد بدون عذر وجيه).

وهؤلاء الثلاثة طبقاً تصريح بعض الروايات هم «كعب بن مالك» و «مرارة بن ربيع» و «هلال بن أمية»، ومع انهم لم يكونوا من المنافقين ولكنهم تخاذلوا عن الجهاد في تبوك، ثم انتبهوا الى انهم ارتكبوا ذنباً عظيماً، وندموا على ذلك.

وعندما رجع الرسول الكريم ﷺ من غزوة تبوك، جاء هؤلاء الثلاثة إليه واخذوا بالاعتذار، ولكن الرسول ﷺ لم يكلمهم وأمر المسلمين بأن لا

يكلّموهم، فلم يكلّمهم أحدٌ وقاطعهم الناس حتى أن نساءهم و؟ ولادهم جاءوا إلى النبي ﷺ وطلبوا منه الرخصة في الانفصال عنهم، فلم يسمح لهم الرسول ﷺ بالانفصال التام عنهم وإنما أمرهم بعدم مقاربتهم.

وعندما وجد هؤلاء المتخلفون أنفسهم في حصار اجتماعي رهيب وضافت عليهم الآفاق على سعتها حتى اضطروا إلى ترك «المدينة» هرباً من الفضيحة والذل، والتجأوا إلى الجبال في أطراف المدينة، فكان أهلهم يأتونهم بالطعام ولكن كانوا لا يكلّمونهم حتى بكلمة واحدة!

وحينئذ قال أحدُهم لصاحبه: والآن وقد قاطعنا الناس تعالوا ليقاطع أحدنا الآخر، فلعلّ الله يقبل توبتنا!

وتحقق هذا الاقتراح عملياً، وبعد خمسين يوماً من التضرع والتوبة إلى الله، قبلت توبتهم ونزلت الآية اعلاه^(١).

وبمختصر تدقيق في هذه الحادثة التاريخية العجيبة، يتضح لنا بأن هذا الأمر في الواقع نوع تعزيز مهم، وإنه سجن معنوي شديد مقترن بالتحقير والتشهير والطرده المؤقت من المجتمع، وقد ترك أثراً بليغاً في المسلمين وفي نفس هؤلاء المجرمين الثلاثة، وصار سبباً في ترك مثل هذه الذنوب في المستقبل.

وهذه القصة شاهد حي آخر على عمومية مفهوم التعزيز وعدم اختصاصه بالجلد والسياط، وتدّل أيضاً على أن بعض أنواع التعزيرات لها تأثير أقوى وأبلغ بكثير من السوط والجلد، وإنه يكون موجباً للنهي عن المنكر بشكل أوسع في المجتمع.

ب - قصة ثعلبة:

والمورد الآخر هو قصة أحد الانصار (ثعلبة بن حاطب) والتي ورد ذكرها في الآيات (٧٥ - ٧٨) من سورة التوبة وهي قوله تعالى:

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ - فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ - فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾.

يعتقد كثير من المفسرين أن هذه الآيات نزلت في شأن أحد الانصار واسمه «ثعلبة بن حاطب»، لقد كان هذا الرجل فقيراً، يأتي الى المسجد دائماً ويطلب من رسول الله ﷺ أن يدعو الله أن يعطيه مالا كثيراً، فكان النبي ﷺ يقول له: «قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه»، ولكن ثعلبة كان يصرُّ ويلحُّ على النبي ﷺ، ويُقسم بأنه سيؤدي كل ما عليه من حقوق فيما لو اعطاه الله المال الكثير، فاضطر النبي ﷺ الى أن يدعو الله أن يعطيه مالا كثيراً.

لم تمض فترة طويلة إلا ومات ابن عم غني لثعلبة، فورث ثعلبة ثروة طائلة، وكانت ثروته تزداد يوماً بعد آخر، فصار يملك قطعاناً من الانعام.

وعندما حان موسم الزكاة بعث الرسول الأكرم ﷺ الجباة لجمع الزكوات، لم يمتنع ثعلبة الذي ذاق لتوه لذة المال عن دفع الحق الالهي فقط، بل أخذ يُشكل على أصل تشريع الزكاة أيضاً! وادعى إنها «أخت الجزية» التي تؤخذ من أهل الكتاب! (عاد مأمور رسول الله ﷺ صفر البدين، فنزلت الآيات المذكورة اعلاه في ذم ثعلبة وبخله ونفاقه ونقضه العهد!).

نزل هذه الآيات بنفسه يُعدُّ تعزيراً شديداً في حقه، لأنها فضحت افعاله القبيحة.

وطبقاً لبعض الروايات فان ثعلبة ومن أجل استعادة حيثته وجبر هذه الخسارة

الاجتماعية الفادحة، جاء بنفسه الى رسول الله ﷺ واعلن عن استعدادده لدفع زكاة امواله، ولكن رسول الله ﷺ رفض قبولها منه!

رَحَلَ رسول الله ﷺ الى جوار ربّه، فجاء ثعلبة ثانية الى الخليفة الأول لبودي زكاة ماله، فلم يقبلها منه الخليفة الأول!

وفي زمن الخليفة الثاني والثالث جاء ثعلبة ليدفع زكاة امواله، فكان جواب كل منهما له هو: لا نقبل منك لأن رسول الله ﷺ لم يقبل منك، ومات ثعلبة في آخر ايام خلافة عثمان^(١).

ففي الآيات الأنفة الذكر، وإن لم يُصرَّح بمسألة التعزير، ولكن نفس هذا الأمر يعني نزول الآيات في ذم فعل ثعلبة وفضحه، ومعاملة الرسول الأكرم ﷺ والخلفاء لثعلبة بتلك الكيفية، يعتبر من مصاديق التعزير، وقد ترك ذلك أثراً عميقاً فيه وفي الآخرين، ولا يرد من التعزير إلا ردع المذنبين سواءً بالعقاب المادي أو المعنوي.

ج - آية الايذاء:

وكما اشرنا سابقاً، فإن القرآن قد أمر بمعاقبة الرجال والنساء (الذين لا ازواج لهم) ويرتكبون الزنا، حيث يقول تعالى: ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا...﴾^(٢).

فإن كان المراد من الايذاء هنا هو نفس الحد الشرعي الوارد في آية ﴿الزانية والزاني...﴾^(٣) فحينئذٍ لا علاقة له ببحث التعزيرات بل كان داخلاً في بحث الحدود،

١ - القسم الاول من هذه الرواية نقله كثير من المفسرين، والقسم الاخير منها ذكر في تفسير الفخر الرازي، ج ١٦ ص ١٣٨، وتفسير ابو الفتوح الرازي، ج ٦، ص ٧٤.

٢ - النساء / ١٦.

٣ - النور / ٢.

ولكن متى ما قلنا بأن المنظور من «الايذاء» هو العقاب بنحو مطلق والذي ليس له حدٌ وحدود معينة مذكورة وإنه يرتبط بما قبل نزول حدِّ الزنا - كما قاله جمع من المفسرين - فإنه حينئذٍ سيرجع الى التعزيرات، لأنه عقاب غير معين في حق الزناة غير المحصنين كان موجوداً في الاسلام قبل تشريع حدِّ الزنا.

وقد ذكر المرحوم «الطبرسي» في مجمع البيان معنيين لجملة «أذوهما» كلاهما يتلائم مع التعزيرات، الاول: هو أن المراد منها توبيخهما بالالفاظ وضربهما بالنعل! والثاني: هو أن المراد منها توبيخهما بالكلام فقط^(١).

د - آية النشوز:

نلاحظ في القرآن الكريم حكماً يرتبط بالنساء الناشزات، ويعتبر هو الآخر من مصاديق التعزيرات، مع أن الأزواج قد أمروا بمراعاة الاحتياط في اجراء هذا الحكم، يقول عزوجل:

﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً﴾^(٢).

والمراد بالناشزات أولئك النسوة اللاتي يمتنعن عن اداء وظائف الزوجية، واللاتي يظهر فيهن علامات عدم الوثام المختلفة^(٣).

ففي الآية أعلاه، ذكرت ثلاثة انواع من التعزير لمثل هؤلاء النسوة، الأول: الوعظ والنصيحة (ويجب أن لا ننسى بان الوعظ في كل مورد يعدُّ من مراتب التعزير، لما له

١ - مجمع البيان، الجزء ٣ صفحة ٢١.

٢ - النساء: ٣٤.

٣ - «نشوز» من مادة «نشر» على وزن «نذر» وفي الاصل بمعنى الارض المرتفعة، واذا اطلق على أحد الزوجين كان معناه طغيان ذلك الزوج وأمتناعه عن اداء وظيفته تجاه زوجته.

من الأثر الرادع)، الثاني: الهجر والابتعاد عنهنّ، الثالث: العقاب البدني، وكل من المرحلتين الثانية والثالثة إنما تجري مع عدم نجاح المرحلة السابقة لها في التأثير.

فإن سئلتنا: هل يجري ذلك في الرجل اذا نشز وطغى؟

قلنا في الجواب: نعم! ولكن لما كان مثل هذه العقوبات خارجة عن طاقة النساء، فانها اوكلت الى حاكم الشرع، فيكلف الحاكم بمعاينة الرجال الناشزين بوعظهم ونصيحتهم أو ضربهم في مواعده.

وقصة الرجل الذي أجحف بحق زوجته ولم يقبل الرضوخ الى الحق فأجبره الامام عليّ عليه السلام على التسليم بكل الطرق حتى اضطر الى تهديده بالسيف، معروفة. ومن هنا يتضح الجواب على السؤال الذي قد يخطر في اذهان كثيرة من الناس عند ذكر هذه الآية وهو: كيف يمكن أن يسمح الاسلام للرجال بضرب نساءهم، في حين أن هذا الأمر يسيء الى كرامة الانسان وخصوصاً شريك الحياة، وذلك:

«أولاً»، أن المراد من الضرب والعقاب البدني هنا ليس أن يأخذ الرجل السوط وينهال على زوجته ضرباً حتى يختلط لحمها بدمها، ولا أن يضربها بكفّه على وجهها حتى يسود وجهها، فان كل ذلك غير جائز في شرع الاسلام المقدس، بل وعليه الدّية لو فعل ذلك، بل المراد هو الضرب الخفيف الذي لا يؤدي الى الجرح ولا الى احمرار واسوداد الجسم، حتى قال بعض المفسرين في توضيح الآية: ضرب كضرب اليد بالسواك! أو ما شابه ذلك مما يؤدي الى ايلامها، ولكن ينبغي أن لا يكون شديداً فيجرحها.

«ثانياً» يجب أن لا ننسى بان النساء على اربعة اقسام:

قسم منهن نساءً مؤمنات صالحات، واقفات على مسؤوليتهنّ في العائلة وذلك على أثر اللياقات الذاتية والتربية المكتسبة عندهنّ، ومثل هؤلاء النسوة لا بد من

احترامهن من قبل ازواجهن على اتم وجه، وهنّ مصداق الآية ﴿وعاشروهن بالمعروف﴾^(١).

والقسم الثاني، اولئك النسوة اللاتي يتخلفن عن اداء وظائفهنّ في محيط العائلة، فيتسببن في اداء الزوج، ولكن تخلفهن ليس عميقاً وفاحشاً، بل يمكن أن يتأثرن بالوعظ والنصيحة خوفاً من الله، ويرجعن الى الحق لتقواهنّ، فهؤلاء مشمولات لقوله ﴿فعظوهنّ﴾ في الآية اعلاه.

والقسم الثالث: النسوة اللاتي يكون نشوزهنّ عميقاً، ولا ينفع معهن الوعظ ولكن ولروجهنّ الشفافة يؤثر فيهن الهجر، فانهن لا يرغبن الا في العيش بصلح وصفاء، فهؤلاء يشملهنّ ﴿واهجروهنّ في المضاجع﴾.

فيبقى القسم الرابع فقط من النساء اللاتي يتمردنّ على ازواجهن ويمنعن عن اداء وظائفهنّ، ويتمادين في غيهن وعنادهنّ.

ولجأتهنّ، فلا تقوى عندهن فتمنعهن عن ذلك، ولا وعظ ينفع ويؤثر فيهن، ولا هجر في مضجع يكدر ارواحهن، فلا سبيل الا الشدة، ومن هنا فان الاسلام في هذا المورد فقط يجيز للزوج أن يؤدب زوجته بالضرب الخفيف ويعزّرها، وهذا الأمر رائج حتى في المجتمعات الشرقية والغربية المعاصرة، حتى أن المعترضين على هذا القانون الاسلامي يمارسون ذلك بأنفسهم أيضاً في مثل هذه الظروف والحالات، فمع تلك الظروف التي بيناها لا يُعدّ هذا الأمر عجيباً لا يتلائم مع احترام كرامة الانسان.

ثالثاً: هذا الأمر لا يختص بالنساء، بل يشمل الرجال اذا ما نشزوا وامتنعوا عن اداء وظائف الزوجية، وينفس تلك المراحل المذكورة، ففي البدء لا بد من وعظهم

ونصيحتهم، فإن لم يؤثر ذلك، فالتعزير المعنوي كالهجر وعدم الاكتراث بهم في المجتمع حتى يرجعوا عن غيهم، فإن لم يؤثر ذلك، فلا بد من اتباع سبيل الضرب وامثاله من العقوبات، ولكن وكما قلنا سابقاً بما أن هذا العمل غير مقدور من قبل النساء وإن سلطة الرجل تحول دونه، أرجع الأمر إلى الحاكم فهو المكلف بإيقاف هؤلاء الرجال عند حدّهم.

وبالالتفات إلى النكات الثلاثة السابقة، لا نظن أن منصفاً يعترض على هذا الحكم ويدعي أنه خلاف كرامة الإنسان.

ولابد من التنبيه على أنه ورد في ذيل هذه الأحكام الثلاثة مباشرة قوله تعالى: «فان اطعنكم فلا تبغوا عليهنّ سبيلاً».



أحكام

السجن في الاسلام

تمهيد:

كما ذكرنا في بحث التعزيرات، فإن «السجن» من أنواع «التعزيرات» والامور الرادعة للمتخلفين والمجرمين، مضافاً إلى أنه لا مفر من الحبس، والتوقيف في بعض الاحيان مثل الحد من فرار المتهمين، أو الضغط والتضييق على المدينين لاجبارهم على اداء ديونهم، ولهذا فإن احكام السجن لها موقع خاص في الفقه الاسلامي، وسنشير هنا ببعض الاشارات لتكميل البحث المرتبط بالحكومة الاسلامية وإن كان اداء حق هذا البحث يتطلب تأليف كتاب أو كتب مستقلة، وبعض المحققين قد كتب أيضاً في هذا المجال بعض الكتب^(١).

١ - تاريخ السجن:

لا يتأتى لأحد أن يحدد تاريخاً دقيقاً لتأسيس أول سجن في تاريخ البشرية، لأن هذه المسألة تعود تقريباً إلى بدايات الحياة الاجتماعية للبشرية، ومنذ ذلك اليوم الذي وجدت فيه الحكومات فالسجون كانت موجودة، بل وحتى غير الاحكام كالملاك الجبارين والاقطاعيين الظالمين، قد اعدوا بعض الامكنة لسجن عبيدهم

١ - من جملتها كتاب «احكام السجون» للدكتور الشيخ أحمد الوائلي، وهو أحد المصادر التي أعتمدنا عليها في البحوث اعلاه.

ورعيتهم، حتى أن بعضهم كان يحبسهم في اصطبلات الحيوانات!
وأما في خصوص تاريخ تأسيس السجن في الاسلام، فقد اتفق المؤرخون تقريباً على أنه لم يكن في عصر النبي ﷺ سجن بشكل رسمي، لا لأن رسول الله ﷺ لم يكن يجوز ذلك، بل لعدم اتساع المجتمع حينذاك وخاصة في بداية الاسلام حيث كان الناس يلتزمون بالقوانين الالهية، ولما كان يوجد شخص متخلف عن تلك القوانين.

ولذا لا نرى في القرآن الكريم عبارة وجملة واحدة تدل على وجود السجن في ذلك العصر مطلقاً.

ولكن وفي نفس الوقت كانوا يستعينون بطرق اخرى بالنسبة إلى المجرمين الذين لا بد من توقيفهم حتى يتعين التكليف فيهم، أو المدنيين الذين يمتنعون عن أداء ديونهم مع امتلاكهم المال اللازم لذلك، أو الاسراء الذين يؤسرون في حروب المسلمين، ومن جملة تلك الطرق:

١ - كان المجرمون يحبسون أحياناً في المسجد، ولما لم يكن في ذلك الوقت قفل وقيد ونحو ذلك، كانوا يوكلون شخصاً لمراقبة ذلك السجين كي لا يفر من المسجد، أو انهم كانوا بخطون دائرة حوله ويوصونه بعدم اجتياز ذلك الخط المستدير، والّا فهو مسئول عن ذلك! والمتهم أيضاً ولأسباب اجتماعية خاصة ولأجل أن لا يتضاعف عقابه، لم يكن يتخطى ذلك الخط المرسوم حوله، ولعلّ التعبير «بالترسيم» في بعض الروايات اشارة الى هذا المطلب.

٢ - الحبس في دهليز المنازل - اذ أن اكثر المنازل كان لها دهليز طويل بين باب الدار وباحتها وفي اكثر الاحيان كان لها باب يفصلها عن باحة الدار، فلو أغلقت البابان تبدل الدهليز عملياً إلى سجن.

٣ - نفس المنازل كانت نوعاً آخر من السجون، وكما ورد في القرآن الكريم الأمر بحبس النساء في المنازل، يقول تعالى: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاَسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ (النساء - ١٥).

ولا يخفى أن هذا الحكم كان قبل نزول حدِّ الزناة، نزوله نسخ الحكم المذكور.

٤ - «الملازمة» وهي شكل آخر في السجن، وتكون بهذا الترتيب مثلاً، بأن يلازم الدائن المدين المتهول ولا ينفصل عنه حتى يأخذ حقه.

٥ - مسألة «استرقاق الاسراء» تعتبر أيضاً قائمة مقام السجن، وقد وردت أحكامها مفصلاً في الفقه الاسلامي.

هذه أشكال بدائية وبسيطة للسجون، وقد تغيرت وتعقدت بمرور الزمن واتساع المجتمع الاسلامي وتعقيد الحياة وزيادة عدد المجرمين، وأصبح السجن على شكل بناء مخصص، وإن كان السجن موجوداً وبشكل كامل في بلدانٍ أخرى وقبل قرون من الزمن.



أولُ سجن أسس زمن عمر بن الخطاب:

على الرغم من اصرار بعض المؤرخين على عدم وجود سجن بمعنى المحل الخاص لحجز المجرمين في زمن الخلفاء الثلاثة الأول وإن السجن بُني في زمن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، إلا أن هذا الادعاء مخالف لكثير من الروايات التي ورد فيها أن «عمر» كان أول من أقدم على تأسيس السجن في الاسلام.

والشاهد على هذا الأمر هو ما ذكره «ابن همان» في كتاب «شرح فتح الغدير»
المصنف في الفقه الحنفي حيث يقول:

«لم يكن السجن موجوداً في زمن النبي ﷺ ولا زمن خلافة أبي بكر، بل كان
المجرمون يُحجزون في المسجد أو في دهليز المنازل، حتى جاء «عمر» فاشترى بيتاً
في مكة باربعة آلاف درهم وجعله سجناً»^(١).

وقد ذكر هذا المطلب في كتب أخرى أيضاً ككتاب «النظم الإسلامية» وكتاب
«الجنابات المتحدة بين القانون والشرعة»، فقد صرح هؤلاء أن «عمر» اشترى تلك
الدار من «صفوان بن أمية» أحد زعماء مكة. وقد ذكر هذا المطلب أيضاً في كتاب
«المهذب» لأبي إسحاق الشيرازي، المصنف في الفقه الشافعي، وإن عمر اشترى
تلك الدار وبذلها إلى سجن»^(٢).

ومن هنا نجد بأن بعض الشعراء في زمن الخليفة الثاني قد ضمنوا اشعارهم
ببعض الابيات التي لم ترق للخليفة أو إنها كانت مخالفة للشرع فكان عمر يأمر
بحبسهم في تلك السجون، ولذا نظم بعضهم بعض الابيات معتذراً ومبيناً براءته من
التهمة، ومن مجموع هذا الأمر يتضح الشاهد الحي على وجود السجن في ذلك
الزمن.

ومن جملة هؤلاء الشعراء، «الحطيئة» الذي حبسه عمر فانشد هذين البيتين
وأرسلهما إلى عمر:

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ	حمر الحواصل لاماء ولا شجرا!
ألقيت كاسببهم في قعر مظلمة	فارحم عليك سلام الله ياعمر!

١ - شرح فتح الغدير، ج ٥، ص ٤٧١.

٢ - المهذب، ج، ص ٢٩٤.

ومن تعبيره «قعر مظلمة» بالخصوص يستفاد أن ذلك السجن كان عميقاً ومظلماً فكأنه كان طامورة.

وهناك قرائن أخرى تدل على وجود مثل هذا السجن في ذلك الزمن، اذ مع اتساع رقعة العالم الاسلامي يزداد عدد الجرائم والمجرمين لامحالة، فلا يمكن تصور عدم وجود سجن ومحبس للمجرمين.

السجن في زمن أمير المؤمنين علي عليه السلام:

والوجه الوحيد الذي يبقى للجمع بين كلام أولئك الذين نفوا وجود السجن في زمن عمر وبين كلام أولئك الذين يصرون على وجوده هو أن عمر لم يقدم على بناء السجن وإنما اكتفى بشراء دار «صفوان بن أمية» بأربعة آلاف درهم واستفاد منه في هذا المضمار.

وأما في عصر أمير المؤمنين علي عليه السلام فإنه أقدم شخصياً على بناء السجن (لكي تراعى المسائل الانسانية بشكل أفضل في حق المسجونين، وللحد من فرارهم). والظريف في هذا المقام هو أن التواريخ نقلت بأن الامام علي بن أبي طالب بنى أول سجن من «البواري» لتوفير الاضاءة والتهوية الكافيين وسمّاه «النافع» (ولعل ذلك من أجل أن الحبس كان من أجل تربية المجرمين وإصلاحهم)، ولكن وللأسف فإن بعض المجرمين استغل شفقة الامام علي عليه السلام وأساء الاستفادة من هذا السجن، فقام بعض اللصوص بثقب حائط ذلك السجن وهربوا منه، فاضطر الامام علي عليه السلام الى بناء سجن محكم من الطين وسمّاه «المخيس».

وكما اشرنا آنفاً فإن الدولة الاسلامية كانت قد إتسعت رقعتها في زمن عمر بن الخطاب بشكل لا يمكن معه ادارة المجتمع دون وجود سجن للمجرمين، والظاهر

أن الاصرار على انكار هذا الموضوع يعود إلى الاوضاع السياسية والتوصيات القومية، وإلا فإن التاريخ يشهد هو الآخر على هذا الامر مضافاً إلى قرائن الاوضاع والاحوال.

وعلى اي حال كان السجن في ذلك الوقت مجرد محلّ لحجز المجرمين والمدينين المتمولين وامثال هؤلاء، ولم يكن ذلك السجن محلاً للمخالفين السياسيين أبداً، فلو صار وجودهم مضرّاً في المجتمع فانهم كانوا يرسلون إلى المنفى كما هو الحال في قضية ابي ذر الغفاري التي نقرأها في التاريخ، حيث بأن عثمان وحاشبته لم يتحملوا صراحة لسان ابي ذر الذي كان على الدوام يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فاضطروا إلى نفيه الى ارض وعرة بلا ماء ولا كلاً باسم «الربذة» وبقي هناك إلى أن ودّع دار الفناء وانتقل إلى جوار ربه، ولكن سنرى أن السجن قد تغيّر جداً في عصر بني أمية وصار مقراً لاعتقال الخصوم السياسيين والمعارضين المؤمنين والأمريين بالمعروف والناهين عن المنكر.



٢ - فلسفة واقسام السجون:

ينبع عشق الانسان للحرية من عشقه الملتهب للتكامل والرفي، ولا يمكن لأي موجود سجين أن يستمر في سيره التكاملي، وحتى الحيوانات تنفرب في اقفاصها مهما تهيأت لها ظروف العيش في تلك الاقفاص، فهي ترجح الحرية من أسر القفص عليه وإن كانت الاخطار تهددها خارج القفص.

ولهذا، فإن الحيوان الاسيرة في الاقفاص لا تبدي أي مظهر من مظاهر الفرح

والراحة كالتهديد واللعب في الاقفاص إلا إذا كانت قد ولدت في نفس تلك الاقفاص ولم تذق طعم الحرية.

وإذا كان ذلك غريزة كامنة في الحيوانات، ففي الانسان يتلاحم هذا الشعور العاطفي مع الادراك العقلي، فيطلب الانسان بالدليل والبرهان حريته، ولهذا الدليل نفسه يعتبر السجن وسلب الحرية منه نوعاً من أنواع العقاب الصعب والمُرّ للبشر. ولا شك في أن أكثر السجون على طول التاريخ كانت تعبر عن أبشع صور الظلم من قبل الطغاة والحاقدين للوصول إلى مقاصدهم الدنيئة اللامشروعة، ولكن ذلك لا يمنع في أن يكون للسجن فلسفة واهمية واقعية، وأثار ايجابية في اصلاح الافراد ومحاربة الفساد الاجتماعي.

فالاعتقال وسلب الحرية، يُعدُّ وسيلة ثقيلة للضغط على المسجونين لتحقيق أحد الامور العشرة التالية التي تشكل فلسفة الحبس.

١- السجن الايدائي:

هذا النوع من السجن يكون عادة للأشخاص الذين يرتكبون المخالفات، فالسجن يسلبهم الحرية ليقفوا على قبح افعالهم، ويردعهم عن تكرارها في المستقبل، ولكي يعتبر الآخرون بذلك. وهذا السجن موجود منذ القدم وحتى الآن، وكل حكومة لها مثل هذا السجن (إلا في بعض الموارد الاستثنائية).

٢- السجن الاصلاحى:

وهذا السجن يستفاد منه لحبس الافراد الذين يعتادون على الامور السيئة (كالمعتادين على المخدرات) والذين لا ينفع معهم النصيح والارشاد، فلا مهرب من

حبسهم في هذا السجن وعزلهم عن المجتمع لمدة قصيرة أو طويلة. لاصلاحهم
واجبارهم على ترك ما اعتادوا عليه.

٣- السجن الاحتياطي:

كأن تحدث حادثة مهمة كمقتل نفس محترمة، ولم يُعرف القاتل ولكن يُتهم البعض بالقتل، وحينئذٍ لابد من التحقيق للتعرف على القاتل، ولمّا أمكن هروب المتهمين وعدم التمكن من القبض على القاتل بعد انتهاء وثبوت الادلة الكافية، لابد من توقيف المتهمين فترة التحقيق المؤقتة، فمن ثبتت براءته قدّم الاعتذار إليه، ومن ثبت جُرمه عوقب العقاب الذي يستحقه.

وهذا النوع من السجون كالأنواع السابقة كان ولا يزال موجوداً في كل مكان تقريباً، ومن الطبيعي أن التحقيقات لابد أن تتم على وجه السرعة، إذ قد يكون المتهم بريئاً في الواقع، فينبغي أن لا يبتلى فترة طويلة في الحبس.

٤- السجن التأديبي:

وهذا السجن يُستفاد منه عادة في مورد الاطفال الذين لا تشملهم القوانين، ولكن لو اطلق العنان لهؤلاء الاطفال لساءوا استغلال الحرية الممنوحة لهم وسلكوا طريق الانحراف، ومن هنا كان لابد من ايداعهم في مثل هذا السجن في مقابل ارتكابهم بعض الذنوب. ليتم تأديبهم وتربيتهم.

٥- السجن السياسي:

يطلق لفظ «السجين السياسي» على أولئك الاشخاص الذين يقومون بنشاطات سياسية معارضة لمصلحة المجتمع والنظام الحاكم، وقد تكون تلك النشاطات

أحياناً غير معارضة لمصلحة المجتمع، بل قد تكون في مصلحته ولكنها مخالفة لمطامع الحكم المتسلط على رقاب أبناء المجتمع (كالسجناء السياسيين في أكثر البلاد هذا اليوم، حيث يتم حبس هؤلاء الافراد حتى لو كان الحق معهم).

٦- السجن الاستحقاقى:

ونقصد بالاستحقاق هنا، أخذ الحق، فمثلاً لشخص على آخر دينٌ يمتنع عن أدائه اليه مع أنه متمكن من الاداء، فهنا قد يحبس المدين حتى يضطر إلى دفع ما عليه للدائن. ولكن هنا لا بد من الافراج عنه فوراً بمجرد أن يقبل دفع حق الدائن اليه، لأن فلسفة الحبس تنتهي بهذا المقدار.

٧- سجن الحفظ:

وهذا السجن قد يوجد ولكن بندرة، وهو مورد بعض الاشخاص الذين إشتد غضب الناس منهم إلى درجة أن وجود هؤلاء الاشخاص في المجتمع يشكل خطراً على حياتهم، في حين أنهم على فرض إرتكابهم ذنباً فإنهم لا يستحقون الاعدام، ومن هنا تضطر الدولة وهي الحافظة لمصالح الناس إلى نقل هؤلاء الاشخاص إلى سجن معين حتى تهدأ نائرة المجتمع ضدهم، ومتى ماعدت الاوضاع إلى حالتها الطبيعية اطلق سراح هؤلاء الأشخاص، وكما قلنا فإن مثل هذا السجن نادر التحقق، وقد تحقق مصاديقه في حالات الثورات والانتفاضات الشعبية والحركات الاجتماعية.

ما ذكرناه من الاقسام السبعة اعلاه، فلسفة معقولة يمكن تصورها للسجن.

وفي قبال هذه الفلسفة المعقولة، توجد أهداف ومبررات لا معقولة وظالمة كانت العامل الاصلي لكثير من السجون في دنيا الامس واليوم ولا تزال، ويمكن هنا ذكر عدة أنواع منها:

١ - السجن الانتقامي:

سجن ليس له هدف معقول اطلاقاً، إلا أن الجبّارين والظلمة والاقطاعيين وللانتقام من الاحرار والرعية حيث يحمل هؤلاء الجبّارون حقداً أعمى في قلوبهم على الناس، فيلقون بهم في السجون، وكم من شاهد من التاريخ أن بعض هؤلاء الناس يبقون في تلك السجون حتى يموتوا وتتهراً اجسادهم؟

٢ - السجون المعدة لقمع التحرر:

محاول الجبّارون كسر روح المقاومة المعنوية أو الجسدية عند المناضلين الثائرين ضدهم، فيلقون بهم في السجون لأجل ذلك، واحياناً يكون الحبس توأماً مع الاهانة والتعذيب الروحي والجسدي، ومن الواضح أن الافراد المقاومين الصامدين سيخرجون من هذه الحلبة سالمين غانمين، بل يزدادوا احياناً صلابة وتجربة وعزيمة كالفلولاذ الذي يصهر في الحرارة فيصير اكثر صلابة ونقاءً، ولكن قد يؤثر هذا السجن سلباً في بعض الاشخاص الضعفاء أو ممن هم في مستوى متوسط من الايمان والعزيمة، فنراهم بعد التحرر من السجن يغيرون مسيرحياتهم ويتركون نضالهم، وقد ينحرف بعضهم ويعمل ضمن اجهزة القطاع الظالم، وذلك للضغط التي واجهوها في السجن.

٣- السجن لعزل القيادة عن القاعدة:

هذه السجون خاصة بقيادة الدين والقادة السياسيين، حيث أن الجبّارين وعندما يضيقوا ذرعاً بجهاد هؤلاء يحاولون التفكيك بينهم وبين قواعدهم ومؤيديهم، فيلقوا بالقيادة في السجون، والملفت للنظر أن هذه السجون يكون لها في أكثر الموارد نتيجة معكوسة بحيث تؤدي إلى زيادة الانسجام والتآلف بين القواعد والقيادات، فتعزز مكانة القادة في قلوب مؤيديهم، وتزيد من جماهيريتهم.

٤- السجن لرفع المضايقات:

أحياناً يكون وجود العالم، المخترع، القائد، أو أي فرد لائق، مزاحماً لوجود الحكام الجبّارين، فما يكون من الجبّارين إلا أن يودعوا هؤلاء في السجون ليرتاحوا من مضايقاتهم ومزاحمتهم، ويستمرروا في تسلطهم وتجبرهم دون مزاحم. حتى أن التاريخ نقل لنا أن بعض الجبّارين قام بسجن أزواج نساء جميلات من دون ذنب سوى السيطرة على نسائهم!

٥- السجن بسبب النزاهة:

ومن اعجب انواع السجن على طول التاريخ، السجن الذي يبتلى به بعض الاشخاص بسبب نزاهتهم وبراءتهم، ولا بد من الاذعان بأن النزاهة والطهارة تعدّ جرماً في المحيط الملوّث بالذنوب والآثام !! لأن ذلك يؤدي إلى افشال مخططات هؤلاء الملوّثين، فكم من يوسفٍ على مرّ التاريخ أودع السجن بذنب الطهر والعفة والرغبة عن الذنوب.

كما في يوسف الذي دخل السجن بسبب طهارته وعفته.

ومن الواضح أن مثل هذه السجون التي ليس لها أية فلسنة عقلية وشرعية خارجة عن موضوع بحثنا، وإنما اشرنا اليها للتوضيح والضرورة.



٣- السجن من وجهة نظر القرآن الكريم:

لا شك في أن كثير من الامور التي ذكرت في فلسنة السجن أمور معتولة، وفي الواقع يعتبر السجن تبعاً لتلك الامور ضرورة إجتماعية، سواء كان لمعاقبة المجرمين أو كان لاصلاحهم وتأديبهم، أو كان لقطع خطرهم أو قطع جذور النساد وغير ذلك من المسوغات، وقد وردت اشارات عديدة لهذا المعنى في القرآن المجيد.

ولا يخفى أن الالفاظ التي تدل على مفهوم «السجن» كثيرة في لغة العرب وقد استعملت في القرآن والسنة الشريفة وبعض تلك الالفاظ واضحة الدلالة على هذا المعنى، وبعضها قابل للبحث والنقاش.

من جملة المصطلحات، لفظة «السجن» التي وردت في تسعة موارد في آيات القرآن الكريم في سورة يوسف بمناسبة حبس هذا النبي الكريم الطاهر «بنفسها أو بمشتقاتها». واستعملت في مورد واحد في قصة فرعون في سورة الشعراء حيث خاطب فرعون موسى عليه السلام مهدداً آياه بالسجن وحكى هذا القول القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿لَئِنْ اَتَّخَذْتَ اِلَٰهًا غَيْرِي لَا جَعَلَنَّاكَ مِنَ الْمُسْجُونِينَ﴾^(١).

فمن هذه التعبيرات يُستفاد أن السجن بمعناه الواقعي كان موجوداً في عصر موسى وفرعون، وحتى قبل ذلك أي في زمن يوسف وعزيز مصر، فكانوا يودعون

المذنب والبريء في السجن بحيث أن بعض السجناء كان يبتلى سنوات عديدة حتى يأتي عليه النسيان.

والمصطلح الآخر هو «الحبس» الذي استعمل في القرآن الكريم في موردين، ولكن ليس في معنى السجن، وإنما استعمل في هذا المعنى في الأحاديث الإسلامية كثيراً^(١).

ومصطلح «الامساك» الذي استعمل في مورد واحد في القرآن المجيد بمعنى السجن، وهو مورد النساء اللاتي يأتين بالفاحشة، وذلك قبل نزول حكم حد الزنا (الجلد)، وقد ورد هذا التعبير في الآية (١٥) من سورة النساء وسيأتي تفصيل الكلام عنه لاحقاً.

مصطلح «النفي» عن «الارض» الذي ورد في الآية (٣٣) من سورة المائدة وفسره البعض بالسجن.

وكذا مصطلح «الارجاء» الذي ورد في سورة الاعراف الآية (١١١) في قصة موسى وفرعون، حيث يعتقد والبعض أنه بمعنى السجن، وذلك عندما اقترح ملاً فرعون عليه أن يرجي موسى وإخاه هارون حتى يجمع السحرة، قال تعالى: ﴿قَالُوا أَزِجُّهُ وَآخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾.

ولكن أغلب المفسرين لم يفسر الارجاء بهذا المعنى، بل قالوا أن معناه التأخير، وبالالتفات إلى المعجزات التي جاء بها موسى أمام فرعون، واستعداد فرعون لنزال السحرة مع موسى، يستبعد جداً أن يكون فرعون قد حبس موسى وهارون.

١ - راجع كتاب ميزان الحكمة ج ٢ ص ٢٤٦ - ٢٥١ للاطلاع على تلك الأحاديث، حيث ذكرت أبواب مختلفة فيمن يجوز حبسه ومن يحكم عليه بالحبس المؤبد وكذلك حقوق المحبوسين وموارد حرمة الحبس.

وعلى اي حال، فإن المتيقن أنه يوجد في القرآن المجيد مورد واحد على الاقل من موارد حكم السجن، وكما اشرنا آنفاً فإنه ذكر بعبارة «الامساك» حيث يقول عزوجل: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاَسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةٌ مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾^(١).

والمعروف بين المفسرين هو أن هذه الآية ناظرة إلى عقاب النساء اللاتي يرتكبن الزنا، قبل نزول حكم حد الزنا وهنا ذكر حكمهن وهو السجن المؤبد، وإن تبدل هذا الحكم فيما بعد إلى حكم الجلد أو الرجم.

وجملة ﴿أَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ﴾ وإن لم يذكر لفظ السجن فيها، ولكن الإمساك في البيوت إلى آخر العمر أمرٌ شبيه بالسجن. وهذا هو المورد الوحيد المتحقق في القرآن حول حكم السجن.

٤ - موارد السجن في الروايات الإسلامية:

ورد في الروايات الإسلامية موارد متعددة للسجن المؤبد وغيره، من جملتها:

- ١ - في مورد الإعانة على القتل: إذا أمسك شخص شخصاً آخر فقتله ثالث، فحكم القاتل هو الإعدام، وحكم معاون هو السجن المؤبد، وهذا الحكم مورد إتفاق وإجماع فقهاءنا، وقد وردت روايات كثيرة في المصادر المعتبرة تدل عليه.
- ففي حديث عن الإمام علي عليه السلام في رجلين أمسك أحدهما بثالث فقتله الثاني، قال عليه السلام: «يُقتل القاتل»

وبحسب الآخر حتى يموت غمّاً كما حبّسه حتى مات غمّاً»^(١).

٢ - الأمر بالقتل: يرى الفقه الإسلامي أن الشخص إذا أمرَ آخرًا بقتل ثالث بريء، يحق للمأمور أن يقتل ذلك البريء حتى لو هددته الأمر بالقتل إذا لم يفعل، إذ لا تقيّة في الدماء وما يقال من أن المأمور معذور لا أساس له من الصحة.

فلو أن شخصاً لم يعتقد بهذا الحكم الإسلامي، فقتل بريئاً حفظاً لنفسه من تهديد الأمر الظالم، فحكمه في الإسلام هو القتل وحكم الآخر هو السجن المؤبد!

قال الإمام الباقر عليه السلام في حقّ مثل هذا الشخص: «يُحْبَسُ الأمر بقتله حتى يموت»^(٢).

٣ - في مورد تكرّر السرقة: يحكم في مورد تكرّر السرقة في المرة الثالثة بالسجن المؤبد على السارق، وقد نقل هذا الحكم بعض كبار أصحاب الإمام الباقر والصادق عليهما السلام عنهما^(٣).

٤ - في مورد المرتدة الفطرية: إذا لم تتب، حيث يحكم عليها بالسجن المؤبد، وقد جاء في حديث عن الإمام الباقر والإمام الصادق عليهما السلام:

«والمرأة إذا ارتدت عن الإسلام إستتبت فإن تابت وإلا خُلِدَتْ في السجن»^(٤).

وقد ذكرت موارد أخرى للسجن المؤبد، لا بد من مطالعتها في كتب الفقه المطولة. وتختلف السجون المؤقتة التي لها جنبه تعزيرية، ويرتبط ذلك بميزان «الجرم» و «مقدار تحمّل المجرم» وشرائط أخرى.

والمتهمون بالقتل في صورة خرف فرارهم، ومن يساعد القاتل على الفرار بعد

١ - وسائل الشيعة، ج ١٩، ص ٣٥، الحديث الأول، الباب ٧ من أبواب قصاص النفس.

٢ - وسائل الشيعة ج ١٩، ص ٣٢، الحديث الأول، الباب ١٣ من أبواب القصاص.

٣ - وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ٤٩٢، الباب الخامس من أبواب حد السرقة.

٤ - وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ٥٤٩، الباب الرابع من أبواب حد المرتد. الحديث ٦.

ثبوت جرمه، والمرأة الحامل التي يثبت عليها الزنا والتي يحتمل فرارها والتي ينبغي أن تسجن حتى تضع حملها، والسارق من غير حرز، والمدين الذي يمتنع عن أداء دينه مع تمكنه من ذلك، وشهود الزور، ومن يضمن مجرمًا فيسجن حتى يحضر المجرم إلى المحكمة، وكل من يرتكب منكراً ولا يتركه إلا أن يحبس، كل هؤلاء من المساجين المؤقتين.



٥ - التعامل الإنساني مع المساجين:

كما أشرنا سابقاً، فإنه على الرغم من سوء إستغلال موضوع السجن على مرّ التاريخ مراراً، فإن هذه المسألة من وجهة النظر الإجتماعية والإنسانية، أمرٌ ضروري لمكافحة الجرائم والجنايات وتربية النفوس المريضة، ولكن بحدود وشرائط معينة ومحسوبة!

أحد تلك الشرائط، هو مراعاة المعاملة الإنسانية مع السجناء، فلا بد من التعامل معهم على أساس أنهم بشر، فينبغي ترك المضايقات الظالمة، وأن لا يحبس أحدٌ بذنب غيره، وأن لا يعاقب أحدٌ أكثر مما يستحق حتى ولو لساعة، ولا بد أن تكون كل البرامج في طرق تعليم وتربية السجين، وبتعبير آخر، ينبغي أن يكون السجن مركزاً للتربية والتهذيب لا مركزاً لتخريج المجرمين والحاquدين، فلا بد أن يتصف السجن بمواصفات درس التربية.

ومن قصة النبي يوسف عليه السلام ومدة سجنه في مصر، يستفاد بشكل جيد أن تلك السجون كانت على درجة عالية من الظلم والإضطهاد بحيث أن بعض السجناء كان

يبقى طيلة عمره في السجن، وفقط بعض المصادفات أو الحوادث غير المترتبة هي التي كانت تلفت إنتباه الظلمة والحكام إلى السجناء، ولو لم تقع تلك الحادثة لبقى السجن إلى آخر عمره في السجن، بالضبط كما حصل ليوسف حيث أن الملك لو لم ير تلك الرؤيا ولو لم يعرف يوسف تفسير الأحلام، لما التمس عزيز مصر تفسير رؤياه من يوسف ولما بعث خلفه ولبقى يوسف، إلى آخر عمره في السجن، في حين أنه لم يرتكب أي ذنب، وذنبه الوحيد هو طهارته وتقواه وعدم إنصياعه لرغبات وأهواء زوجة عزيز مصر (زليخا)، وبطبيعة الحال فإن هذه التقوى والطهارة ليست ذنباً صغيراً في قاموس مثل هذه البيئة المنحطة المتسافلة!

والقرآن الكريم يحدثنا كيف أن يوسف الصديق حاول أن يحول بيئة السجن إلى محيط للتربية والتعليم والإصلاح، فكان يعلم السجناء درس التوحيد وعبادة الله وهو أصل كل طهارة وحسن، فمتى ما سُئل يوسف عن مسألة بسيطة، أو طلب منه تفسير رؤيا عابرة، كان يطرح المعارف الالهية ويبين المسائل التربوية للسجناء، يقول تعالى حكاية عن لسان يوسف:

﴿يَا صَاحِبِ السِّجْنِ أَأَرِيبَ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرَ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ - مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاءُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١).

فصحيح أن يوسف عليه السلام كان سجيناً من السجناء، ولكن عمله ذاك لدليل على أنه لو كان على رأس السلطة لكان يمارس نفس العمل التربوي مع السجناء في محيط السجن بالاولوية، ولحول بيئة السجن إلى مركز للتعليم والتربية الالهية، ولبذل كل جهده من أجل إستغلال الفرصة التي يمتلكها السجناء في السجن لإعادة النظر في

تصرفاتهم السابقة وإعادة حساباتهم لبناء أنفسهم من جديد، وتبديل سلوكهم المنحرف إلى سلوك قويم.

وقد أثبتت لنا التجارب أن كثيراً من السجناء الشريرين الملوّثين بالذنوب والجرم سرعان ما يتم إصلاحهم إذا ما وجدوا قريناً صالحاً يرشدهم إلى الطريق الصحيح، إذ أنهم خارج السجن لم يكن لديهم الفرصة الكافية من أجل التفكير والتأمل في تصرفاتهم الفاتنة وإعادة حساباتهم للمستقبل، فالسجن توفيق إجباري لمثل هؤلاء. ونلاحظ في الروايات الإسلامية إهتمام الدين بحقوق السجناء ومنحهم الإجازات للاشتراك في صلاة الجمعة والإلتقاء بذويهم وأصدقائهم.

ومن جملة ذلك ماورد في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول: «على الإمام أن يخرج المُخْبِسِينَ فِي الدِّين، يَوْمَ الْجُمُعَةِ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَيَوْمَ الْعِيدِ إِلَى الْعِيدِ فَيُرْسِلَ مَعَهُمْ فَإِذَا قَضَوْا الصَّلَاةَ وَالْعِيدَ رَدَّهُمْ إِلَى السِّجْنِ»^(١). وينبغي الإلتفات إلى أن لصلاة الجمعة والعيد خطبتان ولهما أثر بالغ في التربية. وفي حديث آخر يتوسع أكثر من نطاق الأول، حيث ورد فيه: «إِنَّ عَلِيّاً عليه السلام كَانَ يَخْرِجُ أَهْلَ السِّجْنِ - مَنْ حُبِسَ فِي دِينٍ، أَوْ تُهَمِّهِ - إِلَى الْجُمُعَةِ فَيَشْهَدُونَهَا وَيُضْمِنُهُمُ الْإَوْلِيَاءُ حَتَّى يَرُدُّوهُمْ»^(٢).

كما ويستفاد من حديث آخر أن علياً عليه السلام كان كل جمعة يتفقد السجن والسجناء بنفسه، فيجري الحدّ على أولئك الذين ينتظرون إجراء الحدّ عليهم (ويطلقهم) ويطلق من ليس عليه حدّ^(٣).

١ - وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ٢٢١ (باب من يجوز حبسه، الحديث ٢).

٢ - المستدرک، ج ١٧، ص ٤٠٣، الحديث ١.

٣ - ميزان الحکمة، الجزء ٢، ص ٢٥.

ومن خلال الآيات والروايات والأحكام الواردة في هذا المجال يمكن إستنباط وتنظيم إرشادات جامعة، من نماذجها:

١ - عندما أُلقي القبض على عبد الرحمن بن ملجم قاتل الإمام علي عليه السلام وأودع السجن، أوصى الإمام عليه السلام بمداراته والإهتمام به، ومن جملة وصاياه لأولاده في حق ابن ملجم، قال: «إطعموه واسقوه وأحسنوا أسارته»^(١).

والمعروف هو أن الإمام عليه السلام بعد أن ضربه ابن ملجم على رأسه الشريف فشقه ورفد الإمام عليه السلام في الفراش يغمى عليه أحياناً ويفيق أحياناً، ناوله الإمام الحسن عليه السلام قعباً من لبن، فشرب منه قليلاً ثم نحاه عن فيه وقال: إحملوه إلى أسيركم، ثم قال للحسن عليه السلام: بحقي عليك يا بني إلا ما طيبتم مطعمه ومشربه....^(٢).

ويروي العلامة المجلسي حديثاً آخر. وذلك عندما جيء بإبن ملجم إلى الإمام علي عليه السلام فتكلم معه الإمام بكلام ثم قال لولده الإمام الحسن عليه السلام: «أزفك يا ولدي بأسيرك وأرحمته وأحسن إليه وأشفق عليه، ألا ترى إلى عينيّه قد طارتا إلى أم رأسه وقلبه يزجف خوفاً ورغباً وفرعاً، فقال له الحسن عليه السلام يا أباه! قد قتلك هذا اللعين الفاجر وأفجعنا فيك وأنت تأمرنا بالرّقي به؟! فقال له نعم يا بني نحن أهل بيت لا نزداد على الذنب إلينا إلا كرمًا وعفوًا ورَحمةً وَالشَّفَقَةُ مِنْ شِمَتِنَا لا مِنْ شِمَتِهِ، بحقي عليك فأطعمه يا بني ممّا تأكله، واسقه ممّا تشرب ولا تُقَيِّدْ له قَدَمًا، ولا تُغَلِّ له يَدًا»^(٣).

٢ - يقول المرحوم الشيخ الطوسي في كتاب الخلاف: من أمسك بصبي صغير

١ - بحار الأنوار، ج ٤٢، ص ٢٣٩.

٢ - البحار، ج ٤٢، ص ٢٨٩.

٣ - البحار، ج ٤٢، ص ٢٨٧ - ٨٨.

وحبسه، فسقط عليه جدار، أو قتله حيوان منترس، أو لدغته عترب أو ثعبان فمات. فهو ضامن لدمه، ثم يقول الطوسي بعد ذلك: «دليلنا إجماع الفرقة وأخبارهم»^(١). فمن هذه العبارة يستفاد ضرورة كون السجن مأموناً ونظيفاً فلو مات السجين بسبب عدم تحقق ذلك فدمه مضمون.

٣ - ونقل المرحوم الشيخ الطوسي في كتابه «المبسوط» عن بعض الفقهاء، لو سجن شخصاً في غرفة واغلق عليه الباب فاختنق ومات فهو ضامن لدمه^(٢). ونفس هذا الكلام قيل في مورد الجوع ونحوه.

ومن مجموع ذلك يستفاد تأمين الغذاء ومراعاة التهوية الكافية في السجن كي لا تتعرض حياة السجين وسلامته للخطر.

٤ - ذكر كثير من الفقهاء في بحث آداب القاضي، أن على القاضي إذا دخل المدينة أن يطالع أحوال السجناء وملفاتهم ويحقق فيها ويدرسها بشكل جيد، ليطلق من إنتهت فترة محكوميته أو حُبس بلا دليل كافٍ، فوراً.

وصرح بعض الفقهاء أن على القاضي حين وصوله إلى المدينة أن يعلن للملأبانه سيدرس قضايا السجناء في موعدٍ يعينه لهم ليتسنى لذوي السجناء الحضور ساعة التحقيق، وعندما يحضر أطراف النزاع يقرأ أسماء السجناء واحداً بعد الآخر.

ويسألهم عن علة حبسهم، ثم يسأل من طرف الدعوى الآخر، فإن كان عنده دليل مقنع على حبسه، رده إلى السجن، وإن لم يكن هناك مدع، أعلن عن إسمه ليأتي من يدعي عليه شيئاً ويطرح دعواه عند القاضي، وإلا أطلق صراحه^(٣).

١ - كتاب الخلاف، ج ٣، ص ٩٤، (كتاب الجنایات، المسألة ١٩).

٢ - أحكام السجن في الإسلام، ص ٢٦٣ (فارسي).

٣ - جواهر الفلاح، ج ٤، ص ٧٤.

الطرح التاريخي لأبي يوسف لحماية السّجناء

يعتبر العصر العباسي من أظلم فترات التاريخ الإسلامي، واحد الشواهد الحيّة على ذلك هو إزدیاد عدد السّجون والضّغط الشّدید على السّجناء، وإعتقال الأبرياء بتهم واهية، وتعذيب القرون الوسطى.

لقد تسربت أخبار هذه السّجون الرهيبة إلى الخارج على الرّغم من التّعيم الشّدید من الحاكم في ذلك العصر، حتى تعالت صرخات النّاس من هنا وهناك، وطالبت العلماء في ذلك الوقت للتّدخل في الأمر لوضع حدّ لهذا الإرهاب والظّلم. ومن جملة الأمور الايجابية التي تحققت في هذا المجال، الطرح الذي قدّمه أبو يوسف الفقيه السّني المعروف وتلميذ أبي حنيفة، حيث أنّ هارون الرّشید ومن أجل أنّ يكفّ أفواه المعارضين طلب من أبي يوسف أن يكتب طرحاً في كيفية التعامل مع السّجناء من وجهة النّظر الإسلاميّة والفقه الإسلامي، وقد أكّد هرون الرّشید على كيفية التعامل مع السّارقين والاشرار والمخالفين عندما يلقي عليهم القبض، وإنه هل يجب تهيئة الطّعام لهم؟ وإن كان واجباً فهل يجب أخذه من مورد الزكاة أم من محل آخر؟ وكيف يتعامل معهم بنحو كلي؟

ومن الواضح أنّ هارون الرّشید لم يكن محترق القلب على السّجناء وإنما إضطره الضّغط الجماهيري لذلك.

فكتب أبو يوسف طرحاً مفصلاً وموسعاً في هذا المجال وأرسله إلى هرون الرّشید وكان طرحه متسمّاً بالصّراحة والشّجاعة في عدّة موارد من فقراته، وقرن ذلك بالانتقاد الشّدید للوضع الرّاهن حينذاك بلا أن يحدد الإجابة بالموارد التي أرادها لهرون الرّشید، لأنّه كان يعلم جيداً بأن أكثر سجناء الحكم العباسي هم من السّياسيين!

وتتلخص هذه الرسالة التاريخية بإثني عشرة فقرة نذكرها هنا:

* * *

فهذه الرسالة التاريخية تحكي عن رؤية فقيه عاصر العباسيين عن أحكام الإسلام في السجناء، ويمكن أن تكون نموذجاً صغيراً من مجموعة كبيرة من الشواهد والأدلة على التعليمات الإسلامية في هذا المجال.

* * *

الحسبة والأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر

تمهيد:

إنَّ قيمة كل قانون مرتبطة بميزان إجراءاته، فأفضل القوانين إذا لم تطبق على الأرض لا تعدو أن تكون مجرد كلمات على صفحات الأوراق، ولا تحلُّ أي مشكلة في المجتمع، وبالعكس فإن أضعف القوانين إذا طبقت بشكل جيد ودقيق فإنه يمكنها أن تحلَّ كثيراً من مشكلاته.

ولهذا، وردت في الإسلام، والحكومة الإسلامية برامج موسعة وكثيرة لضمان إجراء القوانين والحدّ من التّخلف منها، وهذه البرامج تشتمل على الأمور التّالية:

- ١ - الجهاز القضائي.

- ٢ - وظيفة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر.

- ٣ - مسألة الحسبة.

وقد تكلمنا بالمقدار الكافي حول وظائف الجهاز القضائي وإجراء الحدود والتّعزيرات، والآن نوظف الكلام للبحث في مسألة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر وموضوع الحسبة.

يعتبر إجراء الحدود والحسبة في الواقع من أغصان الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، لأننا نعلم بأن الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر له ثلاث مراحل، إثنان منها وظيفة عامة للنّاس بنحو الواجب الكفائي، ومرحلة واحدة من وظائف الحكومة، والمراحل هي:

- ١ - الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر بالقلب (أي أن يتأذى القلب من

المخالفات والذنوب التي يرتكبها الآخرون، ويميل إلى الخير والصلاح، (وقال البعض أنّ المقصود من هذه المرحلة هو أن يظهر إنزجاره أو ميله القلبيين بوجهه أو عمله بصورة قطيعة أو صلح للمرتكبين) وهذه وظيفة عامة الناس في قبال ترك الواجبات والإتيان بالمحرمات.

٢ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باللسان، ويكون ابتداءً بالكلمات الطيبة البينة الحبيبة والوعظ والحكمة، ثم بالكلمات الحادة الخشنة (وهي وظيفة عامة الناس أيضاً ٩).

٣ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باليد، وبتعبير آخر إتخاذ الإجراءات العملية والقاسية أحياناً في قبال تارك الواجبات ومرتكبي المحرمات سواءً عن طريق العقاب البدني أو الحبس أو الاعمال المشابهة الأخرى.

وكما قلنا في الأبحاث الفقهيّة بأن هذه المرحلة من وظائف الحكومة الإسلامية ولا يمكن أن يسمح للناس بالقيام بها. لأن ذلك يؤدي إلى وقوع الهرج والمرج وأنواع الفوضى الأخرى.

وهذا الأمر هو بالضبط ما جاء بعنوان أوظيفة الحسبة في الفقه الإسلامي وكلمات الفقهاء ومؤرخي الإسلام.



وبهذه الإشارة نرجع إلى الآيات القرآنية في هذا المضمون:

١ - ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ

بِالله ﴿١﴾.

٢ - ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿٢﴾.

٣ - ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ - يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿٣﴾.

٤ - ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿٤﴾.

٥ - ﴿الَّتَائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٥﴾.

٦ - ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ ﴿٦﴾.

٧ - ﴿يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ أَقِمُوا الصَّلَاةَ وَآمُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرُوا عَلَى مَا أَصَابَكُمْ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ ﴿٧﴾.

١ - آل عمران - ١١٠.

٢ - آل عمران - ١٠٤.

٣ - آل عمران - ١١٣ و ١١٤.

٤ - التوبة - ٧١.

٥ - التوبة - ١١٢.

٦ - الحج - ٤١.

٧ - لقمان - ١٧.

تفسير الآيات:

خطوة مهمة في طريق إجراء الأحكام:

ما جاء في الآيات أعلاه هو عمدة آيات القرآن المجيد في خصوص وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المهمة، والتي تبين أبعادها المختلفة.

فالآية الأولى تبين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بعنوان أمرٍ عام وتعتبره من خصائص الأمة الإسلامية، لا بمعنى أنه لم يوجد في الأمم السابقة أصلاً، بل بمعنى أنه يعدُّ أصلاً أصيلاً في الأمة الإسلامية وركناً ركيناً فيها حيث يقول: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.

والملفت للنظر أنها من جهة تعتبر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خصوصية من الخصائص التي أدت إلى أفضلية الإسلام على سائر الأديان وأن الأمة الإسلامية هي الأمة النموذجية المثلى ومن جهة أخرى نقدم هذه الوظيفة على الإيمان بالله! وهذا يدل على أنه إذا لم تؤد هذه الوظيفة على المستوى العام بصورة أصليين أساسيين إجتماعيين، فلا ضمان لاستمرار إيمان الناس.

نعم، فهو كذلك، فلو نسيت هاتان الوظيفتان، ضعف الإيمان في القلوب، وذبلت غصونه وأوراقه، والنتيجة هي إضمحلال الإيمان والإسلام.

ثم إنه من هذا البيان يتضح جيداً أن المسلمين إنما يكونوا أمة متميزة وممتازة ما داموا يدعون إلى الخير والصلاح ويجاهدون المنكر والفساد، فإذا ما نسوا ذلك لم يعودوا خير أمة ولم يترشح منهم النفع للمجتمع البشري!

نعم.. فالمسلمون إنما يمكنهم أن يكونوا قادة الأمم في العالم وإن تستفيد البشرية جمعاء من وجودهم، فيما لو طبقوا هاتين الوظيفتين الكبيرتين.

وبتعبير آخر: كل واحد من أفراد الأمة الإسلامية، لابد أن يشعر بالمسؤولية،

وخلافاً لما نراه اليوم حيث توكل وظيفة مكافحة الفساد إلى مجموعة معينة من المأمورين الحكوميين ويبقى سائر أفراد المجتمع في حلٍّ من تحمل هذه المسؤولية الاجتماعية المهمة فيبقون متفرجين على المسائل الاجتماعية السلبية بلا حراك. فالآية تؤكد على أنّ هذه المسؤولية مسؤولية عامة لا بدّ أن يتحملها الصغير والكبير والشاب والشيوخ والرجل والمرأة والعالم والجاهل.

وإستعمال كلمة «المعروف» و «المنكر» في الآية لنكتة مهمة أخرى، إذ هي من جهة تبين من جهة أن الواجبات والمحرمات أمورٌ يدركها ويعرفها عقل الإنسان وروحه جيداً، فهو يعشق الواجبات، في حين أن المنكرات أمورٌ بعيدة عن ذوقه فهو يجهلها وينفر منها.

ومن جهة أخرى، فإن من البديهي إننا لو نسينا هاتين الوظيفتين وإعتاد المحيط على المنكرات والبعد عن الخير والمعروف، صار المنكر معروفاً والمعروف منكراً في نظر الناس، وهذه أكبر خسارة يمكن أن يتحملها مجتمع من المجتمعات. وهذا البلاء هو الذي عمّ اليوم كثير من المجتمعات العالمية، حيث تبدل المعروف عندهم منكراً والمنكر معروفاً!



والآية الثانية ناظرة إلى قسم آخر من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتي يختص بها مجموعة من الأمة الإسلامية، وبتعبير آخر هي مختصة بالحكومة وموظفي الحكومة حيث ورد فيها: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

وعندما نضع هذه الآية في قبال الآية السابقة نجد أنّ الآية السابقة تتحدث عن مرحلة من مراحل هاتين الوظيفتين المهمتين غير المرحلة التي نتحدث عنها هذه الآية، فتلك مرحلة القلب واللسان وهذه مرحلة استخدام القوة والشدة، والملفت للنظر هو أن هذه الآية تحصر الفلاح باولئك الأشخاص الذين يؤدون هاتين الوظيفتين العظيمنتين (إلتفتوا إلى أن جملة أولئك هم المفلحون تدل على الحصر)^(١).

والتعبير بالأمة، قد يكون إشارة إلى أن هذه الوظيفة لابد أن تؤدي بصورة «جماعية»، وأن تكون مقترنة «بمنهج تنظيم»، ونحن نعلم بأن الأمور التي تحتاج إلى شدة والتي تؤدي من قبل الحكومة لا تكون ممكنة بغير الشرطين.

وذيل الآية يبيّن بوضوح بأن كل فلاح ونجاح في الدنيا والآخرة في الفرد والمجتمع لا يتحقق إلا في ظل هاتين الوظيفتين.



وفي الآية الثالثة، إشارة إلى نكتة ظريفة أخرى في مجال هاتين الوظيفتين العظيمنتين، تتضح لنا من خلال دراسة شأن النزول.

فقد ورد في شأن نزول هذه الآية أنّ مجموعة من علماء وأخبار اليهود كانوا قد

١ - ما قاله البعض من أنّ «من» التي وردت في الآية زائدة أو أنّها للبيان، وأن مفهوم الآية شامل لكل المؤمنين، مخالف لظاهر الآية، فالظاهر منها هو أنّ «من» تبعية، أي أنه يجب على مجموعة منكم فقط القيام بهذه الوظيفة.

وكذلك فإنّ ما قاله البعض من أنّ «من» تبعية للواجب الكفائي، مخالف للظاهر أيضاً، لأن الواجب الكفائي واجب على الجميع، غايته أن نوع الوجوب فيه يختلف عن نوع الواجب العيني (وتوضيح ذلك موكول إلى علم الأصول).

أسلموا و التحقوا بصفوف المسلمين، مما أدى إلى غضب زعماء اليهود جداً، فمن أجل إذلال و تحقير هؤلاء المؤمنين إدعى زعماء اليهود أن ثلّة من أشرارهم قد اعتنقوا الإسلام و إنهم لو كانوا صالحين ما تركوا دينهم!!

فالآية أعلاه تجيب هؤلاء و تقول: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ - يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

فالآية تلخص خصائص الصالحين من أهل الكتاب الذين اعتنقوا الإسلام في ثلاث أمور: الإيمان بالمبدأ و المعاد، ثم الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، وفي النهاية المسارعة في الخيرات. وهذا يدل على أن الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر يعدّ من أبرز مظاهر الصالحين بعد الإيمان بالله و يوم القيامة، وأنه أصل كل الخير.



وفي الآية الرابعة، يعتبر الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر أول خصوصيّة من خصائص المؤمنين، حتّى أن إقامة الصلاة و أداء الزكاة و إطاعة الله و النبي ﷺ جاء بعدها، وهذا يدل على أن هاتين الوظيفتين العظيمتين إذا لم تطبق، فإن أساس العبادة و الطاعة و عبوديّة الله تتعرض للخطر.

يقول الله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

وقد إحتملت عدة أمور في تفسير جملة ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾، من جملتها أن

هؤلاء منسجمون في الإيمان بالله ومباني الإسلام - والآخر هو أن أحدهم ينصر الآخر في أمور الدين والدنيا، والثالث هو أن هؤلاء بالتعليم والتربية يخرجون الآخرين صوب درجات الكمال العالية.

ومن الواضح أن هذه التفسيرات الثلاثة لا منافاة فيما بينها، ويمكن أن تجتمع في مفهوم الآية، لان الولاية في الآية جاءت مطلقة فتشمل إرتباط المؤمنين ببعضهم في أبعاد مختلفة.



وفي الآية الخامسة وبعد ذكر التجارة المربحة التي يتجر بها المؤمنون الحقيقيون مع الله. أي الجهاد في سبيله، حيث يشرون أنفسهم وأموالهم بالجنة الغالية، وبعد بيان أن الله عز وجل يبارك لهم هذه المعاملة ويعدّها فوزاً عظيماً، يلخص أوصاف هؤلاء في تسعة أمور ويقول: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وفي الواقع فإن الأوصاف الستة المذكورة أولاً، إشارة إلى مراحل العبادة والطاعة والعبودية في هؤلاء، والأوصاف الثلاثة الأخيرة (وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وحفظ الحدود) إشارة إلى جهاد هؤلاء الإجتماعي في طريق إرساء مباني الحق والعدالة وإجراء الاحكام الإلهية، وبعد هذه الأمور جاءت البشارة الإلهية لهم بشكل مطلق.

وبتعبير آخر، فإن الاوصاف الستة الاولى ناظرة إلى علاقة الخلق بالخالق، والثلاثة

الأخيرة ناظرة إلى علاقة الخلق بأنفسهم وهذه البشارة التي ذكرت في آخر الأمر تشمل سعادة الدنيا وسعادة الآخرة معاً.

* * *

وفي الآية السادسة، إشارة إلى بُعد آخر من هذه المسألة وهو البعد الحكومي، وبتعبير آخر تعتبر الآية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أحد وظائف الحكام الإسلاميين المهمة، حيث يقول عز وجل:

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾.

وفي الحقيقة فإن الوعد بنصر الله، الوارد في الآية السابقة لهذه الآية ﴿وَيُنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرْهُ﴾ مختصة بمثل هؤلاء الأشخاص، الذين إذا ما تسلموا زمام القدرة والحكم في الأرض فإنهم مضافاً إلى إدائهم الصلاة وخدمهم، يقيمونها أيضاً في كل مكان، ويؤتون الزكاة لمستحقيها، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

هذا على الرغم من أن البعض يتصور أن مراد الآية، المهاجرين فقط، ولكن من الواضح أن الآية الشريفة لها مفهوم أوسع وتشمل الجميع حتى قيام القيامة.

والنكته التي لا بد من الالتفات إليها أيضاً هي أن القرآن الكريم غالباً ما يعبر بلفظ «الإقامة» في خصوص الصلاة إلا في مورد المنافقين حيث عبر بالقيام بدل الإقامة، حيث يقول واصفاً إياهم، ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى﴾^(١).

وهذا التعبير قد يكون إشارة إلى أن المؤمنين الحقيقيين لا يؤدّون الصلاة بأنفسهم

فحسب، بل أنهم يحاولون إقامة الصلاة في كل المجتمع، وقال البعض أن ذلك إشارة إلى أن هؤلاء ليس فقط يأتون بظاهر الصلاة وصورتها بل أنهم يحاولون إقامة الصلاة بكل محتواها الحقيقي وشرائط صحتها وكمالها (والجمع بين هذين التفسيرين ليس مشكلاً).



وفي الآية السابعة والأخيرة نلاحظ نكتة أخرى حول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي أن هذين الأمرين المهمين ليسا من مختصات الشريعة الإسلامية فقط، بل أن هناك تأكيد شديد عليهما في الأمم السالفة أيضاً (وأن كانتا قد أخذتا شكلاً موسعاً وأساسياً في الشريعة الإسلامية).

فينقل لنا القرآن الكريم عن لسان لقمان ذلك الرجل الحكيم العالم:

﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ﴾.

فهنا إعتبرت الآية أن رمز إنتصار الإنسان في أربعة أمور:

إقامة الصلاة، الأمر بالمعروف، النهي عن المنكر والصبر.

وجملة ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ﴾ قد تكون إشارة إلى خصوص الصبر المذكور في الذيل، وقد تكون شاملة للأصول الأربعة جميعاً.

ولابدّ هنا من التدقيق في هذه النكتة وهي أن إقتران الصبر بمسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إشارة إلى الارتباط الوثيق بين هذين الأمرين، إذ أن أداء هاتين الوظيفتين الإلهيتين المهمتين يفترن أحياناً بالمشاكل والصعوبات، ولا يمكن

تحقق الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر إلا بالصبر والإستقامة. كما أن هذين الأمرين على إرتباط وثيق أيضاً بالصلاة، لإننا نعلم جيداً بأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، أو بتعبير آخر هي الأساس الأصلي للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾^(١).



الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الروايات:

نلاحظ في الروايات أيضاً تأكيداً كبيراً على هاتين الوظيفتين المهمتين، وتعتبرهما الضامن لإجراء كل الفرائض الإلهية والسبب الرئيس في الأمن والعمران وتحقيق العدالة.

١ - ورد في حديث عن النبي الأكرم ﷺ: «مَنْ أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَى عَنِ الْمُنْكَرِ فَهُوَ خَلِيفَةُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ، وَخَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ وَخَلِيفَةُ كِتَابِهِ»^(٢).

٢ - وفي حديث آخر عنه ﷺ نلاحظ تعبيراً أوضح، حيث كان النبي الأكرم ﷺ على المنبر فقام إليه رجل وقال: يا رسول الله ﷺ: «مَنْ خَيْرُ النَّاسِ؟» فقال النبي ﷺ: «أَمَرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَتَقَاهُمْ لِلَّهِ وَأَرْضَاهُمْ»^(٣).

٣ - وفي حديث آخر عن النبي الأكرم ﷺ: «لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَيْنَّ عَنِ

١ - العنكبوت / ٤٥.

٢ - مجمع البيان، ذيل الآية ١٠٤ من سورة آل عمران، ج ٢، ص ٤٨٤.

٣ - نفس المصدر.

الْمُنْكَرُ أَوْ لِيَعْمَنْكُمْ عَذَابُ اللَّهِ»^(١).

٤ - وفي حديث معروف أيضاً عن علي عليه السلام قال: «وما أعمال البر كلها والجهاد في سبيل الله عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا كنفثة في بحر لجي»^(٢).

٥ - وأخيراً نقرأ عن الإمام الباقر عليه السلام بياناً لفلسفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كلام مختصر مفيد حيث يقول عليه السلام: «إِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ فَرِيضَةٌ عَظِيمَةٌ بِهَا تُقَامُ الْفَرَائِضُ وَتَأْمَنُ الْمَذَاهِبُ وَتَحُلُّ الْمَكَاسِبُ وَتُرَدُّ الْمَظَالِمُ وَتَعْمُرُ الْأَرْضُ وَيُنْتَصَفُ مِنَ الْأَعْدَاءِ وَيُسْتَقِيمُ الْأَمْرُ»^(٣).

والأحاديث الواردة عن أئمة الدين الإسلامي عليهم السلام في هذا المجال كثيرة جداً إلى درجة أنها لو جمعت لصارت كتاباً مستقلاً.

* * *

وهنا ينبغي الالتفات إلى عدة نکات ضرورية:

١ - أن أحسن أنواع الحكومات، تلك الحكومة التي يشترك فيها كل الناس، وبتعبير آخر الحكومة التي يحمل أركانها أكتاف الناس، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الواقع تصميم لمسألة الحكومة وتثبيت لإشتراك عامة الناس فيها، إذ عن هذا الطريق يمكن الحد من الكثير من المخالفات، وتعريف الناس بوظائفهم الفردية والاجتماعية، ومع الأخذ بنظر الاعتبار قلة المأمورين الحكوميين (كالشرطة وقوى

١ - وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٤٠٧، الحديث ١٢ الباب الثالث من أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٢ - نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٣٧٤.

٣ - وسائل الشيعة، ج ١، ص ٣٩٥، الحديث ٦، الباب الأول.

الأمن الداخلي) قياساً إلى عدد المتخلّنين، تتضح لنا أهمية هذه الوظيفة الإسلامية أكثر فأكثر، إذ لا يمكن نظم المجتمع والحدّ من وقوع المخالفات والجرائم إلا عن هذا الطريق.

وما قيل من أنّه لو كان في داخل البيت ولد مجرم فإن أباه وأمه مسؤولان قبالة، وأنّه الولد البالغ مسؤول عن أبيه وأمه إذا ما ارتكبا ذنباً، وأنّه إذا صدر ذنب في شرق العالم وكان في غربه رجل يمكنه الحدّ من ارتكابه، فلم يفعل كان شريكاً له هذا القول، له تأثير عميق بلا شك في الحدّ من ارتكاب الذنوب والمخالفات والدّعوة إلى القيام بالفرائض والمسؤوليات.

هذا في حين أن مجتمع اليوم والحكومات الالحادية، قد أوكلت مسؤولية الحدّ من المخالفات والمفاسد على عهدة مجموعة صغيرة خاصّة فقط، ولذا فإن نتائج هذه المجموعات محدود جداً وقليل.

ومن هنا يتضح لنا عظمة وأهمية هذه الفريضة الإسلامية من جهة، وجماهيرية الحكومة الإسلامية من جهة أخرى.

ولكن هذا لا يعني أن يتصرف جميع الناس وكأنهم رجال شرطة، بل أنّ وظيفتهم على مستوى الدّعوة إلى الخيرات ومكافحة المنكرات والشّرور عن طريق النصّح والموعظة، وأحياناً عن طريق قطع الرّوابط والعلاقات الإجتماعيّة مع الفاسدين والمفسدين.

٢ - قد أشرنا في بحث التعزيرات إلى أنّها قسمٌ من أقسام الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وهو نفس القسم الذي يجري من قبل حاكم الشرع والذي لا يحق للآخرين التّدخل فيه، وكما جاء هناك، فإنّ التعزير بمعنى المنع من ارتكاب الذنب أو الحدّ من الإستمرار على ارتكابه أو تكراره، وفي هذه الطريق لا بد من الإستفادة من

قاعدة الاسهل فالاسهل: أي ينبغي البدء بالمراحل البسيطة أولاً، فإن لم تقع مؤثرة إنتقل إلى المراحل المعقدة والخشنة.

فيبدأ بالتذكير الأخوي، ثم العتاب الخفيف، ثم الشديداً، ثم عدم الإكرام وقطع الروابط، وفي النهاية الحبس والجلد والغرامات المالية والتوبيخات الإجتماعية وأمثال ذلك، فهذه هي المراحل في طريق التعزير عن المنكر، وبعبارة أخرى المصاديق المختلفة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولهذا فإن العلماء يعتمدون على أدلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الفقه عندما يبحثون الحدود والتعزيرات لإثبات مشروعيتها.

٣- لا يمكن إنكار تأثير فريضتي «الأمر بالمعروف» و«النهي عن المنكر» في تأمين العدالة الإجتماعية وإجراء القوانين ومحاربة المنكرات والحد من الجنايات وتقليل عدد السجناء، وتطوير الثقافة الإجتماعية، وقد أثبت التجارب أن المجتمعات التي تؤدي هاتين الوظيفتين بشكل صريح وقاطع ومدروس، تكون عادة مجتمعات نظيفة وسليمة ويعم الأمن والأمان فيها، وبالعكس فإن المجتمعات التي نسيت هاتين الوظيفتين والتي وقفت مكتوفة الأيدي قبال التخلّفات والمعاصي، إبتليت بعواقب سيئة، فدخل الفساد حتى في المنازل والبيوت، وفي هذا المجتمع لا يأمن أي فرد من أفرادهِ من المخاطر، وبالضبط كما ورد في الحديث الشريف عن النبي الأكرم ﷺ فإن البلاء والعذاب سيعم الجميع، وكما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «فَيُولَى عَلَيْكُمْ شَرَارُكُمْ ثُمَّ تَدْعُونَ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ»^(١).

٤- أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يبدأ عادة كما نعلم من العمل الثقافي، وعليه، فإن كلّ أجهزة الأعلام الجماعية، وكلّ مراكز الإذاعة والتلفزيون لها دخل في

رفع مستوى الإطلاع و الثقافة الجماهيرية و توجيه الناس نحو الخير و الصلاح و الطهر و الاخلاق الإنسانية الرفيعة و الفضيلة، و التنفّر من الفساد و القبائح، فلكلّ من هؤلاء موقعه في دائرة الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، وحتّى مراكز التربية و التعليم بمستوياتها المختلفة و التي تعرف الشّباب و الصّبيان على أصول العقائد الصّحيحة و الموازين الإنسانية و القوانين و الأداب الإجتماعيّة، و التي تخطوا من أجل التعليم و التربية الصّحيحين، لها موقعها الخاص في تلك الدّائرة، و ذلك لأن كل هذه الأمور يمكن أن تساهم في الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، و عليه فاذنّ دور هذه المراكز في تحقيق هذين الأصلين الإجتماعيين المهمين، واضح و جلّي.

و النّكته المهمة الأخرى هي أنّ الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، وإنّ اعتبرنا قسمين من فروع الدّين، إلّا إنّهما من جهة أخرى بدرجة من السّعة و الأهميّة بحيث يشملان قسماً عظيماً من أصول العقائد، لأن تلك الأمور مؤثرة في هذا المسير و عن طريق تحكّم أسس الإعتقادات يمكن محاربة المفاسد الإجتماعية، كما أنّ العبادات أيضاً تعتبر مقدمة لها.

٥ - خلافاً لما يراه البعض فإن الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر ليساً وظيفية عبادية، بل فلسفة عقلية واضحة (التفتوا جيداً).

و توضيح ذلك: بالإنّفات إلى العلاقات الإجتماعيّة، وأنّ أي عمل خير أو شرّ في المجتمع الإنساني لا يتحدّد بنقطة خاصة، بل يسري بأي صورة إلى النقاط الأخرى، فكل عمل قبيح يعتبر كالنار التي إذا لم تطفأ فإنّها ستسري و تحرق كل ما في طريقها و تحيله إلى رمادٍ، فمحاربة الفساد حقّ إجتماعي.

و أفضل تعبير عن هذا المطلوب هو ما ورد في الحديث النبوي المعروف حيث يقول:

(.....ص ٢٦٦.....) (١).

ومن هنا يتضح لنا، أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ليس تدخلاً في حياة الآخرين الخاصة، فلا شك في أن الإسلام يعتبر التدّخل في حياة الآخرين والتجسس في أمورهم حراماً، والقرآن الكريم ناطق بهذه الحقيقة (سورة الحجرات)، ولكن حدود الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي الإضطرابات والمفاسد الإجتماعية الفاضحة، والتي لها مدخلة مباشرة في تحديد مصير المجتمع، وأن مصير المجتمع معقود عليها، والتخلف والانحراف في كلّ فردٍ من أفراد المجتمع له أثر بالغ على المجتمع ككلّ.

وبناءً على هذا، فإنه لا يحق لأحد أن يعترض على أولئك الذين يأمرّون بالمعروف وينهون عن المنكر في مثل هذه الموارد ويقول لهم: أن هذا الأمر لا يهمكم فلا تتدخلوا فيه، فإن جواب هذا الشخص هو أن هذا الأمر يخصنا جميعاً، فإن مصيرنا مرتبط بنا جميعاً، فهل يحق لأحد أن يعترض على الدولة إذا ما عينت مأمورين للتلقيح ضد الأمراض المسرية إذا ما سرت تلك الأمراض في المجتمع ويقول للدولة: أن هذا الأمر لا يعنيكم؟ فأنا الذي أتمرّض وأنا الذي أعرض نفسي للخطر فلماذا تتدخلون في حياتي الشخصية؟!

فلا شك في أن الجميع سيجيبون ذلك الشخص بأن سلامتك ليست منفصلة عن سلامة المجتمع، ومرضك سبب لمرض أفراد المجتمع الآخرين، ولذا فإن الأمر يهم الجميع.

وعليه فلا بد من الإذعان بأن أداء هاتين الوظيفتين (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) تعتبران من أثار الحياة الإجتماعية للإنسان ومن الحقوق والواجبات

الإجتماعية.

كان هذا ملخصاً لبحث الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأثرها في تحقيق أهداف الحكومة الإسلامية.



جهاز الحسبة والمحتسب في الحكومة الإسلامية:

هذا البحث مرتبط تماماً ببحث الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو في الحقيقة غصن من أغصانه، إذ كما أشرنا فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر له شقان، شق عام يشمل جميع الناس، وشق خاص تختص به الحكومة الإسلامية، ففي هذه المرحلة قد يلزم إبداء الخشونة والشدّة وهذا ليس من شأن الناس، بل لابد أن يقوم مأمور والحكومة المدربون بهذه الوظيفة، وهذا يشكل أساس «الحسبة»^(١).

توضيح ذلك:

«الحسبة» في اللغة، إسم مصدر من مادة «إحتساب»، وكما ذكر أرباب اللغة فإنه بمعنى التسليم والصبر حيال المشكلات طلباً للإجر الإلهي، وكذلك السعي في أداء أعمال الخير لتحصيل الثواب.

ولما كان هذا الشق من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سعيً وإجتهاد وجدّ في طريق إطاعة الله ومكافحة المنكرات لنيل رضا الله، سُمي «حسبة».

يقول في كتاب «التحقيق» حول معنى مادة «حسب»: الأصل في هذا المصطلح بمعنى التحقيق والبحث والتدقيق بقصد الإمتحان.

وهذا التعبير يناسب كثيراً شغل المحتسب الذي يستخبر عن شرائح مختلفة من المجتمع ويبحث ويحقق ويراقب حركاتهم، فإن وجد إنحرافاً نبههم عليه، فإن لم ينفع واجههم بشدة.

وكانت دائرة «الحسبة» من الدوائر المعروفة في زمن الخلفاء وتشرف على فعاليات الكسبة والتجار والفلاحين وشرائح المجتمع الأخرى من حيث التخلفات والمنكرات، وكلما رأى المحتسبون مخالفة كانوا ينهون المرتكبين لها، فإن لم يؤثر فيهم التنبيه والتذكير والموعظة، كانوا يعاقبون المخالف في نفس المكان مباشرة، أو يقبضون عليه ويسلمونه إلى القاضي والحبس.

وباعتقاد البعض، فإن جذور هذه المسألة تعود إلى عصر النبي ﷺ حيث كان ﷺ يمارس عمل المحتسب بنفسه الشريفة، وتارة كان يوكل الأمر إلى شخص ينتخبه لهذا الغرض، ولكن لا بد من الإذعان إلى أن استعمال هذا المصطلح لم يكن معمولاً في ذلك العصر، وحتى في كثير من كلمات الفقهاء المتقدمين لم يكن موجوداً، ويبدو أن أول مرة إستعمل هذا المصطلح، في عصر خلفاء بني أمية وبني العباس، حيث إنتخب لهذا الشق من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وعلى أي حال، فإن الأخبار الواصلة عن عصر النبي ﷺ تدل على أن كلمة «الحسبة» وإن لم تكن متداولة في ذلك العصر بمعناها ومفهومها المعهود اليوم، ولكن مفهومها الواقعي أي النظارة على المسائل الإجتماعية من قبل الحكومة الإسلامية، كان مراعاةً تماماً حينذاك، فتارة كان الرسول ﷺ يقوم بنفسه بهذه الوظيفة وأخرى يوكلها إلى آخرين.

ومن جملة الشواهد على ذلك، ما ورد من أن الرسول ﷺ قد أمر سعيد بن سعيد بن العاص بعد فتح مكة بالنظارة على السوق، حيث ورد في الحديث:

«إستعمل رسول الله سعيد بن سعيد بن العاص بعد الفتح على سوق مكة»^(١).

حتى أن المستفاد من بعض الروايات، أن بعض النساء كن يمارسن وظيفة النظارة في المسائل النسائية (كمسائل الحجاب وامثال ذلك)، ومن جملة تلك النسوة امرأة بإسم «سحراء» بنت نهيك^(٢) الذي أدرك عصر النبي ﷺ، كانت مأمورة بالقيام بتلك الوظيفة، فكانت تدور في الاسواق وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر (وإن ذهب البعض إلى أنها لم تقم بذلك الدور في عصر النبي ﷺ وإنما كان ذلك في زمن عمر بن الخطاب)^(٣).

وفي كثير من المواضع، كان النبي الأكرم ﷺ يتولى ذلك بنفسه، خاصة في مسائل الإحتكار والغش والتدليس في المعاملة وأمثال ذلك، ومن جملة ما ورد في ذلك: «أن رسول الله ﷺ مر بالمحتكرين فأمر بحكرتهم أن تخرج إلى بطون الأسواق وحيث تنظر الأبصار إليها»^(٤) فاقترح الناس إن تُعين أسعارها، فرفض النبي ﷺ ذلك.

وفي حديث آخر، أن النبي ﷺ مر على رجل خلط طعاماً جيداً برديء فقال له النبي ﷺ في ذلك، فقال الرجل: أردت أن أبيعهُ جميعاً فقال ﷺ: «مِيزْ كُلَّ واحدٍ فيهما على حدة، ليس في ديننا غش»^(٥).

وجاء في عهد الإمام علي عليه السلام إلى مالك الأشر:

(امنع من الإحتكار فإن رسول الله ﷺ منع منه، وليكن البئع بيعاً سَمِعاً

١ - التراتيب الإدارية، للكتاني، ج ١، ص ٢٨٥ (ينقل الرواية عن ابن عبد البر في الإستيعاب).

٢ - نهيك على وزن شريك، وفي الأصل بمعنى الجمل القوي، والسيف القاطع، ويقال للرجال القاطعين الحازمين أيضاً.

٣ - نفس المصدر.

٤ - وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٣١٧، الحديث ١ الباب الثالث.

٥ - كنز العمال، ج ٤، ص ١٥٩.

بموازين عدلٍ، وأسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع، فمن قارف حُكْرَةً بعد نهيك إياه، فنكّل به وعاقبته في غير إسراف»^(١).

ونقرأ أيضاً في أحوال الإمام عليّ عليه السلام أنّه كان يتولى بنفسه الأمور المرتبطة بالحسبة، فكان أحياناً يمرُّ في سوق القصابين وينهاهم عن المخالفة^(٢).

وكان عليه السلام يمرُّ تارة في سوق السّماكين وينهاهم عن بيع الأسماك المحرّمة^(٣). ولكن، وبمرور الزّمان، اتسعت مسألة «الحسبة» واتخذت تدريجياً صورة دائرة مهمة من دوائر الدولة الإسلاميّة، فكان المأمورين بإسم «المحتسبين» يدورون في الأزقة والأسواق والشّوارع الكبيرة ليل نهار ويراقبون الأمور الاجتماعيّة، المختلفة، فيعاقبون المتخلفين في محل إرتكاب المخالفة أحياناً، وأحياناً أخرى يأخذونه إلى القاضي (كما في مأموري شرطة المرور هذه الأيام).

وأتسعت دائرة «الحسبة» إلى درجة أنّ «جرجي زيدان» المؤرخ المعروف ذكر في كتابه «تاريخ الحضارة الإسلاميّة» يقول:

.....يراجع المصدر تاريخ الحضارة الإسلاميّة جرجي زيدان.

ومن مجموع هذا الكلام والمطالب الأخرى المذكورة في الكتب المصنفة في «الحسبة»، يظهر أنّ «دائرة الحسبة» كانت تتولى كثيراً من الأمور التي تتولاها اليوم الدوائر الحكوميّة كأمانة العاصمة والقوى الداخليّة، وقوى التعزيرات والغرامات الحكوميّة، والتّربية والتعليم، والقضاة، وأنها أحد أركان الحكومة الإسلاميّة الفعالة، وخاصة في دورها الواضح والبارز في محاربة المنكرات، ولذا فإنّ أشعار الشعراء

١ - نهج البلاغة، الكتاب ٥٣.

٢ - كنز العمال، ج ٤، ص ١٥٨.

٣ - وسائل الشيعة، ج ١٦، ص ٣٣٢.

تضمنت مصطلح «المحتسب» و وظائفه بشكل موسع.

والمستفاد من مجموعة من المصادر أنّ القيام بوظيفة «المحتسب» كان من الواجبات الكفائية بين المسلمين، إذ كما قلنا فإن «الحسبة» فرع من فروع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى أنّ بعض النساء كنّ يُنتخبن لهذه الوظيفة ليشرفن على تحركات النساء الإجتماعية.

ونقرأ في «دائرة معارف دهخدا» (فارسي) في بحث «وظائف المحتسب» يقول: إنّ وظيفة المحتسب أولاً: النظارة على إجراء المقررات الشرعية والمنع من ارتكاب المحرمات، وثانياً: النظارة على صحة جريان الأمور المرتبطة بالمصالح العامة للمجتمع ورفاههم وحياتهم، وكذلك الحدّ من سدّ الطرقات العامة والأزقة من قبل بعض المتخلفين والباعة... والإشراف على الوزن، وما هو اليوم في عهدة «البلديات» وهذه الوظائف كان في الأصل في عهدة القاضي، ولكنهم جعلوها شغلاً مستقلاً لكي لا يبتلي القاضي بها^(١).

ويذكر في نفس الكتاب وظائف المحتسب نقلاً عن كتاب «معالم القرية» والذي قد يكون أجمع كتاب كتب في أحكام الحسبة، حيث يذكر ما يظهر منه أنّ شغل المحتسب يشمل النظارة على أنواع الكسب والتجارات وموارد الإنتاج والخدمات والتربية والتعليم.

ومن جملة الموارد. نظارتهم على أمور المنكرات في الأزقة والإسواق ومراقبة صحة الوزن والمكيال وأمر الأفران والمخابز، والأموال الصحية والمسالخ والتدقيق في صحة الذبح وشرائطه، والحمامات العامة، والأطباء والمعلمين والمؤذنين وخدمة المساجد والوعاظ والكتاب، وكذا النظارة على أشغال التجارة، والملاحين،

والمعمارين والبنائين، والسماسرة والصرافين والصاغة وأمثالهم^(١).

وفيما يرتبط بالفرق بين مسألة «الحسبة» ومسألة «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» ذكرت بعض الكتب مثل «الأحكام السلطانية» فروقاً كثيرة بينهما بلغت تسعة فوارق^(٢).

ويمكن في الواقع تلخيص تلك الفروق في جملة واحدة وهي أن «الحسبة» هي الشق الحكومي للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والذي يمكن التوصل به في موارد اللزوم، وعليه فالمحتسب يُعَيَّن من قبل الحكومة، وله أعوان وأنصار، وظيفتهم الإشراف والنظارة على المسائل الاجتماعية المذكورة، وهؤلاء يستلمون مرتباتهم الشهرية من صندوق بيت المال، ويلقون القبض على المتخلفين ويعزروهم ويعاقبونهم على النحو الذي مرَّ، وأما الشق العام للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا يكون بهذا النحو.

* * *

١ - نفس المصدر السابق.

٢ - الأكام السلطانية، ص ٢٤.

الرّكن الرّابع:

التّربية والتّعليم

تمهيد:

يعتبر نشر الثقافة الصحيحة والتربية والتعليم أحد أركان الحكومة الإسلامية المهمة، وبالنظر إلى الإنسان موجود ثقافي، أي أن أعماله وسلوكه نتاج مجموعة تفكيراته وإطلاعاته، لذا فأيّ إصلاح وتحول في وضع المجتمع غير ممكن ما لم يتم النفوذ إلى فكر وروحه.

ولذا تحاول الدول العظمى النفوذ في ثقافة المجتمعات ووسائل الإعلام العامة كالمطبوعات (الكتب والجرائد والمجلات) والإذاعة والتلفزيون وأمثال، من أجل تحقيق أهدافها السياسية والاجتماعية والعسكرية والاقتصادية المختلفة، ويعتبر ذلك ركناً من أركان تلك الحكومات وقوة رابعة تضاف إلى القوى الثلاثة (القوة التشريعية، التنفيذية والقضائية)، بل إنّ الكثيرين يعتبرون ذلك من أهم أركان المجتمع ويراهنون عليه كثيراً.

وهذه واقعية لا مبالغة فيها، إذ أن وسائل الإعلام العامة لو إستغلت في طريق نشر الثقافة الصحيحة السالمة المبرمجة المؤثرة، لكان جو التشريع والقضاء والتنفيذ سالماً، ثمّ التخفيف من ذلك العبء الثقيل، ولأدّى أفراد المجتمع وظائفهم بشكل طبيعي ومنظم.

والملفت للنظر هو أن منهج الحكومة الإسلامية المستنبط من القرآن المجيد والسنة القطعية، والمقرر قبل أربعة عشر قرناً، كان قد إهتم فوق حد التصور بمسائل التربية والتعليم والتبشير والإنذار، وقد إعتد برامج عديدة ومتنوعة لتحقيق هذا

الغرض.

والموضوع القابل للتأمل هو أن أبرز أنواع الحكم الإسلامي وهو حكومة الرسول الأكرم محمد ﷺ، بنيت على أساس ثورة ثقافية، فقد إهتم الرسول ﷺ طيلة الثلاثة عشر سنة التي قضاها في مكة بالتربية والتعليم ونشر الثقافة الإسلامية والعقائد، وقد ربى أصحابه وعلمهم بحيث صار كل منهم لبنة أساسية في بناء الحكومة الإسلامية، أي أن الثورة السياسية والاجتماعية والنظام الإسلامي قام على أساس نفس تلك الثورة الثقافية.

ويعتبر إحياء الفكر والتفكير، المادة الأولية لكل البرامج الإسلامية، حتى أن الرسول الأكرم ﷺ كان يطلب من مخالفيه هذا الأمر فقط وكما ورد في القرآن المجيد: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِيَارِكُمْ ثُمَّ تَقَفُّوا...﴾^(١).

وفي حديث عن النبي الأكرم ﷺ: «إِنَّ التَّفَكُّرَ حَيَاةُ قَلْبِ الْبَصِيرِ، كما يمشي المُسْتَنِيرُ فِي الظُّلُمَاتِ بِالنُّورِ»^(٢).

وفي حديث عن الإمام علي عليه السلام قال: «بِالتَّفَكُّرِ تَنْجَلِي غِيَاهِبُ الْأُمُورِ»^(٣).

وأخير ورد في حديث معروف: «تَفَكَّرْ سَاعَةً خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سِتِّينَ سَنَةً»^(٤).

وعلى هذا الأساس، سنتناول بالبحث الأمور التالية، مستلهمين من القرآن الكريم:

١ - نشر العلم، والتربية والتعليم في الإسلام.

٢ - أهمية العلم لا تنحصر بالعلوم الدينية.

٣ - تعلم العلوم المفيدة، في الروايات الإسلامية.

١ - سورة سبأ / ٤٦.

٢ - بحار الأنوار، ج ٨٩، ص ١٧.

٣ - غرر الحكم.

٤ - بحار الأنوار، ج ٦٦، ص ٢٩٣.

٤ - مقام المعلم في الإسلام ...

* * *

١ - التربية والتعليم في الإسلام:

وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة في «التعليم» و«التعلم» و«نشر العلم»، وذكر كل تلك الآيات لا يسعه هذا المختصر ولذا سنشير هنا إلى بعض تلك الآيات فقط:

١ - ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾^(١).

٢ - ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾^(٢).

٣ - ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٣).

٤ - ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٤).

٥ - ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرَ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾^(٥).

١ - الطلاق - ١٢

٢ - البقرة - ١٥١

٣ - البقرة - ١٢٩

٤ - النحل - ٤٣

٥ - التوبة - ١٢٢

٦- ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^(١).

٧- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَاهْدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾^(٢).



فبنظرة إجمالية إلى هذه الآيات السبع التي إنتخبناها من بين عشرات الآيات القرآنية حول التعليم والتربية، يتضح لنا إهتمام الإسلام البالغ بهذا الأمر المهم. ففي الآية الأولى، يعتبر العالم كله بمثابة جامعة خُلِقَتْ جميع الموجودات فيه لتعليم الإنسان وزيادة إطلاعه، والهدف هو أن يتفكر الإنسان في أسرار هذه الكائنات، فيتعرف على علم وقدرة الخالق، ويتعبير آخر، الهدف من عالم الخلقة كله هو العلم والمعرفة حيث يقول عز وجل:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ.... كُلُّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٣).

١ - البقرة - ٢٦٩

٢ - البقرة - ١٥٩

٣ - فُسِّرَتِ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ بتفسيرات عديدة، منها تفسير معروف وهو أن كل ما نراه من سماوات وكرات سماوية ونجوم سيارة وثابتة، مرتبط بالسَّماء الأولى، وما بعدها ستة عوالم أخرى عظيمة جداً، واحد تفاسير الأرضين السَّبع هو أن ما يوجد فوقنا من عوالم يوجد مثله تحت أرجلنا وهذا المعنى بينه الرسول الأكرم ﷺ في عبارة رائعة حيث سأل أصحابه هل يعرفون ما تحت أرجلهم فقالوا الله ورسوله أعلم فقال ﷺ: «الأرض وتحتها أرض أخرى بينهما خمسمائة عام» (تفسير روح البيان، ج ١٠، ص ٤٤). وللإطلاع أكثر على معنى السماوات السبع راجعوا التفسير الموضوعي، ج ٢ ص ١٧٨.

وهذا في الحقيقة مطلب ظريف وهو أن خلق السماوات وخلق الأرضين وتديرهما الدائمي، يكون وسيلة لتحريك حس الإطلاع عند الإنسان للتفكر والتأمل في أسرار العالم، وبالنتيجة التيقن من علم الله وقدرته، فكل تلك الأمور إذن مقدمة لتربية النفس الإنسانية والقرب إلى الله، وللإطلاع على أن أحكام الشريعة كأحكام الخلقة، مبنية على حسابات دقيقة، فالخلقة إذن من أجل العلم.



وتشير الآية الثانية إلى الهدف من بعثة نبي الإسلام ﷺ، وتعتبره أن الهدف هو التعليم والتربية في ظل تلاوة آيات الله، حيث تقول:

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾.

فهنا لم يحصر الهدف من البعثة في تعليم الكتاب والحكمة، بل تعليم الأمور التي لم يكن بالإمكان التعرف عليها إلا بنزول الوحي، ولذا يقول: ﴿ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾.

وبهذا يكون الهدف من الخلقة تطوير المعرفة، والهدف من البعثة كذلك هو توسعة ونشر العلم والحكمة وتهذيب وتربية النفوس.



والمستفاد من الآية الثالثة هو أن هذا الهدف الكبير أي التربية والتعليم والحكمة،

ورد في دعاء إبراهيم الخليل عليه السلام لهذه الأمة، حتى إنه يطلب ذلك من الله عز وجل ويقول:

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

وهذا يدل على أن هذين الهدفين (التربية والتعليم) كانا من الأهداف المعروفة في الأمم السابقة أيضاً.

والملفت للنظر هو أنه ورد في هذه الآية وبعض الآيات الأخرى الواردة في هذا المضممار، الحديث عن تعليم الكتاب وتزكية النفس إضافة إلى تعليم الحكمة، وفيما يرتبط معنى «الحكمة» وردت تفسيرات كثيرة ومختلفة.

الأول: إن المراد منها هو العلوم الدينية والتعرف على أحكام الدين، والثاني: إن المراد منها هو سنة النبي الأكرم صلوات الله وسلامه عليه، لأنها ذكرت إلى جنب كتاب الله، وقال البعض الآخر أن المراد من الحكمة هو العلامات والفوارق التي تميز الحق من الباطل، وقيل أيضاً أن الحكمة بمعنى الآيات المتشابهة التي لا بد أن يُعلمها الرسول بنفسه للآخرين^(١).

لكن وبالتأمل في أصل لفظ «الحكمة» في اللغة، والتي جاءت بمعنى المنع من الجهل والخطأ، ووضع كل شيء في موضعه، يبدو أن المراد من الحكمة هنا الإطلاع على أسرار وعلل ونتائج الأحكام، وأسرار خلق الكون والإنسان، ومصيره ونهايته.



وفي الآية الرابعة إشارة إلى قاعدة كلية هي أساس مسألة التربية والتعليم، حيث

يقول عزَّ وجلَّ: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وهذه الآية وإن وردت في صفات الأنبياء السابقين عليهم السلام وإنهم كانوا من جنس البشر، وأنه لا فرق بينهم وبين سائر البشر في الظاهر، ولكننا نعلم أن مورد الآية لا يحدّد مفهومها الواسع، بل الحكم باقي على عموميته.

وهذا في الواقع أصلٌ أساسي يذعن بصحته كل عقلاء العالم، وهو أن غير أهل العلم يتعلمون من أهل العلم، إذ أن العلوم والمعارف الحقيقة محصول التفكير والتأمل والتجارب التي إكتسبها القدماء، والتي يضعونها تحت إختيار الأجيال القادمة، وهؤلاء يضيفون عليها ويسلمونها للأجيال اللاحقة، وهكذا يتكامل العلم والمعرفة البشرية يوماً فيوماً، كذلك ولهذا الدليل تعتبر مسألة التربية والتعليم الأساس الأول لكل تطور ورقي إجتماعي في البعد المعنوي والمادي.

ونقلت عبارة عن الغزالي توضح هذا المطلب أكثر، وهي أنه سئل عن كيفية حصوله على هذه الإحاطة العلمية بأصول وفروع الإسلام، فأجاب بتلاوة هذه الآية: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١).

وقد فسّرت الروايات العديدة الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، الذكر بمعنى الأئمة المعصومين عليهم السلام^(٢) ولكن وكما تعلم أن هذه التفاسير ليست بمعنى الحصر، بل في بيان المصداق الأتم والأكمل لها، وشبيه هذا المعنى نلاحظه في تفسير كثير من آيات القرآن.

* * *

١ - تفسير روح البيان، ج ٥، ص ٣٧.

٢ - للإطلاع على هذه الروايات يراجع ج ٢ من تفسير البرهان ص ٣٦٩، والملاحظ أن هذا التعبير ورد في روايات أهل السنة أيضاً (راجع شواهد التنزيل للمسكاني ج ١، ص ٣٤٤، وأحقاق الحق، ج ٣، ص ٤٨٢).

والآية الخامسة تقسم المسلمين إلى مجموعتين: «المعلمين والمتعلمين»، وفي الواقع لا بد أن يكون المسلم فرداً من أفراد إحدى المجموعتين، فأمّا أن يكون معلماً أو متعلماً حيث يقول عز وجل:

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

وقد استند كثير من العلماء على طول التاريخ على هذه الآية الشريفة لإثبات لزوم تعلم العلوم الإسلامية لا يلاغها إلى الآخرين بعنوان الواجب الكفائي، مضافاً إلى أنهم يوجبون التعلّم للعمل على الجميع وجوباً عينياً.

وفي عالم اليوم، يعتبر طلب العلم في كثير من الدول إلزامياً، فيجب على كلّ طفل أن يتعلم وإلاّ استدعي وليّه من قبل الجهات المسؤولة، ولكن التّعليم ليس إلزامياً في أي مكان من العالم، بل الناس مخبرون بين انتخاب التّعليم وعدمه.

وأما في الإسلام، فإنه كما يعتبر تحصيل العلم واجباً، فكذلك تعليم الآخرين فإن فيه جنبه الالتزام والوجوب، وأحد الأدلة على ذلك هو نفس آية النّفرة هذه، فإنها من جهة توجب تحصيل العلم بجملة ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾^(١).

ومن جهة أخرى فإنها توجب التّعليم، بجملة ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ ولا شك في أنّ كلّ ذلك ومقدّمة للقيام بالتكاليف الإلهية، والذي تخلص في جملة: ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

ولهذا، فإن بعض علماء الإسلام، كان أحياناً يطوي المسافات البعيدة لأيام عديدة وينتقل من بلدٍ إلى آخر لتعلّم حديثٍ واحد!، ومن جملة هؤلاء - كما ذكر

١ - طبقاً لأقوال علماء الأدب فإن «لولا» تحضيضية، وهي في مقام اللوم التّقريع ومن الواضح فإن التّقريع إنما يكون على ترك الواجب أو فعل الحرام.

التاريخ - «جابر» الذي سافر من «المدينة» إلى «مصر» ليسمع حديثاً واحداً من أحد العلماء الذي كان يروي ذلك الحديث، ولذا قيل بأن أحداً لا يصل إلى مرحلة الكمال إلا بالسفر (والإلتقاء بعلماء البلاد المختلفة والإستفادة من علومهم وتجاربهم)، وأن أحداً لا يصل إلى مقصوده إلا بالهجرة^(١).

ونقرأ في قصة الخضر وموسى عليه السلام والتي وردت الإشارة إليها في سورة الكهف كيف أن هذا النبي الكبير (موسى)، كان قد طوى طريقاً طويلاً وشاقاً حتى وصل إلى هذا العبد الصالح (الخضر) وتعلم شيئاً من علومه.



وفي الآية السادسة. نواجه تعبيراً مهماً آخر حول تعلُّم العلم والمعرفة، يقول عز وجل: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾.

بداهة أن المنظور من تعبير ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ ليس هو أن يعطي الله الحكمة والعلم لهذا وذاك بلا مبرر وبدون مقدمة، بل وكما تعلم فإن «مشيئة» الله وإرادته منسجمة دائماً مع «حكيمته»، أي أنه يؤتي الحكمة من كان لائقاً بها، وهذه اللياقة إنما يحصل عليها الإنسان عن طريق الجهد والسعي وتحمل عناء ومشقة تحصيل العلم، أو بواسطة جهاد النفس والتقوى التي تعتبر منبع النظرة الصائبة والفرقان الإلهي.

واللطيف في هذا الأمر هو أن الآية الكريمة تعبر عن العلم والحكمة بعبارتين ﴿خَيْرًا كَثِيرًا﴾ وهو تعبير جامع يشمل كل الحُسن والخَيْر، خير الدنيا والآخرة، والخير

المادي والمعنوي، والخير في كل الجهات.

وللمفسر الكبير، المرحوم العلامة الطباطبائي (ره) نكتة في هذا المقام يقول: أن جملة ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ﴾ جاءت بصيغة المبني للمجهول، في حين أن الجملة التي قبلها جاءت بصيغة المعلوم حيث قال تعالى ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾ وماذا إلا ليبين بأن الحكمة والمعرفة ذاتاً منبع خير كثير، لا من جهة الإنتساب إلى الله المتعال فقط، بل أن ذات وحقيقة العلم خير كثير^(١).



والآية الأخيرة، إشارة إلى بُعد آخر في هذه المسألة، حيث ورد فيها ذم شديد لأولئك الذين يكتمون العلم والمعرفة، حيث يقول تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾.

والتعبير بلعن الله ولعن اللاعنين من أشدّ التعبيرات التي أستخدمت في القرآن المجيد في ذنب من الذنوب، وهذا دليل على قبح كتمان العلم والهدى إلى أبعد الحدود، بالخصوص تلك العلوم والمعارف التي تكون أساساً لهداية الناس.

وفي الآية التي تلي هذه الآية مباشرة من سورة البقرة، ذكر تعالى الطريق الوحيد للتوبة من هذا الذنب الكبير وهو تبين المسائل المكتومة بعد الندم والعودة إلى الله، وهذا بنفسه دليل واضح على أن جبران «كتمان العلم» لا يتحقق إلا بتبينه حيث يقول تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا فَاُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ

الرَّحِيمُ».

وهذه الآية وإن نزلت في أهل الكتاب الذين كتموا علامات نبي الإسلام ﷺ المذكورة في كتبهم، إلا أن مفهومها أوسع من ذلك، فتشمل كتمان كل علم من العلوم يكون سبباً في هداية الناس، والروايات الواردة عن المعصومين عليه السلام تشهد بهذا الأمر وأن المراد من العلم مفهومه المطلق، يقول النبي الأكرم ﷺ: «مَنْ سَثَلَ عَنْ عِلْمٍ يَعْلَمُهُ فَكَتَمَهُ، أُجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ»^(١).

وفي حديث آخر عنه ﷺ نلاحظ تعبيراً أوضح من الأول حيث يقول ﷺ: «مَنْ كَتَمَ عِلْماً نَافِعاً عِنْدَهُ، أُجِمَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ»^(٢).

ومن الواضح أن هذا التعبير يشمل كل العلوم المفيدة للإنسان في مجالٍ من المجالات.

وقد نُقل هذا المعنى بصراحة في حديث آخر عنه ﷺ أيضاً حيث يقول ﷺ: «مَنْ عِلِمَ شَيْئاً فَلَا يَكْتُمُهُ»^(٣).

٢ - أهمية العلم لا تنحصر بالعلوم الدينية:

قد يتصور البعض أن كل تلك التأكيدات الواردة في الآيات القرآنية والروايات الشريفة في التعلّم والتّعليم ونشر العلوم، ناظرة إلى العلوم الدينية فقط، ولا تشمل ما يرتبط ببحث الحكومة الإسلامية ونشر كل العلوم وهو مورد حديثنا!

ولكن هذا إشتباه كبير، إذ أن الاستفادة من آيات القرآن، ومن الروايات الإسلامية

١ - مجمع البيان، ج ١ - ٢، ص ٢٤١، ذيل الآية.

٢ - كنز العمال، الحديث ٢٩١٤٢، ج ١٠، ص ٢١٦، بحار الأنوار، ج ٢، ص ٧٨.

٣ - كنز العمال، الحديث ٢٩١٤٥.

أيضاً، هو أهمية العلم والتربية والتعليم بشكل مطلق.

والشواهد على هذا المعنى كثيرة، من جملتها الآيات القرآنية الشريفة التالية:

١ - ورد في قصة آدم عليه السلام، مسألة تعليم الأسماء، وهي إشارة إلى العلم والإطلاع على أسرار خلقه تمام الموجودات، لا فقط العلوم الدينية، يقول عز وجل:

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأُمَاءَ كُلَّهَا﴾^(١).

٢ - تعرضت الآية الرابعة من سورة الرحمن التي تعدد نعم الله تعالى وآلائه إلى تعليم البيان، واعتبرته موهبة إلهية عظيمة بقول تعالى: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾^(٢).

٣ - ورد في سورة يوسف عليه السلام إشارة إلى علم تفسير الأحلام التي تحكي عن المستقبل والتي قد يكون لها أثر في مصير الأمم كشعب مصر، وتأويل تلك الأحلام، حيث يحكي عن لسان يوسف ويقول:

﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾^(٣).

٤ - وفي نفس تلك السورة، يشير إلى مسألة تدبير أمر دولة كاملة والإطلاع على إدارة بيت المال، حيث يحكي عن لسان يوسف مخاطباً عزيز مصر:

﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾^(٤).

٥ - (وفي أمر إدارة الدولة هذا) قصة طالوت وجالوت، عندما يُبين دليل انتخاب طالوت ملكاً من قبل نبي ذلك العصر (اشموئيل)، تقول:

﴿إِنَّ اللَّهَ إِصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾^(٥).

١ - البقرة - ٣١

٢ - الرحمن - ٤

٣ - يوسف - ٣٧

٤ - يوسف - ٥٥

٥ - سورة البقرة - ٢٤٧

ومن الواضح أنَّ إمتياز طالوت على سائر بني إسرائيل لم يكن في العلوم والمعارف الإلهية فقط، بل كان العلم والقدرة الإدارية للأمور العسكرية والسياسية في هذا الشاب الذكي المدبّر مورد نظر في الإستدلال.

٦ - وفي قصة داود عليه السلام يعتبر تعليم صنعة لبوس من إمتيازاته الكبيرة بل - على رأي الطبرسي في مجمع البيان أنَّ «لبوس» يشمل كل أنواع الاسلحة الدفاعية والهجومية، ولا تختص بالدرّوع^(١)، يقول عز وجل:

﴿وَعَلَّمْنَاهُ صُنْعَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِيَتَحَصَّنَكُمْ مِنْ بِأْسِكُمْ﴾^(٢).

٧ - وتحدث سورة الكهف عن قصّة موسى والخضر والعلوم المعارف التي تعلمها موسى عليه السلام من الخضر عليه السلام، ونلاحظ أن أياً منها لم يكن من العلوم الدينية، بل كانت من العلوم التي تدير المجتمع الإنساني طبق نظام أحسن، يقول تعالى:

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾^(٣).

ثم يذكر في الآيات اللاحقة ثلاثة نماذج لهذه العلوم وهي ليست من العلوم الدينية، بل مرتبطة بتدبير الحياة.

٨ - ورد في سورة النمل الحديث عن إطلاع سليمان وعلمه بحديث الطير ومنطقة، ويعتبر ذلك من الأمور التي كان سليمان نفتخر بها ويتباهى، يقول:

﴿وَقَالَ أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾^(٤).

٩ - وفي أواخر سورة الكهف وفي قصّة ذي القرنين، ورد الحديث عن بنائه السّد

١ - مجمع البيان - ذيل الآية ٨٠ من سورة الأنبياء عليهم السلام ولكن هناك قرائن في الآية تشير جميعها إلى أنها إشارة إلى الدرّع.

٢ - الأنبياء - ٨

٣ - الكهف - ٦٥

٤ - النمل - ١٦

وإنه حادثة مهمة حتى أنها تبين بعض الجزئيات في عملية بناء ذلك السد وكيفية تدبير أمر بناء سدٍّ محكم قوي حديدي للحدِّ من هجوم القبائل الفاسدة والمفسدة (يأجوج ومأجوج)، يقول تعالى:

﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ أَنفَخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾^(١).

١٠- وفي سورة لقمان أيضاً، وردت آيات في بيان وصايا لقمان لابنه، حيث نرى مجموعه من الإرشادات لها جنبه إجتماعية وإدارية، يعتبر رعايتها والإهتمام بها من الأمور المهمة في حياة كل فردٍ، من جملتها إنه قال:

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾^(٢).

هذا في حين أن الله تعالى كرَّم لقماناً لعلمه وحكمته ومعرفته، حتى قرن كلامه بكلامه تعالى!

١١- وفي سورة سبأ وفي بيان أحوال سليمان، ورد الحديث عن برامجه العمرانية والفنية المتشعبة والتي كان الجن يقومون بها تحت إشرافه:

﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾ (سبأ -

(١٣).

وفي الآية السابقة على هذه الآية، وردت إشارة إلى تعلم سليمان إذابة الفلزات، حيث يقول تعالى: ﴿وَأَسْلَمْنَا لَهُ الْكُفْرَ﴾^(٣).

١ - الكهف - ٩٦

٢ - سورة لقمان - ١٨ - ١٩

٣ - سبأ - ١٢

١٢ - يقول في سورة البقرة، في ما يرتبط بحكومة داود النَّبِيِّ:
﴿وَقَتَلَ دَاوُدَ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾^(١).

ومن الواضح، فإن العلم والحكمة هنا، هي المعرفة اللازمة بتدبير المُلْك والمملكة وإن كان لها معنى أوسع من ذلك، فإنها بلا شك تشمل هذا القسم من العلوم وهو المرتبط بالحكومة وإدارة الدولة.



ومن مجموع الإشارات التي وردت في الآيات أعلاه والبعض الآخر من آيات القرآن المجيد، يمكن الإستفادة بوضوح بأنه وخلافاً لتصور البعض من أن القرآن الكريم قد إهتم فقط بالعلوم الدينية والمعارف الالهية، وأنه لم يتعرض لأهمية العلوم الأخرى، يتبين لنا أن القرآن الكريم قد إهتم بتعليم وتعليم هذه الأقسام من العلوم وعدّها من المواهب الإلهية العظيمة، وهو يحفّز المسلمون على تعلمها وتعلّم كلّ علم مفيد ونافع في الحياة المادية والمعنوية.



٣ - تعلّم العلوم المفيدة في الروايات الإسلامية:

وفي الأحاديث الإسلامية أيضاً (وتبعاً لآيات القرآن المجيد) لم يكتفى بالتشويق والترغيب لتعلم العلوم الدينية فقط، بل نجد أن الروايات قد إهتمت بالترغيب لتعلم

العلوم المفيدة في الحياة المادية والمعنوية مضافاً إلى العلوم الدينية وإليك نماذج من تلك الروايات الشريفة:

١ - ورد في حديث معروف عن النبي الأكرم ﷺ إنه قال:

«اطْلُبُوا الْعِلْمَ وَلَوْ بِالصِّينِ فَإِنَّ طَلَبَ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ»^(١).

وينبغي الالتفات إلى أن الصِّين في ذلك الوقت كانت أبعد دولة معروفة، وعليه فإن المراد من ذكر الصِّين هو التمثيل للبعد في المسافات في الرواية.

ومن البديهي، فإن ما كان في الصِّين من العلوم لم يكن من العلوم الدينية والمعارف القرآنية، إذ لم تكن الصِّين مركزاً من مراكز الوحي، بل كان المراد من العلوم الدنيوية للمفيدة:

٢ - وفي حديث آخر عن أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام، قال: «الْحِكْمَةُ ضَالَةٌ الْمُؤْمِنِ فَاطْلُبُوهَا وَلَوْ عِنْدَ الْمُشْرِكِ»^(٢).

ومن الواضح، أن ما عند المشركين ليس من العلوم الدينية ومعارف التوحيد، بل كان عندهم بعض العلوم المفيدة الأخرى النافعة في الحياة.

ومن مثل هذه الأحاديث، يتداعى إلى الذهن الشعار المعروف «العلم ليس له وطن» ويؤكد على أن العلم ضالة المؤمن، وقد ورد في حديث آخر: «كَلِمَةُ الْحِكْمَةِ ضَالَةٌ الْمُؤْمِنِ فَحَيْثُ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا»^(٣).

٣ - وفي حديث معروف عن النبي الأكرم ﷺ: «الْعِلْمُ عِلْمَانِ عِلْمُ الْأَدْيَانِ وَعِلْمُ الْأَبْدَانِ»^(٤) (فالعلم الأول أساس سلامة الروح والثاني أساس سلامة جسد

١ - بحار الأنوار: ج ١، ص ١٨٠، وكنز العمال، الحديث ٢٨٦٩٧.

٢ - بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٣٤.

٣ - بحار الأنوار، ج ٢، ص ١٩٩، الحديث ٥٨.

٤ - بحار الأنوار، ج ١، ص ٢٢٠، الحديث ٥٢.

الإنسان).

٤- وفي حديث آخر عنه عليه السلام قال:

«الْعِلْمُ ثَلَاثَةٌ: الْفِقْهُ لِلْأَدِيَانِ وَالطَّبُّ لِلْأَبْدَانِ وَالنَّحْوُ لِللِّسَانِ»^(١).

فهنا يبين ثلاثة أقسام مهمة من العلوم الإلهية والبشرية، وهي العلوم الدينية وعلم الطب والنحو الذي هو مفتاح العلوم الأخرى.

٥- وفي حديث آخر عن أمير المؤمنين علي عليه السلام:

«الْعُلُومُ أَرْبَعَةٌ الْفَقْهُ لِلْأَدِيَانِ وَالطَّبُّ لِلْأَبْدَانِ وَالنَّمُوُّ لِللِّسَانِ وَالنَّجُومُ لِمَعْرِفَةِ الْأَزْمَانِ»^(٢).

٦- وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام يقول فيه:

«وَكذلك أعطى (الإنسانَ) علم ما فيه صلاح دُنياه كالزَّراعة والغراس واستخراج^(٣) الأرضين واقتناء الأغنام والأنعام واستنباط المياه ومعرفة العقاقير التي يُتَشَفَى بها من ضروب الأسقام، والمعادن التي يستخرج منها أنواع الجواهر، وركوب السفن والغوص في البحر... والتصرّف في الصناعات ووجوه المتاجر والمكاسب»^(٤).

وبهذا، يعتبر الإمام الصادق عليه السلام أن جميع هذه العلوم من المواهب الإلهية وأنه يحفّز ويرغب الناس على تعلّمها.

٧- وفي حديث عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضمن بيان حقوق الأبناء على الآباء، قال:

١ - بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٤٥، الحديث ٥٢.

٢ - بحار الأنوار، ج ١، ص ٢١٨.

٣ - بما أن استخراج العادن ذكر في الفقرات اللاحقة، فلا يبعد أن المقصود من استخراج الأرضين هو تحضير الأراضي الموات لزراعتها.

٤ - بحار الأنوار، ج ٣، ص ٨٣.

«وَيُعَلِّمُهُ كِتَابَ اللَّهِ وَيُطَهِّرُهُ وَيُعَلِّمُهُ السَّبَاحَةَ»^(١).

فمن هذا الحديث، يستفاد بوضوح بأن تعليم فنِّ السباحة أيضاً أخذ بنظر الاعتبار لدى مشرع الإسلام، وأوصى بتعليمه إلى الأبناء.

٨ - وفي حديث عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: «وَبَعْدَ عِلْمِ الْقُرْآنِ مَا يَكُونُ أَشْرَفَ مِنْ عِلْمِ النُّجُومِ وَهُوَ عِلْمُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْصِيَاءِ وَوَرِثَةُ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ»^(٢).

* * *

فالمستفاد من مجموع الآيات والروايات المذكورة أعلاه، وروايات أخرى يطول المقام بذكرها جميعاً، هو أن الإسلام أسَّس نهضة علمية واسعة، وأن هذه النهضة المباركة نمت وترعرعت خلال قرنين أو ثلاثة وتشعبت تلك الشجرة المباركة حتى عمَّت غصونها كلَّ العالم الإسلامي، وأثمرت في فترة وجيزة ثماراً كثيرة منها الكتب الكثيرة التي أُلِّفَتْ وصُنِّفَتْ في مختلف الفروع العلميَّة كالمعارف الإلهيَّة والفلسفيَّة والطب والصَّحة والجغرافيا والفيزياء والكيمياء وغير ذلك، وتُرجم بعضها وحقَّق البعض الآخر ونشرت بصورة تحقيقات جديدة لعلماء الإسلام.

العلماء الذين بحثوا تاريخ الحضارة الإسلاميَّة وكتبوا كتباً في ذلك ومنهم علماء الغرب خصصوا فصلاً مهماً من تاريخ الحضارة الإسلاميَّة للنهضة العلميَّة عند المسلمين، وعدَّدوا فروع علوم مختلفة إنتشرت واتخذت رونقاً خاصاً عندهم مع ذكر

١ - وسائل الشَّيعة، ج ١٥، ص ١٩٩ (باب ٨٨، الحديث ٧).

٢ - بحار الأنوار، ج ٤٧، ص ١٤٦.

رَوَّاد تلك العلوم المسلمين فرداً فرداً.

والنكته المهمة هنا هي إعراف المؤرخين الغربيين الصَّريح بأن النهضة العلميَّة في أوربا قد استندت إلى نهضة المسلمين العلميَّة وأن الأوربيين مدينون في نهضتهم لعلماء الإسلام!

ففي كتاب «تاريخ الحضارة الغربية ومبانيها في الشَّرق» والذي كتب من قبل مجموعة من علماء الغرب جاء: «عندما نطالع خدمات البيزنطينيَّة^(١) والمسلمين للثقافة الغربيَّة يمكننا القول بأن نوراً عظيماً أشرف من الشرق على الغرب»!

يقول الدكتور ماكس يرهوف «في كتاب ميراث الإسلام»: لقد كانت علوم العرب (المسلمين) كالقمر المنير الذي يضيء ظلمات ليالي أوربا القرون الوسطى، ولما ظهرت العلوم الجديدة خفت نور ذلك القمر، ولكن كان ذلك القمر هو الذي هدانا في تلك الليالي الظلماء حتى وصلنا إلى هذا المستوى، ويمكننا القول بأن نور ذلك القمر لا زال معنا»^(٢).

ونقرأ في ذلك الكتاب أيضاً «.... والخلاصة، وبهذه الوسيلة (ترجمة كتب علماء الإسلام) هطلت علوم الشَّرق كمطر الرِّحمة على أرض أوربا القاحلة، فحولتها إلى أرض خصبة مثمرة، وشيئاً فشيئاً تعرَّف الأوربيون على علوم الشرق!».

ويقول هذا الكاتب في مذكرات تحت عنوان «العلوم الطبيعيَّة والطَّب»: «إنَّ ما إكتشف في السنين الأخيرة كان نوراً جديداً على تاريخ علوم العالم الإسلامي القديم، ولا شكَّ في أن هذه الإكتشافات ليست كافية لحد الآن، وإن العالم سيقف

١ - البيزنطينيَّة، إمبراطورية روما الشَّرقية وعاصمتها البيزنطينيَّة وهي الآن تشمل قسماً من تركيا، وتعتبر إسطنبول الفعلية محلاً لعاصمتها البيزنطينيَّة.

٢ - ميراث الإسلام، ص ١٣٤.

أكثر فأكثر على أهمية العلوم الإسلامية في المستقبل»^(١).

وفي مقالة أخرى عن البروفسور «كيب» أستاذ اللغة العربية في جامعة لندن، تحت عنوان «نفوذ الأدب الإسلامي في أوربا» يقول:

«عندما تلقى نظرة على الماضي نلاحظ بأن علوم وأدب الشرق كان بمنزلة المادة الأولية للحضارة العربية بنحو أضواء معنويات وأفكار الشرق، الروح الكدرة لأهل القرون السالفة الغربيين، وهدّتهم إلى عالم أوسع»^(٢).

وكتب «جرجي زيدان» المؤرخ المسيحي المعروف في كتابه «تاريخ الحضارة الإسلامية» في مبحث تأثير الإسلام في العلوم والمعارف التي وردت دائرة الإسلام من الخارج، قائلاً: «عندما وصلت الحضارة الإسلامية إلى مرحلة الكمال، وانتشرت العلوم الأجنبية في بلاد المسلمين، بدأ المسلمين بتعلّم تلك العلوم، فاستفاد بعض (علماء الإسلام) من نبوغهم وسبقوا أهل تلك العلوم الأصليين، وأضافوا إليها آراء واكتشافات جديدة، وبهذا تنوعت العلوم وتكاملت وانسجمت مع الثقافة والآداب الإسلامية، واتخذت شكل الحضارة الإسلامية.

وعندما نهض الغربيون لاستعادة علوم اليونان، أخذوا أكثر هذه العلوم بنفس ذلك اللون الإسلامي من اللغة العربية»^(٣).

ويقول في موضوع آخر: «ومما قلناه حول دور التعليم في الحضارة الإسلامية، يمكن الجزم بأن العلم والمعرفة نشأتا وفي جهات مختلفة عند المسلمين، وإن العلماء والفقهاء والأطباء والفلاسفة قد أبدوا نبوغهم وإبداعهم في هذا المجال»^(٤).

١ - نفس المصدر، ص ١١١.

٢ - نفس المصدر، ص ١٨١.

٣ - تاريخ الحضارة، جرجي زيدان، ج ٣، ص ١٩٦.

٤ - نفس المصدر، ص ٢٢٢.

وخلاصة الكلام، إن الكتب التاريخية العالمية العامة، أو تلك الخاصة بتاريخ الحضارة الإسلامية، قد ذكرت بوضوح إعرافات مؤرخي الشرق والغرب بتأثير النهضة العلمية عند المسلمين على تأريخ وعلم وثقافة المجتمع البشري على المدى البعيد أو القصير، وتفصيل الكلام في ذلك يحتاج إلى كتاب مستقل، وما ذكر أعلاه إنما هو جانب مختصر من ذلك.

٤ - مقام المُعلِّم في الإسلام:

كما نعلم فإن التعلُّم في نظر الإسلام واجب عيني، وقد يكون في بعض العلوم واجباً كفائياً، أي أن بعض العلوم يجب على الجميع تعلُّمها، وأمّا ذلك القسم الذي يتميز بجنبه تخصصية وتعلُّمة ليس ميسوراً للجميع، فهو واجب كفائي.

وكذلك الكلام في تعليم العلوم، فقسم من العلوم لابد أن يتم تعليمه للجميع من قبل الذين يحملون تلك العلوم، في حين أن تعليم البعض الآخر، واجب كفائي.

فعلى كل حال، فإنَّ تَعْلُم وتعليم كل العلوم التي يرتبط بها قوام المجتمع البشري مادياً ومعنوياً لازم وضروري، سواء كان واجباً عينياً أو كفائياً، ولهذا فإن أي مسلم لا يحق له أن ينفصل عن التطورات العلمية الحديثة، بل عليه ومن أجل تقوية أركان الحكومة الإسلامية، أن يبذل كل ما بوسعه لتعلُّم وتعليم تلك العلوم، ولا شك في أن المسلمين لو قَصَّروا في هذا المجال وصاروا سبباً في تأخر الدول الإسلامية عن المجتمع البشري، فإنهم سيكونون مسئولين أمام الله!

يعتبر القرآن المجيد أن المعلم الأول هو الله عز وجل، وأن التلميذ الأول هو آدم عليه السلام، وأوَّل عِلْمٍ تعلمه آدم هو علم الأسماء «ويحتمل قوياً أن المراد من ذلك هو الإطلاع على أسرار الخلقة وموجودات الكون».

آدم لم يكن الوحيد الذي تعلّم من الله عزوجل، بل علّم يوسف الصديق أيضاً
علّم تفسير الإحلام: ﴿وَعَلَّمَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾^(١)

وعلم سليمان لغة الطيور وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مِنْ مَنَاطِقِ الطَّيْرِ﴾^(٢).

وعلم دواود عليه السلام صنعة الدروع: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُؤْسٍ لَكُمْ﴾^(٣).

وعلم الخضر علماً وإطلاعاً كثيراً: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً﴾^(٤).

وعلم الملائكة علماً جمّاً: ﴿سَبَّحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾^(٥).

وعلم البشر النطق والبيان: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾.

وفوق كل ذلك فإنه علّم نبي الإسلام ﷺ علوماً ومعارف لا يمكن تحصيلها

عن طرق طبيعية ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾^(٦).

كما أن الملك العظيم سفير الوحي جبرئيل قد علّم النبي الأكرم ﷺ علوماً

كثيرة ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾^{(٧)(٨)}.

والأنبياء عليهم السلام بدورهم يُعتبرون في زمرة أكبر معلمي العالم حيث أنهم علّموا

البشرية علوماً ومعارف كثيرة في مجالات الدين والدنيا، يقول القرآن الكريم في نبي

الإسلام ﷺ أعظم الأنبياء: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾^(٩)، ونفس هذا المنهج

١ - يوسف - ١٠١

٢ - النمل - ١٦

٣ - الأنبياء - ٨٠

٤ - الكهف - ٦٥

٥ - البقرة - ٣٢

٦ - النساء - ١١٣

٧ - النجم - ٥

٨ - أكثر المفسرين، فسروا «شديد القوى» بأنه جبرئيل، ولكن البعض يرى بأن المقصود بشديد القوى هو الذات الإلهية المقدسة.

٩ - الجمعة - ٢

سلكه كل نبي من الأنبياء عليهم السلام مع أمته وعلمهم علم الدين والدنيا.
والعلماء وهم ورثة الأنبياء، جلسوا مقعد التعليم بعد الأنبياء وعلموا الناس العلم
والمعرفة، ولذا فإن مقامهم في نظر القرآن شامخ وعظيم حتى قال تعالى فيهم:
﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾^(١).

وأما مقام المعلم في الروايات الإسلامية فإنه شريف وعظيم حتى أن الله
وملائكته وكل الموجودات - حتى النملة في جحرها والحيتان في البحار - تصلي
عليهم كما ورد في الحديث المروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال:
«إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ حَتَّى النَّمْلَةِ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الْخُوتِ فِي الْبَحْرِ يُصَلُّونَ عَلَى
مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرِ»^(٢).

وهذا المضمون ورد في أحاديث عديدة أخرى أيضاً.
وفي حديث آخر عن النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم أيضاً:
«أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَجُودِ الْأَجُودِ؟ اللَّهُ الْأَجُودُ الْأَجُودُ! وَأَنَا أَجُودُ وَلِدِ آدَمَ! وَأَجُودُكُمْ
مَنْ بَعْدِي رَجُلٌ عَلَّمَ عِلْماً فَنَشَرَ عِلْمَهُ، يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُمَّةً وَخَدَّةً!»^(٣).
والتعبير بالأمة، يبين لنا بوضوح سعة وجود المعلمين في موازاة سعة إنتشار
تعليماتهم بين المجتمع البشري، وكلما كان عدد تلامذتهم أكثر كانت سعة
شخصيتهم المعنوية الاجتماعية أوسع، حتى تصل أحياناً إلى سعة أمة كاملة.
وقد بلغت أهمية نشر العلم والمعرفة والثقافة في الإسلام إلى درجة أنه ورد في
حديث معروف أن مجلس العلم روضة من رياض الجنة^(٤).

١ - المجادلة - ١١

٢ - كنز العمال، الحديث ٣٨٧٣٦.

٣ - ميزان الحكمة، ج ٦، ص ٤٧٤.

٤ - هذا الحديث وإن لم نعثر على نصّه في المصادر الإسلامية، إلا أن بعض الروايات تضمنت

بموقع مهم وخاص في المنهج الإسلامي عموماً وفي برنامج الحكومة الإسلامية بشكل خاص، (ومن وظيفة الحكومة الإسلامية الإهتمام الفائق بأمر التربية والتعليم).



٥ - التعليم المباشر وغير المباشر:

ما ذكر في البحوث المتقدمة، كان ناظراً إلى التربية والتعليم بالطرق المباشرة، كتشكيل حلقات الدرس، والمدرسة وأمثال ذلك، ولكن توجد في الإسلام طرق تعليم غير مباشرة كثيرة، وتأثيرها من بعض الجهات أوسع وأعمق من تأثير الطرق المباشرة.

فالعبادات الإسلامية، وخاصة تلك التي تؤدي بشكل جماعي كصلاة الجماعة والجمعة ومناسك الحج، من جملة الأمور التي لها تأثير قوي في التعليم الجماعي للناس.

فصلاة الجماعة التي تقام خمس مرّات باليوم والليلة تُعلّم المسلمين درس الوحدة والاتحاد ورص الصفوف والمساوات والإخوة، فتجمع شرائح المجتمع المختلفة والتي قد لا تلتقي في السنة مرّة واحدة في غير الصلاة على أثر المشاغل والمسؤوليات المختلفة التي ينشغلون بها عن بعضهم، فصلاة الجماعة تعلّم هؤلاء درس وحدة التفكير ووحدة الهدف في المسائل الإجتماعية.

فصفوف صلاة الجماعة، ومضافاً إلى روحانيتها الخاصة الحاكمة عليها وإقترانها بنور المعنوية والصفاء، خير وسيلة لإطلاع عامة الناس على المسائل المصيرية

بشكل خاص، (ومن وظيفة الحكومة الإسلامية الإهتمام الفائق بأمر التّربية والتعليم).



٥- التّعليم المباشر وغير المباشر:

ما ذكر في البحوث المتقدمة، كان ناظراً إلى التّربية والتعليم بالطّرق المباشرة، كتشكيل حلقات الدّرس، والمدرسة وأمثال ذلك، ولكن توجد في الإسلام طرق تعليم غير مباشرة كثيرة، وتأثيرها من بعض الجهات أوسع وأعمق من تأثير الطرق المباشرة.

فالعبادات الإسلامية، وخاصّة تلك التي تؤدي بشكل جماعي كصلاة الجماعة والجمعة ومناسك الحج، من جملة الأمور التي لها تأثير قويّ في التّعليم الجماعي للنّاس.

فصلاة الجماعة التي تقام خمس مرّات باليوم واللّيلة تُعلّم المسلمين درس الوحدة والإتحاد ورصّ الصفوف والمساوات والإخوة، فتجمع شرائح المجتمع المختلفة والتي قد لا تلتقي في السّنة مرّة واحدة في غير الصّلاة على أثر المشاغل والمسؤوليات المختلفة التي ينشغلون بها عن بعضهم، فصلاة الجماعة تعلّم هؤلاء درس وحدة التّفكير ووحدة الهدف في المسائل الإجتماعيّة.

فصفوف صلاة الجماعة، ومضافاً إلى روحانيّتها الخاصّة الحاكمة عليها وإقترانها بنور المعنوية والصّفاء، خير وسيلة لإطلاع عامة النّاس على المسائل المصيريّة للمجتمع الإسلامي.

لقد إستطاع المسلمون الأوائل عن طريق صلاة الجماعة - هذا التّجمع النّهاري الليلي - كسب الإطلاع الكافي ووحدة الصّف مقابل أعدائهم العديدين، وتوسعة برنامج الحكم الإسلامي بسرعة.

ففي صلاة والجماعة، وطبقاً للتعاليم الإسلاميّة الحنيفيّة، فإنّ الإمام وحدة هو الذي يقرأ الحمد والسّورة نيابة عن الجميع وبهذا الطريق يحیی الإنضباط الإجتماعي، فتتربى في قلوب النّاس، على محتوى هاتين السّورتين بالإدارة الكاملة المقترنة بالروحانيّة.

والنّكته المهمّة هنا هي أنّ للإمام أن ينتخب سوراً مختلفة وآيات متنوعة من القرآن لقراءتها بعد سورة الحمد بحسب المناسبات المختلفة، وكلّ واحدة من هذه السور يمكنها أن تشتمل على دروس في المعرفة الإسلاميّة، والأخلاق، والتّربية السّياسية والإجتماعيّة، فعندما يقرأها الإمام بشكل جذاب والكل واقف يصغي لها بسكون عميق، يكون لها أثر تعليمي قوي منقطع النّظير من نفوس المأمومين، يضطرهم إلى التّفكر والتّعمق في محتوى الآيات، ويضاعف روحانيّة العبادة وتأثيرها، ولو أنّ هذه المراسم العبادية تؤدي بآدابها الإسلاميّة المقررة وحضور القلب وتمركز الحواس وهي الشرط الاساسي لقبولها، لكانت مدرسة عظيمة لتربية المجتمع الإسلامي، وفضلاً عن ذلك فإن هذه المراسم تكون درساً تربوياً لإعداد الإسلام والاجانب، وغالباً يلاحظ بأن هؤلاء يقفون متأملين متفكرين في هذه العبادة عندما يشاهدون المسلمين في صفوف منظمة ومرصوصة يُقيمون الصلاة.

ومن هنا ورد عن الإمام علي بن موسى الرّضا عليه السلام أنّه قال:

«إِنَّمَا جُعِلَتْ الْجَمَاعَةُ لِثَلَاثٍ يَكُونُ الْإِخْلَاصُ وَالتَّوْحِيدُ وَالْإِسْلَامُ وَالْعِبَادَةُ لِلَّهِ إِلَّا ظَاهِراً مَكْشُوفاً مَشْهُوراً، لَأَنَّ فِي إِظْهَارِهِ حُجَّةً عَلَى أَهْلِ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ ... مَعَ مَا فِيهِ

مِنَ الْمُسَاعِدَةِ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَالزَّجْرِ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ مَعَاصِي اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ^(١).
 وخلاصة الكلام هي إنَّ تأثير صلاة الجماعة في إيقاظ المسلمين وتربيتهم، وتأثيرها في افشال مخططات الأعداء وكسر شوكتهم، لا يخفى على أحد.
 ولهذا فإن هذه العبادة العظيمة، من أهم وأكَّد العبادات الإسلامية، وقد ذكر لها فضل عظيم وثواب جزيل في الروايات إلى درجة يبهت الإنسان لها.
 ففي حديث عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ مَشَى إِلَى مَسْجِدٍ يَطْلُبُ فِيهِ الْجَمَاعَةَ كَانَ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ سَبْعُونَ أَلْفَ حَسَنَةٍ وَيُزَفَّعَ لَهُ مِنَ الدَّرَجَاتِ مِثْلُ ذَلِكَ، فَإِنْ مَاتَ وَهُوَ عَلَى ذَلِكَ، وَكَلَّ اللَّهُ بِهِ سَبْعِينَ أَلْفَ مَلَكٍ يَعُودُونَهُ فِي قَبْرِهِ وَيُبَشِّرُونَهُ وَيُؤْنِسُونَهُ فِي وَحْدَتِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ حَتَّى يُنْعَثَ»^(٢).



٦- صلاة الجمعة وآثارها التربويَّة:

وصلاة الجمعة هي الأخرى إحدى أهم الاجتماعات العباديَّة السَّيَّاسِيَّة الإسلامية، والتي لها تأثير قوي في التَّربِيَّة المباشرة وغير المباشرة.
 فهذه الصَّلَاة الرائعة، تقام كل أسبوع مرَّة ومسلموا المدينة الواحدة مكلفون بالإشتراك في صلاة واحدة فقط^(٣).

١ - وسائل الشَّيعة، ج ٥، ص ٣٧٢.

٢ - وسائل الشَّيعة: ج ٥، ص ٣٧٢، الحديث ٧.

٣ - هذا بحسب الفقه الشَّيعي التابع لأهل البيت عليهم السلام وهناك من الفرق الإسلامية السنيَّة من يجيز إقامة العديد من صلاة الجمعة في المدينة الواحدة كصلاة الجماعة التي تقام في مساجد متعددة (الفقه على المذاهب الأربعة، ج ١، ص ٣٨٥).

ولصلاة الجمعة خطبتان قبل الصلاة، تشتملان على مواعظ وعبر وأمرٍ بالتقوى، وخصوصاً على المسائل الاجتماعية السياسية المهمة للمجتمع، فهي من جهة تُلَطِّفُ الرُّوح والنَّفْس وتغسلها من أوساخ الذنوب والمعاصي، ومن جهة أخرى تعلم الناس الإطلاع على المعارف الإسلامية والأحداث الاجتماعية والسياسية المهمة، وكيفية إتخاذ المواقف الصحيحة قبالها، ومن جهة ثالثة توفر الجو المناسب للعمل الجماعي لحل المشاكل في إطار تجديد الروح الإيمانية والنشاط المعنوي.

والخطبتان من واجبات الصَّلاة، وورد في الروايات الإسلامية والكتب الفقهية أن من آداب الخطبة هو أن يرفع الخطيب صوته بحيث يسمعه كل الناس، وأن عليهم أن يصغوا لكلامه ويراعوا السكوت التام، وأن يستقبلوا الخطيب بوجوههم.

والأفضل أن يكون الخطيب رجلاً قصيماً بليغاً مُطَّلِعاً على أوضاع وأحوال المسلمين، خبيراً بمصالحهم، شجاعاً، صريح اللهجة في بيان الحق، مضافاً إلى حسن سيرته وسلوكه في المجتمع فيكون ذلك سبباً لنفوذ كلامه في قلوبهم وأن يُذَكَّرَ سلوكه الناس بالله.

ولابدّ من بيان المسائل المهمة المرتبطة بالدين ودنيا المسلمين في الخطبتين، وكذا ما يحتاجه الناس في داخل وخارج الدّول الإسلامية والمنطقة، وطرح المسائل السياسية والاجتماعية والاقتصادية المهمة مع مراعاة الأولويات، فيزود الناس بالمعلومات اللازمة ويخبرهم عن موامرات الأعداء، ويشير إلى البرامج القصيرة والبعيدة المدى لإفشال خُطَطِهِمْ.

ولابدّ أن يكون الخطيب ذكياً جداً وفطناً، مفكراً، مطلعاً على المسائل المعنوية والمادية في الإسلام، وإن يستغل هذه الشعيرة العظيمة أفضل إستغلال لتوعية المسلمين وتطوير الأهداف الإسلامية.

وفي حديث جامع عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، يُبين فيه ضرورة خطبة الجمعة وإن ذلك لتعميم الفائدة وأن الله يريد أن يفسح المجال لأمير المسلمين ليعظ الناس ويُرغبهم في الطاعة ويحذرهم المعصية، إلى أن يقول الإمام الرضا عليه السلام: «وَتَوْقِيفُهُمْ عَلَى مَا أَرَادَ مِنْ مَصْلَحَةٍ دِينِيَّةٍ وَدُنْيَاةٍ وَيُخَبِّرُهُمْ بِمَا وَرَدَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْآفَاقِ مِنَ الْأَهْوَالِ الَّتِي لَهُمْ فِيهَا الْمَضَرَّةُ وَالْمَنْفَعَةُ».

ثم يبين الإمام عليه السلام فلسفة وجود خطبتين فالأولى للحمد والثناء والتمجيد والتقديس لله (والمسائل المعنوية والأخلاقية)، والثانية لبيان باقي متطلبات الوعي والإنذار والأدعية وغير ذلك من الأوامر والنواهي والإرشادات المرتبطة بصلاح وفساد المجتمع ^(١).

والدور الذي تلعبه اليوم صلاة الجمعة في توعية الناس في المسائل السياسية والاجتماعية غير خافٍ على أحد، وكثيراً ما يتم إفشال مخططات الأعداء التي يبتونها من خلال وسائل إعلامهم على طول الأسبوع ومع كل إمكاناتهم وتجهيزاتهم، في خطبة واحدة من خطب الجمعة المدروسة والدقيقة، ولو أن المسلمين يعون أهمية هذا البرنامج الأسبوعي المهم، وقيمونه كما أراد الإسلام، وأن لا يمسخوا هوية هذه العبادة العظيمة كبعض الدول ضعيفة النفس أو المأجورة من قبل الإستعمار، فإنهم - أي المسلمون - سيستثمرون هذه الشعيرة الإسلامية ويتعرفون على عمق تأثيرها الثقافي والتربوي.

ولصلاة العيدين (عيد الفطر وعيد الأضحى) وهما تشابهان صلاة الجمعة كثيراً وخصوصاً من جهة الخطبتين اللتين يؤتى بهما بعد الصلاة هنا، نفس آثار وبركات صلاة الجمعة.



٧- الآثار الثقافية لمؤتمر الحجّ العظيم:

ومن العبادات الأخرى التي لها تأثيرٌ مهم في تربيّة المسلمين ونشر العلم والمعرفة ووحدة الصّفوف وقوة شوكة المسلمين هي مراسم الحجّ، التي يجتمع فيها كل سنة ملايين من المسلمين من شتى بقاع الأرض في مؤتمر عظيم فيتعلمون في هذا المؤتمر شتى أنواع العلوم والمعارف وفي كلّ الجهات الماديّة والمعنويّة.

والنّكته المهمّة هنا هي أن الإشتراك في هذا المؤتمر العالمي واجب على كلّ مسلم يستطيع مرّةً واحدة في العمر، وأمّا باقي المرّات فهي مستحبة، ولا فرق في هذا الحكم بين المسلمين، فالحج واجب على الرّجل وعلى المرأة، والشّاب والشّيخ، والأبيض والأسود والمتعلم والجاهل، ولهذا نجد كلّ سنة مجموعة عظيمة من كبار الشخصيات العلميّة والثّقافيّة والسّياسيّة والإقتصاديّة من المسلمين بين صفوف الحجّاج يتشرفون بزيارة بيت الله الحرام، وفي طول المدّة التي يقضونها في مكة والمدينة وسائر المشاهد والمواقف يلتقي بعضهم ببعض الآخر فيتبادلون العلوم والمعارف والمعلومات والأخبار فيما بينهم.

وفي الآونة الأخيرة وبعد وقوف المسلمين على أهميّة هذا الاجتماع المعنوي العظيم نجد أنّ علماء الدّول الإسلاميّة المختلفة يعقدون المؤتمرات المصغرة والموسعة على هامش مؤتمر الحجّ العظيم، فيلتقون ويتبادلون العلوم والمعارف والثّقافات عن هذا الطريق.

يذكر القرآن الكريم جملة مختصرة في بيان فلسفة الحجّ حيث يقول : ﴿لِيَشْهَدُوا

مَنَافِعُ لَهُمْ» (١)

وللمفسرين كلام طويل في تفسير معنى كلمة (منافع) ولكن من الواضح أنه لا يوجد حدٌ لمفهوم هذا اللفظ، فيشمل كل المنافع والبركات المعنوية والمادية والنتائج السياسية والثقافية والاجتماعية.

وقد سأل الربيع بن خيثم عن الإمام الصادق عليه السلام عن تفسير هذه الكلمة، فبين له الإمام عليه السلام أنها تشمل المنافع الدنيوية والأخروية (٢).

وفي رواية أخرى عن الإمام الصادق عليه السلام يجيب هشام بن الحكم عن فلسفة الحج، فيشير الإمام عليه السلام إلى عدة أبعاد مهمة، منها تعارف مسلمي العالم بعضهم على البعض الآخر، ثم المنافع الاقتصادية، ثم إيجاد كثير من مجالات العمل في إطار موسم الحج ثم يشير عليه السلام إلى آثاره الثقافية ويقول: «وَلتَعْرِفْ آثَارُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَتُغْرِفَ أَخْبَارُهُ وَيُذَكَّرُ وَلَا يُنْسَى» (٣).

وعلى أي حال، فلو أن أحداً دقق وتأمل في جزئيات مراسم الحج، وخاصة إذا شاهد تلك المراسم عن قرب، فإنه سيفقد على أهمية البعد الثقافي والتربوي للحج بنحو يقل نظيره.

نعم، فالحج يمكن أن يكون مؤتمراً سنوياً ثقافياً عظيماً - بل مؤتمرات - فيلتقي العلماء من كل أنحاء العالم الإسلامي في الأيام التي يتواجدون فيها في مكة المكرمة، فتتناقل الأفكار والأبداعات التي يحملونها فيما بينهم مضافاً إلى آثار الحج المعنوية الخاصة.

١ - الحج - ٢٨

٢ - تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٤٨٨.

٣ - وسائل الشعية، ج ٨، ص ٩، الحديث ١٨.

وفي الفترات المظلمة لحكومة السلاطين الظالمين والطغاة الذين لم يفسحوا المجال لإنتشار العلوم والمعارف الإسلامية، كان المسلمون يستفيدون من الظرف الذي يتاح لهم في موسم الحجّ لحلّ كثير من مشاكلهم، وبالإلتقاء بأئمة الهدى عليه السلام وكبار علماء الإسلام، كانوا يتعرفون على المعارف والقوانين الإسلامية وسنة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وعندما يعودون إلى بلادهم، يعودون وهم يحملون رسائل مهمة في الأخلاق والثقافة وشتى العلوم.



٨- تأثير المساجد والأماكن المقدسة:

من جملة المراكز التي يمكنها أن تشارك في نشر الثقافة الإسلامية، وتكون مؤثرة في زيادة إطلاع عامة المسلمين، هي الأماكن المقدسة التي يرتادها الزائرون لزيارة مرافد قادتهم العظام حتّى يشدّ هؤلاء الرجال من بلدانهم في سفر معنوي بإتجاه تلك امشاهد الشريفة، وهذا بنفسه وسيلة جيدة لتبادل المعلومات والمعارف، ومواجهة الهجمة الثقافية المضادة للإسلام.

وهناك بعض المساجد الشهيرة في الإسلام، أمرنا بشدّ الرحال إليها، لتسبح الروح ويغوص القلب في بحر متلاطم من الروحانيّة والمعنويات والنور، ولتقوية الإرتباط بين المسلمين الذين يفدون من مناطق قريبة وبعيدة لزيارة تلك المساجد.

وقد ورد في حديث عن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال: «لا يُشدُّ الرّحال إلّا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجد الرّسول ومسجد الكوفة»^(١).

وهذا المعنى جاء أيضاً في كتب أهل السُّنَّةِ المعروفة، فقد رَوَوْا عن رسول الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا تُشَدُّ الرَّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: مَسْجِدِي هَذَا، وَمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَسْجِدِ الْأَقْصَى»^(١).

ومن الواضح أن هذين الحديثين لا تنافي بينهما، ومتى ما ضممناهما إلى بعضهما، يكون المنظور أربعة مساجد. كما أنه من الواضح أن الهدف من بيان مثل هذه الأحاديث هو بيان أهمية المساجد الثلاثة أو الأربعة ولا يعني أن الإنسان إذا ماشدَّ الرَّحَالَ إِلَى مَسْجِدٍ آخَرَ فَإِنَّهُ يَكُونُ قَدْ إِرْتَكَبَ مَخَالَفَةً، كما تصور بعض الجَّهَالِ، إذ لو كان مفهوم هذا الحديث هو التَّحْرِيمُ، فَإِنَّهُ يَحْرُمُ كُلَّ سَفَرٍ مُطْلَقاً إِلَّا هَذِهِ الْأَسْفَارَ الثَّلَاثَةَ فِي حِينٍ أَنْ هُنَاكَ أَسْفَاراً مُشْرُوعَةً أُخْرَى كَثِيرَةٌ.

(ولابد من الالتفات إلى أن «لَا تُشَدُّ الرَّحَالُ» مطلقة تشمل كلَّ سفر).

وشبيه هذا المعنى ورد في بحار الأنوار مع تفاوت مختصر^(٢).

فمثل هذه المساجد في الحقيقة، تعتبر من المراكز الإسلامية الثقافية وقد كانت لسنين عديدة في صدر الإسلام وما بعد ذلك محلاً لإقامة حلقات الدِّرس والبحث العلمي، وكان كبار العلماء يتواجدون فيها للتدريس وتعليم العلوم والتربية، وكذلك اليوم فإن المسجد الحرام ومسجد النَّبِيِّ غاص على طول السُّنَّةِ بِالطُّلَّابِ وَالْأَسَاتِذَةِ وحلقات الدِّرس، كما أن كثيراً من المساجد الإسلامية المهمة في البلاد الأخرى كسورية وإيران والعراق تعتبر منتديات للتربية والتعليم، حتَّى أَنَّهَا تُصِيرُ أحياناً مركزاً لأكبر حلقات الدِّرس، وقد يكون التَّحْفِيزُ مِنْ قَبْلِ الرِّوَايَاتِ عَلَى شَدِّ الرَّحَالِ إِلَى هَذِهِ الْمَرَكَزِ إِنَّمَا هُوَ لِأَجْلِ ذَلِكَ، مضافاً إلى كسب المعنويات والروحانيَّة في تلك

١ - صحيح مسلم، ج ٢، ص ١٠١٤ (كتاب الحج، باب ٩٥ - الحديث ١٣٩٧).

٢ - بحار الأنوار، ج ٦٦، ص ٢٤٠ (باب ٤٤ - الحديث ٢).

المساجد، والإستفادة من السَّوابق العلميَّة التاريخية لهذه المساجد.
 ونفس هذا المعنى متحقق في المراقد المقدَّسة لأئمَّة الدِّين عليهم السلام، حيث يكون
 صحن وروضة تلك المراقد مركزاً للدَّرس والتَّعليم ونشر العلوم والمعارف
 الإسلاميَّة، وأنَّ زيارة تلك المراكز تكون عادة مقترنة بالإستفادة العلميَّة.
 ومما يلفت النَّظر هو أن بعض هذه المشاهد الشَّريفة كحرم الإمام عليِّ بن موسى
 الرِّضا عليه السلام يَغصُّ على طول السَّنَّة بالزَّوار حتَّى يصل عددهم إلى (١٢ مليون) زائر
 سنوياً، ولذا فإنَّ إجتماعات عظيمة تعقد على طول أيَّام السَّنَّة، وتقام مؤتمرات
 وجلسات رائعة، ولذلك كله تأثيره العميق في تربية المسلمين.

* * *

دور الصحف والمجلات

في

الحكومة الإسلامية

تمهيد:

لاشك في أن الصحف والمجلات تعتبر اليوم من أهم وسائل التربية والتعليم في العالم، والتي إنتشرت بفضل التقدم العلمي وتطور التكنولوجيا والصناعة، ولذا فهي عامل مهم في تهذيب الأفكار العامة أو تخريبها وتضليلها، وقد يصل عدد النسخ المطبوعة لمجلة من المجلات أو صحيفة من الصحف، إلى عدة ملايين نسخة، توزع في عدة قارات من هذا العالم في نفس الوقت تقريباً، فتؤثر في توجيه أفكار المجتمع العالمي نحو جهة معينة.

ولاشك في أن دور الصحف والمجلات لم يكن واسعاً ومؤثراً في السابق كما هو عليه اليوم - كما في كثير من الأمور الأخرى أيضاً - ولكن وعلى أي حال، كان للكتاب والمكتبات على طول التاريخ أثراً بالغاً في التربية والتعليم وانتقال العلوم من نسل إلى آخر وفي تكامل الثقافة البشرية.

وبهذه الإشارة الخاطفة، نعود القرآن الكريم، ونتأمل في الأهمية التي أشار لها للكتاب والكتابة والتي كانت بلا شك مبرراً من مبررات الحركة العلمية للمسلمين في صدر الإسلام.

في القرآن المجيد آيات كثيرة تتعرض لهذا المطلب منها:

١ - ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ...﴾^(١).

- ٢ - ﴿إِقرءْ وَرَبُّكَ الْآكْرَمُ - الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ - عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾^(١).
- ٣ - ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ﴾^(٢).
- ٤ - ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾^(٣).
- ٥ - ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾^(٤).
- ٦ - ﴿إِثْنُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٥).
- ٧ - ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً - فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾^(٦).



تفسير وإستنتاج:

يستعمل القرآن الكريم في بعض الآيات صيغة القسم للتأكيد على أهمية المطلب الذي يريد بيانه، والقسم تارة يكون بالذات الإلهية الطاهرة، وفي كثير من الموارد يكون بالموجودات المهمة كالشمس والقمر والأرض والسما وال ذلك.

وفي الآية الأولى التي ذكرناها وهي أول آية من سورة القلم، يقسم عز وجل بالقلم، وكل ما يكتبه القلم: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ...﴾.

وفي الحقيقة أن ما وقع القسم به هنا، وإن كان في الظاهر موضوعاً صغيراً، فهو

١ - العلق - ٣ و ٥
 ٢ - البقرة - ٢٨٢
 ٣ - البقرة - ٢٨٢
 ٤ - سبأ - ٤٤
 ٥ - الأحقاف - ٤
 ٦ - البينة - ٢ و ٣

قطعة خشب وقصبة بسيطة أو ما شابه، وشيء من السوائل الملونة، وأسطر على صفحات متواضعة، إلا أنه في الواقع منبع ظهور الحضارات الإنسانية وتقدم العلوم والمعارف ويقظة الفكر وتصور المذاهب والاديان بصورتها الحقيقية، ومصدر التربية والتعليم والهداية للبشرية.

ومن هنا، فإن العلماء يقسمون أدوار حياة الإنسان إلى دورين رئيسيين هما «مرحلة ما قبل التاريخ» و«مرحلة ما بعد التاريخ»، ويقولون بأن مرحلة ما بعد التاريخ تبدأ من حين اختراع الخط والكتابة، وعندما استطاع الإنسان أن يمسك القلم بيده ويكتب أحداث حياته على الصفحات، وأما قبل ذلك فيسمى بمرحلة ما قبل التاريخ.

ويجب أن لا نغفل عن أن هذه الآية نزلت في محيط جاهلي أكثر من أي محيط آخر، حيث لم يكن هناك من يهتم بالقلم والكتابة، ولم يصل عدد الذين كانوا يعرفون الكتابة في مكة - وهي أكبر مركز عبادي وسياسي واقتصادي في الحجاز حسب قول بعض العلماء - إلى أكثر من عشرين شخصاً!

فالقسم بالقلم في مثل هذا المحيط له من العظمة والجلال الكبيرين ما لا يخفى! ومن فلسفة القسم في القرآن هو أنه كان يحفز المسلمين على التأمل في الأمور التي يقسم بها، وفي هذه الآية كان الأمر كذلك، فصار ذلك سبباً في إتساع أمر القراءة والكتابة والتأليف وترجمة كتب المجتمعات الأخرى، وانتشار العلوم في العالم الإسلامي.

وتعتبر الآية الثانية، من أولى الآيات - طبقاً للرأي المشهور - التي نزلت على قلب النبي الطاهر في جبل ثور في غار حراء، وكان أول قدحات الوحي، ولذا فإنها أشارت إلى أهم المسائل، فعندما يأمر الرسول الأكرم ﷺ بتلاوة آيات القرآن، يقول له: ﴿إِقرءْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ - الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ - عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

وبهذا فإن أول وصف لله تعالى بعد الربوبية والكرامة هو وصف التعليم بواسطة القلم وهو منبع تعليم «مالم يعلم».

ومن هنا فإن بداية الوحي نشأت مع بداية الحركة العلمية، وهذا المعنى عميق ودقيق ومربى لكل مسلم.

فمثل هذه العبارات، حفزت المسلمين باستمرار على الإهتمام بالكتاب والمكتبات وتعلم العلوم والمعارف، وإذا كانت الروايات قد صرحت بأن «مداد العلماء أفضل من دماء الشهداء»، فإن ذلك من أجل أن أسس دماء الشهداء مبتنية على المعارف والعقائد التي تنبع أساساً من القلم، كما أن سند بقاء دماء الشهداء هو مداد أقلام العلماء.

أن تفاهم الناس فيما بينهم وانتقال الأفكار ينحصر في طريقين عادة: البيان والقلم، مع تفاوت بينهما وهو أن البيان وسيلة للإرتباط بين الحاضرين في مكان وزمان واحد، أما الإرتباط بالقلم فلا ينحصر في الحاضرين كذلك، وإنما يعتبر القلم وسيلة للإرتباط بين أبناء الأجيال والعصور المختلفة وفي الأمكنة المختلفة، فهو يربط أهل القرون السابقة بالمعاصرة واللاحقة، ولذلك يقول أحد العلماء: «بيان اللسان تُدرسه الأعوام وما تُثبتهُ الأقلام باقي على مرّ الأيام».

وكذلك قال بعض العلماء: «ينبغي أن لا تسقط برايا الأقلام تحت الأقدام، فإنها محترمة أيضاً!»

والنكتة الملفتة للنظر هي أنه كما أن البيان من خصوصيات الإنسان، فإن القلم

أيضاً من مختصاته، بل أنّ القلم أعقد بكثير من البيان باللسان، وليس عبثاً أن يكون أمرُ تعليم الكتابة بالقلم من قبل الله نفسه - بشكل مباشر بواسطة أحد الأنبياء (آدم أو أدريس) أو بطريق غير مباشر، أي منح موهبة وقابلية القراءة والكتابة للبشرية - من أكبر النعم الإلهية على الإنسان، وأن الآيات القرآنية الأولى للوحي قد إستندت إلى القلم، وأشارت إليها بعد الإشارة إلى عظمة الله.



وفي الآية الثالثة وهي مقطع من أطول آيات القرآن المجيد، والناظرة إلى تنظيم العلاقات اليومية بين الناس، نجد إهتماماً خاصاً بمسألة القلم، يقول عزوجل: ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ ثم يضيف: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ﴾.

فهنا تعتبر الآية أنّ القدرة على الكتابة موهبة إلهية، ويوصي أولئك الذين شملتهم هذه العناية الربانية أن يعينوا أولئك الأميين لإحقاق حقوقهم، فيستفيدوا من هذه القدرة ويكتبوا لهم.



والظريف هو أنّه جاء في بقية هذه الآية: «وَلَا يُضَارُّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ» أي لا ينبغي أن يتضرر كاتب أو شهيد، فإن وسعنا مفهوم هذه الآية التي وردت في مورد خاص (وهو كتابة وثيقة القرض) أي لو ألغينا الخصوصية والحقنا بها الموارد الأخرى التي يمكن الإستفادة فيها من موهبة الكتابة لإعانة أفراد المجتمع، وكذلك عدم إضرار

الكتاب، وبعبارة أخرى حفظ حرية القلم، نصل إلى نكتة مهمة وصلت إليها البشرية بعد قرون من نزول هذه الآية، مع أنها تواجه مشاكل عديدة في تطبيق ذلك عملياً.



وفي الآية الخامسة، يذم القرآن المجيد أولئك الذين يخالفون الآيات الإلهية، ويحاججهم ويطالبهم بالمبررات المنطقية التي دعتهم إلى ذلك، يقول عز وجل:

﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾.

وبالرغم من أن المراد من الكتب، الكتب السماوية، ولكن ما ذكر من موضوع الكتاب ودراسته وتعلمه في هذه الآية إلى جانب إرسال الأنبياء، وأن الكتاب أحد الدليلين الاعتباريين، يكفي لمعرفة أهمية ودور الكتاب، ونظير هذا المعنى نجده في سورة القلم (الآية ٣٧) في مقام المؤاخذه وذم منكري الإسلام والقرآن، حيث يقول تعالى:

﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾.

وهذا إشارة إلى أن الكتاب يمكن أن يكون في عدة موارد سنداً معتبراً يستند عليه في الإحتجاج.

والحقيقة أن اعتماد القرآن المجيد على مسألة الكتاب وللكتابة في مورد الكتب السماوية للأنبياء سواء في أمور الدنيا، أو في صحيفة الأعمال والمحكمة الإلهية، كلها تبين أهمية هذا الموضوع من وجهة نظر القرآن والإسلام.



أهمية الكتاب والقلم في الروايات:

وصلت روايات كثيرة عن النبي الأكرم ﷺ والأئمة المعصومين عليهم السلام في بيان

أهمية الكتاب والكتابة، وإليك نماذج من تلك الروايات:

١ - ورد في حديث عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«قَيِّدُوا الْعِلْمَ فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا تَقْيِيدُهُ».

قال ﷺ: «كِتَابَتُهُ»^(١).

٢ - وفي حديث آخر عنه أيضاً: «أَكْتُبُوا الْعِلْمَ قَبْلَ ذَهَابِ الْعُلَمَاءِ وَإِنَّمَا ذَهَابُ

الْعِلْمِ بِمَوْتِ الْعُلَمَاءِ»^(٢).

٣ - قال الإمام الصادق عليه السلام لأحد أصحابه: «أَكْتُبْ وَبُثَّ عِلْمَكَ فِي إِخْوَتِكَ فَإِنَّ

مِثَّ فَوْرْتٍ كُتِبَتْ بَنِيكَ، فَإِنَّهُ يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ هَرَجَ مَا يَنْسَوْنَ فِيهِ إِلَّا بِكُتُبِهِمْ»^(٣).

٤ - وفي حديث آخر عنه أيضاً: «مَنْ أَلَّفَ عَلَى النَّاسِ بَرَّهُمْ وَفَاجَرَهُمْ بِالْكِتَابِ

وَالْحِسَابِ وَلَوْلَا ذَلِكَ لَتَغَالَطَوْا»^(٤).

٥ - يقول أمير المؤمنين عليه السلام في حديث رائع جداً ومختصر: «الْكُتُبُ بَسَاتِينُ

الْعُلَمَاءِ»^(٥).

والبساتين لها هواء لطيف، ولها مناظر خلابة، وفيها أنواع الثمار، وفيها أنواع

الأوراق والورود والأعشاب الطبية، وفي الحقيقة، فإن الكتاب له كل تلك الآثار.

١ - بحار الأنوار، ج ٢، ص ١٥١.

٢ - كنز العمال، الحديث ٢٨٧٣٣.

٣ - بحار الأنوار، ج ٢، ص ١٥٠.

٤ - فروع الكافي، ج ٥، ص ١٥٥.

٥ - غرر الحكم.

٦- وفي حديث آخر عن رسول الله ﷺ، تعبير رائع جداً يبين أهمية الكتاب والكتابة بطرز محير للعقول، يقول ﷺ: «ثلاث تخرق الحجب، وتنتهي إلى ما بين يدي الله: صرير أعلام العلماء، ووطي أقدام المجاهدين، وصوت مغازل المُحصنات»^(١).

وفي الواقع، كل واحد من هذه الأصوات الثلاثة خفي في الظاهر إلا أنه في باطنه وواقعه جوهري، وكل واحد منها إشارة إلى إحدى المسائل الأساسية في المجتمعات البشرية «العلم والكتابة» «الجهاد والشهادة» «السعي والعمل»!

٧- يقول الإمام الصادق عليه السلام للمفضل ضمن بيان نعم الله العظيمة على البشرية: «وَكَذَلِكَ الْكِتَابَةُ الَّتِي بِهَا تُقَيَّدُ أَخْبَارُ الْمَاضِينَ لِلْبَاقِينَ وَأَخْبَارُ الْبَاقِينَ لِلَّاتِينَ وَبِهَا تُخَلَّدُ الْكُتُبُ فِي الْعُلُومِ وَالْآدَابِ وَغَيْرِهَا وَبِهَا يَحْفَظُ الْإِنْسَانُ ذِكْرَ مَا يَجْرِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ مِنَ الْمُعَامِلَاتِ وَالْحِسَابِ، وَلَوْلَا هَذَا لَانْقَطَعَ أَخْبَارُ بَعْضِ الْأَزْمِنَةِ عَنْ بَعْضٍ، وَأَخْبَارُ الْغَائِبِينَ عَنْ أَوْطَانِهِمْ، وَدَرَسَتْ الْعُلُومُ وَضَاعَتْ الْآدَابُ، وَعَظُمَ مَا يَدْخُلُ عَلَى النَّاسِ مِنَ الْخَلَلِ فِي أُمُورِهِمْ وَمُعَامِلَاتِهِمْ، وَمَا يَخْتَاجُونَ إِلَى النَّظَرِ فِيهِ مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ وَمَا رُويَ لَهُمْ مِمَّا لَا يَسَعُهُمْ جَهْلُهُ»^(٢).

٨- ونختم هذا البحث برواية عن رسول الله ﷺ تكشف الستار عن أهمية بقاء الآثار العلمية بواسطة الكتابة، وتدعو العلماء وتحفزهم وتشدهم إلى ذلك، يقول ﷺ:

«الْمُؤْمِنُ إِذَا مَاتَ وَتَرَكَ وَرَقَةً وَاحِدَةً عَلَيْهَا عِلْمٌ، تَكُونُ تِلْكَ الْوَرَقَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ سِتْرًا فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ وَأَعْطَاهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِكُلِّ حَرْفٍ مَكْتُوبٍ عَلَيْهَا مَدِينَةً

١ - الشهاب في الحكم والآداب، ص ٢٢.

٢ - بحار الأوار، ج ٥٨، ص ٢٥٧.

أَوْسَعُ مِنَ الدُّنْيَا سَبْعَ مَرَّاتٍ»^(١).



وصايا مهمة للحكومات الإسلامية:

من مجموع ما قرأناه في الآيات والروايات أعلاه، تتضح لنا هذه النقطة، وهي أن المسلمين في القرون الأولى لظهور الإسلام لما توجهوا للعلوم والفنون والمعارف، وأوجدوا نهضة علمية واسعة عمّت بركاتها وثمارها أوربا أيضاً، فإن جذور ذلك موجود وكامن في الثقافة التي علمهم إياها الإسلام، ومن الواضح جداً أن على الحكومات الإسلامية أن تهتم بهذه المسألة التي تعتبر أساس حياتهم وتقدمهم في دينهم ودنياهم.

وفي هذا المجال، فإن الحكومة الإسلامية وباستلهاً مما ذكر، عليها أن تراعي القواعد والأمور التالية.

١ - لا بد أن تنتشر القراءة والكتابة بشكل واسع في كلّ طبقات المجتمع حتى لا يبقى فرد جاهل بهما، بل يتنعم الجميع بنعمة القراءة والكتابة، وأي تقصير في هذا المجال تكون الحكومة الإسلامية مسؤولة عنه.

٢ - تأسيس المكتبات العامة والخاصة لعامة الناس ولخصوص المحققين والعلماء، والمكتبات التي تضم مختلف الكتب في شتى العلوم من وظائف الحكومة الإسلامية أيضاً.

وكلّ جهد في هذا المجال، فضلاً عن كونه مطلوب من قبل الشارع المقدّس، فمع

ذلك سيكون سبباً في قوة وإقتدار المسلمين، ومواجهة النواقص والمفاسد الفردية والاجتماعية المختلفة، وهو أيضاً سبب في تطور المجتمع الإسلامي ورفقته.

٣- ينبغي أن لا تقتصر وسائل الإعلام العامة في الحكومة الإسلامية على الأخبار والمسائل السياسية وبرامج التسلية، بل لابد أن يخصص جزء كبير منها لنشر العلوم والمعارف وبما يتناسب مع كل الأمزجة لجميع أفراد المجتمع ونشر آخر التطورات والاكتشافات العلمية في أول فرصة ممكنة بشكل واسع في المجتمع الإسلامي، للحد من أي تخلف حضاري وعلمي عند المسلمين.

٤- على الحكومة الإسلامية أن تشجع العلماء والمحققين والكتاب على الاستفادة من كل الوسائل العلمية الحديثة وأن توفر ما يلزم لتعزيز هذه القدرة عندهم، وعليها من أجل إنتاج حصيلة علمية بدیعة الابداعات والابتكارات العلمية، أن توزع الجوائز والإمتيازات، وإن تكرم العلماء والمحققين بنحو يحفز الآخرين على الجد والسعي في هذا المجال.

٥- توسعة المدارس والجامعات وتعميق برامجها وتطويرها وإستثمار الابتكارات العلمية للعلماء المسلمين، وحتى المحققين الأجانب، وفي هذا المجال لابد أن يكون ذلك على رأس برامج الحكومة الإسلامية، وإن يتبلور ذلك طبقاً لما أراده الإسلام والذي إنعكس في الآيات والروايات المذكورة أعلاه وهي نموذج من تعاليم الإسلام.

والإطلاع على الصناعة والتكنولوجيا ليس أمراً منفصلاً عن ذلك بحال، لإننا نعلم أن تعلم كل الأمور المهمة بنحو من الأنحاء لحفظ المجتمع الإسلامي، واجب عيني في الفقه الإسلامي، ولا يحق لأي مسلم أن يغفل عنه.

تشكيل المكتبات:

إحدى مسؤوليات الحكومة الإسلامية المهمة فيما يرتبط بمسألة التربية والتعليم هو تأسيس المكتبات العامة، وذلك لأن أكثر الناس غير قادرين على شراء كتب مختلفة وعديدة، في حين أنهم يطلبون العلم ويريدون المعرفة، وحتى لو كانوا قادرين على ذلك، فإنه لا يلزم أن تُجمّد أموال طائلة في المنازل، فالأفضل أن يتم تأسيس مكتبات عامة ليتم إستغلال الثروات في أمور أخرى، ولكي يتمكن الفقير والغني ومتوسط الحال والصغير والكبير من إقتناء الكتب المختلفة ومطالعتها، سواء الكتب الدينية أو العلمية أو الأدبية أو التاريخية والسياسية.

وفلسفة تشكيل المكتبات معروفة من أقدم أيام الإنسان، ولهذا نجد أن مكتبات عديدة قد أسست منذ آلاف السنين في نقاط مختلفة من هذا العالم وإن كان بعضها بسيط وإبتدائي.

وفي المجتمع الإسلامي، وللتأكيد الكبير الذي ورد في التعاليم الإسلامية على مسألة العلم والمعرفة نجد أن المكتبات العظيمة كانت قد أسست منذ القرن الثاني للهجرة في البلاد الإسلامية، حتى أظهر المؤرخون غير المسلمين إعجابهم وتقديرهم لمثل تلك المكتبات.

ولجرجي زيدان، المؤرخ المسيحي الشهير، بحث مفصل حول مكتبات بغداد والأندلس ومصر وسائر نقاط العالم الإسلامي، الأمر الذي يُبين إنفتاح المسلمين العلمي العظيم في القرون الأولى للإسلام.

ومن جملة المكتبات العظيمة المهمة التي يذكرها هي مكتبة بيت الحكمة في بغداد، والتي يُحتمل قوياً أن هارون الرشيد هو الذي أسسها، والتي جُمعَ فيها كل

الكتب المؤلفة في الطب والعلوم الأخرى، وكذا العلوم الإسلامية المدونة^(١).
وقد قام كثير من رجال بغداد بتأسيس مكتبات أخرى تبعاً لمكتبة بيت الحكمة،
جمعوا فيها آلاف الكتب المختلفة.

ولقد كان المأمون العباسي، من السابقين في تأسيس المكتبات في الدول
الإسلامية، وكان بعض حكام الأندلس قد إقتدوا به في هذا المجال.
ومن جملة من إهتم بهذا الأمر «المستنصر العباسي» في القرن الرابع للهجرة،
حيث أسس مكتبة عظيمة في «قُرطبة» جمع فيها الكتب من أنحاء العالم، وكان قد
كلّف جماعة من التجار بالترحال والسفر إلى نقاط الدنيا وشراء الكتب العلمية لتلك
المكتبة، حتى أن البعض قال أن عدد الكتب الموجودة في تلك المكتبة بلغ
«أربعمائة ألف كتاب»^(٢).

وهذا العدد كثير جداً بعد الأخذ بنظر الإعتبار أن كل الكتب حينذاك كانت
مخطوطة، وكانت كتابة الكتاب الواحد تستغرق أسابيع أو أشهر أو سنين.
وقد إقتدى به كثير من ملوك «الأندلس» فأسسوا مكتبات عديدة في سائر البلاد،
حتى قيل أن «غرناطة» كانت تضم سبعين مكتبة عامة ضخمة، وكل ذلك إنما هو
لإجل الرغبة الشديدة واللهفة لطلب العلم والمعرفة عند الناس، حتى صار جمع
الكتب وتأسيس المكتبات من علامات العظمة والشخصية، فحتى الرؤساء والملوك
الذين لم يكونوا من أهل المطالعة، كانوا يحاولون تأسيس مكتبة معتبرة خاصة في
منازلهم!!

وفي زمن «الفاطميين في مصر» تأسست مكتبات كبيرة أيضاً، كانوا يسمون
بعضها «خزانة الكتب» ويصرفون أموالاً طائلة في جمع الكتب حتى أنهم كانوا أحياناً

١ - تاريخ الحضارة، جرجي زيدان، ج ٣، ص ٢٢٨.

٢ - جرجي زيدان، تاريخ الحضارة، ج ٣، ص ٢٢٨.

يجمعون عدة نسخ من الكتاب وبخطوط مختلفة وتزيينات متنوعة، حتى ذكر التاريخ بأن المكتبة التي أسسها «يعقوب بن كلس» كانت تضم (٣٤٠٠) نسخة مختلفة من «القرآن المجيد» و (١٢٠٠) نسخة من «تاريخ الطبري» وقيل أن عدد الكتب في تلك المكتبة بلغ (١٦٠٠٠) كتاب منها (٦٥٠٠) نسخة في النجوم والهندسة والفلسفة^(١).

يقول «ويل دورانت» في كتابه «تاريخ الحضارة»: كانت مكتبات الخلفاء الفاطميين تضم مئات الكتب المزينة بالنقوش من جملتها (٢٤٠٠) نسخة من القرآن، وكان في «مكتبة الخليفة» في القاهرة (١٠٠٠٠) كتاب في عهد الخليفة «الحاكم بأمر الله» و (٢٠٠٠) كتاب في عهد الخليفة «المستنصر»^(٢).

ومتى ما قارنا بين هذه الأعداد وبين أعداد الكتب في المكتبات اليوم في كثير من البلدان، نلاحظ تفاوتاً واضحاً بينها، مع أن أمر طبع ونشر الكتب اليوم أسهل بكثير من ذلك الوقت خصوصاً مع تطور وسائل الطباعة الكبيرة، حيث لم يكن في السابق إلا الكتب المخطوطة، وهذا التفاوت في الأعداد والأرقام مسألة مهمة لا بد من دراستها. ونختم هذا الحديث بعبارة أخرى للمؤرخ الشهير «ويل دورانت» حيث يقول: كانت أغلب المساجد تشتمل على مكتبة، وكان في أكثر المدن أيضاً توجد مكتبة عامة تحتوي على عدد كبير من الكتب، تفتح أبوابها لطلاب العلم... وكان فهرست مكتبة «الري» فقط عشرة مجلدات، وكان رواد مكتبة «البصرة» يحصلون على مخصصات وإعانات مالية!

وكان «ياقوت الحموي» الجغرافي الشهير قد قضى ثلاث سنوات في مكتبة «مرو» و «خوارزم» لجمع المعلومات لكتابه «معجم البلدان»، وعندما خرَّب المغول

١ - نفس المصدر السابق - ص ٢٣١.

٢ - تاريخ الحضارة «ويل دورانت» ج ٤، ص ٣٦٧.

«بغداد» كان في بغداد ستة وثلاثون مكتبة عامة، غير المكتبات الخاصة العديدة، إذ كان المتعارف أن يكون لكل من الأغنياء مكتبة تضم عدداً من الكتب! ولقد دعى «أمير بخارى» طبيباً معروفاً إلى بلاطه، لم يستجب الطبيب لدعوته واعتذر بأنه يحتاج إلى أربعمئة بعير! لحمل كتبه، وعندما توفي «الواقدي» ترك ستمائة صندوق مملوءة بالكتب، يلزم لحمل كل منها رجلين.

وكان لبعض الأعظم مثل «الصاحب بن عباد» كتباً بعدد كتب كل مكتبات أوربا! ولم يكن في أي بلد من بلدان العالم - إلا الصين أيام «مينك هوانك» - شوق وشغف بجمع الكتب نظير ما كان عند المسلمين في الفترة ما بين القرن الثامن وحتى القرن الحادي عشر الميلادي (الثاني - الخامس الهجري) وقد وصلت الحياة الثقافية للمسلمين إلى أوجها في تلك الفترة^(١).

لقد كانت الدُول الإسلامية مهداً للعلم والحضارة والثقافة في أكثر القرون الأخرى أيضاً، وخاصة القرون الوسطى حيث كان الأوربيون يعيشون في أحلك فترات تاريخهم المظلم.



ولكي لا نبتعد عن صلب الموضوع، نقول أن الهدف هو أن يتضح مدى تأثير تعاليم الإسلام في تطور التربية والتعليم وتأسيس المكتبات وإنفتاح العلم والمعرفة، ومن هنا نتضح لنا خطورة مسؤولية الحكومة الإسلامية في هذا الأمر المهم.



القوى

الدفاعية والقوى المسلحة

تمهيد:

لو كانت الدنيا خالية من الظّلمة الطّامعين والمعتدين المستعمرين، لما كان هناك أية ضرورة للقوى العسكرية لحفظ الحدود، ولكان الناس في بلادهم آمنين مطمئنين يرتبطون فيما بينهم بروابط تجارية وثقافية وسياسية وإجتماعية واقتصادية سالمة وطبيعية.

ولكن حسّ الإستعلاء والتّسلط الذي قد يوجد أحياناً عند بعض الأفراد، وأحياناً عند بعض الأقوام، يؤدي غالباً إلى إعتداء هذا الفرد أو الأمة على فرد آخر أو أمة أخرى، وفي مثل هذه الحالات يحق للجميع أن يتسلحوا ويستعدوا لحفظ أمنهم وحياتهم، إذ أنّ النّظام الذي يحكم العالم اليوم وللأسف هو أن الضّعيف مسحوق، وهذا الأمر يبرر لنا فلسفة تشكيل القوى المسلحة والقوى الدفاعية.

فصحيح أن وجود مثل هذه القوى لم يوفق بشكل كامل لمنع مثل هذه الإعتداءات العدوانية، ولكنها بلا شك كانت ولا تزال مانعة بنسبة معينة من ذلك، إذ في كثير من الأحيان يتحتم على القوى المعتدية أن تغامر وتخاطر بوجودها في إعتدائها، حيث أن النتيجة لا تكون معلومة، فقد تتحمل خسائر جسيمة وتدفع ضريبة غالية في طريق كسر رقيبتها، وهذا نفسه يمنع في كثير من الأحيان مثل هذه الإعتداءات والحروب.

ومضافاً إلى ذلك، فإنّ الأُمّة ذات الحضارة والثقافة والتي تريد الحصول على ميدان حرّ لتنشر ثقافتها بين الأمم الأخرى تحتاج إلى قوة عسكرية للحصول على

ذلك الجو الحرّ، ولا يمكنها ذلك بدون الإتكاء على القدرة، وهذه فلسفة أخرى لتشكيل القوى العسكرية.

ولو أردنا بحث هذه المسألة في بعد أوسع، لابد أن نقول أن الحياة غير ممكنة بلا «جهاد»، إذ أن الكائن الحي يواجه دائماً في طريق إستمرار حياته، بعض الموانع والصعوبات التي تهدد حياته في كل لحظة، وإذا لم يكن مجهزاً بالقوة الدفاعية، سينهزم بسرعة.

وجسم الإنسان وهو «عالمٌ صغير» يحكي عن العالم الكبير، هذا الجسم نموذج بارز لهذه المسألة، وذلك لأن حياة الإنسان مهددة دائماً بخطر التلوث «بالميكروبات» و «الفايروسات» التي ترد البدن عن أربعة طرق (التنفس، الأكل، الشرب، والجلد إذا ما أصيب البدن بجراحات)، فلو لم يكن بدن الإنسان مزوداً بالقوى الدفاعية المجهزة، لأبتلي بأنواع الأمراض الخطيرة التي تشل حركته وتقتله. نعم، فكريات الدّم البيضاء تهب لمواجهة أي عدو خارجي يرد البدن، وتجاهده عن طريق حروب فيزيائية وكيميائية، وحتى لو إنتصر العدو مؤقتاً ومرض الإنسان، تستمر تلك الكريات بنضالها حتى تتغلب على العدو وتؤمن السلامة الكاملة للبدن. وعدد هذه القوى الدفاعية المسلحة في بدن الإنسان يصل إلى عدة ملايين كما يقول العلماء، ومطالعة عمل هذه القوى يُحير عقل الإنسان ويخبر عن نكات عجيبة من أسرار الخلقة تجعل الإنسان يضطر للركوع أمام قدرة الخالق عز وجل.

والمجتمع الإنساني والدّول المختلفة غير مستثناة عن هذا القانون العام، وتحتاج إلى إدامة حياتها وإستمرارها لقوى عسكرية مجهزة ومتطورة.

وبهذه الإشارة نعود إلى القرآن الكريم.

ففي القرآن الكريم آيات عديدة في مجال الجهاد وفلسفته وأحكامه، وكذلك

آثاره ونتائجه، وقد إنتقينا أحد عشرة آية من بين تلك الآيات:

١ - ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَأَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ - الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ ديارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صُمُوعُ وَيَبِيعَ صَلَوات وَمَساجِدُ يُذَكَّرُ فِيها اسمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (١).

٢ - ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْلَمُونَ بَصِيرٌ﴾ (٢).

٣ - ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ (٣).

٤ - ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ (٤).

٥ - ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (٥).

٦ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ - تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ - يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ - وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرَ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٦).

١ - الحج - ٣٩

٢ - الأنفال - ٣٩

٣ - الأنفال - ٦٠

٤ - الصف - ٤

٥ - الأنفال - ٦٥

٦ - الصف - ١٠ و ١٣

- ٧ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١).
- ٨ - ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ وَاسْتَشِيرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(٢).
- ٩ - ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ الْمَصِيرُ﴾^(٣).
- ١٠ - ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٤).

* * *

تفسير وإستنتاج

روح الجهاد، دفاع لا غزو:

في الآية الأولى من الآيات أعلاه، والتي يعتقد جمعٌ من المفسرين أنها أول آية في الجهاد، تزيج الستار عن أهم فلسفة للجهاد، وتجزيل للمسلمين الذين حوصروا من قبل الأعداء الشرسين الجائرين، أن يحاربوا هؤلاء عسكرياً ويجاهدوهم، يقول

١ - آل عمران - ٢٠٠

٢ - التوبة - ١١١

٣ - التوبة - ٧٣ والتحريم - ٩

٤ - النساء - ٩٥

تعالى.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَأَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾.

فهنا حصل المسلمون على إذن بالجهاد، مضافاً إلى أنهم وُعدوا بالنصر من قبل الله تعالى، وقد ذكر لذلك دليل، وهو أن العدو هو الذي بدأ الحرب العدوانية عليهم، ولذا فالسكوت عنه خطأ، لأنه يؤدي إلى تجرؤ العدو وتجاسره وإلى ضعف المسلمين.

يقول المرحوم الشيخ الطبرسي في مجمع البيان: وكان المشركون يؤذون المسلمين ولا يزال يجيء مشجوج ومضروب إلى رسول الله ﷺ ويشكون ذلك إلى رسول الله ﷺ فيقول لهم صلوات الله عليه وآله: إصبروا فإنني لم أؤمر بالقتال، حتى هاجر فأنزل الله عليه هذه الآية بالمدينة وهي أول آية نزلت في القتال»^(١).

والملفت للنظر هو أن القرآن المجيد يقول في الآية السابقة لهذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، أي أن هذا الكلام لا يعني أن يجلس هؤلاء في زاوية من زوايا المسجد ويضعون يداً على يدٍ وينتظرون دفاع الله، بل أن سنة الله إقتضت أن يكون دفاعه عن المؤمنين بعد أداء وظيفتهم في أمر الجهاد ومواجهة العدو، إذن فالذين يحق لهم الإطمئنان للحماية الإلهية هم الذين لم يتركوا وظيفة الجهاد.

كما أن النكتة الأخرى التي ينبغي الالتفات إليها هي أن الآية اللاحقة (الحج - ٤٠) تقول في تحفيز المؤمنين على الدفاع المقدس: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ ديارِهِمْ بِغَيْرِ

١ - ومن جملة من صرح بأن هذه الآية هي أول آية نزلت في الجهاد - مضافاً إلى ما جاء أعلاه - المرحوم العلامة الطباطبائي في الميزان» و«البرسوي» في (روح البيان) والعلامة المشهدي في (كنز الدقائق) و«الآلوسي»، في روح المعاني، وإن ادعى البعض أن الآية الأولى في الجهاد هي قوة تعالى: «قاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم...» (البقرة - ١٩) وقال البعض إنها قوله تعالى: «إن الله يشتري من المؤمنين...» (التوبة - ١١١).

﴿حَقٌّ﴾. أي أن المشركين أخرجوكم من وطنكم ومنازلكم لا لذنوب إلا إيمانكم بالله، ولذا إذا لم تقفوا في وجوههم وتقاتلون تعرضت دنياكم ودينكم وإيمانكم ومساجدكم للخطر.

وبما أن الأمر بالجهاد صدر بعد الهجرة، فبدل على أن أصل الجهاد في الإسلام هو الدفاع ضد الأعداء، لأن المسلمين لم يحملوا السلاح طيلة السنوات الثلاثة عشر على الرغم من كل أساليب الإيذاء والضرب والجرح لعل المشركين يعودون إلى الرشد، ولما لم تنفع الأساليب السلمية مع المشركين وكانت نتيجة الصبر والتحمل هو الهجرة العامة والضغط الاجتماعي والاقتصادي حتى بعد الهجرة، لم يكن هناك أي مبرر عقلي لجلوس المسلمين مكتوفي الأيدي ناظرين قساوة الأعداء واضطهادهم واعتداءاتهم؟!



وفي الآية الثانية إشارة إلى فلسفة أخرى للجهاد، وهي كالفلسفة المذكورة في الآية السابقة يمكن أن توجد في كل زمان ومكان، يقول تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾.

والظريف أن القرآن الكريم يشير في ذيل هذه الآية بصراحة ويقول:

﴿فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْلَمُونَ بَصِيرٌ﴾.

وذهب جمع من المفسرين إلى أن المراد من «الفتنة» هو «الشرك»، وبعض قال إن المراد منها الضغوط التي إستعملها المشركون لإرجاع المؤمنين إلى الشرك وردّهم عن إيمانهم.

وفي تفسير الميزان - وإعتماداً على جذور هذا المصطلح الأصلية - فسّر الفتنة بمعنى الأمور التي يمتحن الناس بها، وبالطبع فإن تلك الأمور تكون ثقيلة على الناس وتستعمل عادة بمعنى زوال الأمن والصلح.

وقد ذكرنا في التفسير الأمثل، في ذيل الآية ١٩٣ من سورة البقرة خمسة معاني لهذا المصطلح إستناداً إلى آيات القرآن وهي:

١ - الإمتحان.

٢ - المكر.

٣ - البلاء والعذاب.

٤ - الشّرك وعبادة الأوثان.

٥ - الإضلال والإغواء.

وقد أشير في بعض كتب اللغة كلسان العرب إلى أغلب هذه المعاني أيضاً، ومن البديهي أنّ الفتنة في الآية مورد البحث لا يمكن أن تكون بمعنى الإمتحان أو المكر والبلاء، وعليه فهي بمعنى الشّرك أو ضغوط المشركين لإضلال الآخرين، ويمكن أن تكون بمعنى جامع شامل للشّرك وضغوط المشركين والعذاب والبلاء، وعليه فما دامت الضغوط مستمرة من قبل الكفار لتغيير عقيدة المؤمنين، يكون القتال في مواجهة ذلك مأذون فيه، ويجوز الجهاد للحصول على الحرية والحدّ من الضّغوط والتّعذيب، ولكن متى ما رفع الكفار أيديهم عن ممارسة ذلك، ينبغي الكف عن قتالهم، وعليه فالجهاد هنا نوع من أنواع الدّفاع.

وفي الآية الثالثة أمرٌ للمسلمين لأعداد كل لون من ألوان القوة لقتال الأعداء، يقول عزوجل: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ ثم يشير إلى مصداق واضح لذلك كان يعدُّ حينذاك من وسائل القتال المهمة، يقول عزوجل: ﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾. وفي العبارة اللاحقة يشير إلى الهدف النهائي لهذا الأعداد ويقول: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾.

وعليه فالهدف من الاعداد وتهيئة القوى ليس غزو الآخرين والهجوم على أحد، وإنما الهدف هو إخافة الأعداء، ذلك التخويف الذي يكون رادعاً من نشوب الحرب والقتال.

وفي الحقيقة، فإن تقوية البنية الدفاعية، كان دائماً عاملاً مؤثراً في الحد من هجوم الأعداء، وهذا هدف مقدس جداً ومطابق للعقل والمنطق.

ولابد من الالتفات إلى هذه النكته وهي أن مفهوم الآية الكريمة أوسع بكثير، ويشمل كل نوع من أنواع إعداد القوى المعنوية والمادية والعسكرية والإقتصادية والثقافية، وخصوصاً وأنها تؤكد على القوى المتناسبة مع كل زمان، ويدل ذلك على أن المسلمين يجب أن لا يتوانوا، بل عليهم أن يسعوا جاهدين لتوفير أحدث الأسلحة المعقدة في زمنهم، بل ويسبقوا الآخرين في ذلك، ولكن يبقى الهدف الأصلي لهذا الأعداد والإستعداد ليس غزو الآخرين والإعتداء عليهم، بل هو إطفاء نار الفتنة والحد من الإعتداء، وبعبارة أخرى خنق هجوم الأعداء في مرحلة النطفة.

ولما كان أعداد المعدات العسكرية المتطورة والحديثة في قبال الأعداء يحتاج إلى أموال طائلة، وهذا الأمر لا يمكن بدون إشترك جميع أفراد المجتمع، تعقّب الآية الكريمة بهذا المعنى بالقول: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

والنكته المهمة هنا هي أن الآية اللاحقة لهذه الآية (الآية - ٦١ - الأنفال):

﴿وَأِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

فذكر هذه الآية بعد تلك له معنى دقيق وعميق، وهو تأكيد آخر على روح حب الصلح والسلام في الإسلام، أي أن أمر المسلمين بإعداد أفضل أنواع الأسلحة والقوى إنما هو من أجل تحكيم أسس السلام والصلح لا الإعتداء على أحد.



والآية الرابعة وفي ضمن الترغيب بالجهاد، تقيد الجهاد أولاً بالأهداف المقدسة، ثم تؤكد على توحيد صفوف المسلمين، وهي من أهم عوامل الانتصار في الحرب مع الأعداء، يقول عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَتْهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ وعبارة «في سبيله» الواردة في كثير من آيات الجهاد يكشف لنا هذه الحقيقة وهي أن الجهاد يجب أن لا يكون من أجل حبّ التسلط والإستعمار والإستعلاء وغصب حقوق الآخرين وأراضيهم أو الإنتقام منهم أو أتباعاً للهوى والرغبات، بل لابد أن يكون الهدف هو الحق والعدالة وما يوجب رضا الله تعالى فقط، وتكرار هذا التعبير في آيات عديدة من القرآن إنما هو للحد من وقوع الحروب التي يكون الهدف منها وساوس ورغبات شيطانية ومادية، وهذا الأمر هو الفارق الأساسي بين القوى المسلحة الإسلامية وبين غيرها! (الفتوا جيداً).

ثم أن التعبير بجملة بنيان مرصوص (وهو البناء الذي إستعمل فيه الرصاص الذائب بدلاً من الإسمنت، لكي يكون صلباً وقوياً) يمكن أن يكون إشارة إلى أن أعداء الإسلام كالسيل الجارف المخرب، وأن صفوف المجاهدين الإسلاميين

كالسُدِّ الحديدي المنيع الذي يصمد أمام السُّيول. أو هو إشارة إلى السُدِّ الحديدي الذي بناه ذو القرنين لمقابلة قوم «يأجوج ومأجوج» السفاكين للدماء، أو كناية عن كل سدٍّ يقام في وجه الأعداء وهجومهم.

وعلى كل حال، فإن هذا التعبير يدل على أن الجهاد في الإسلام له جنبه دفاعية في الأصل، لأنَّ السُدود وسيلة دفاعية مؤثرة في قبال أمثال «يأجوج ومأجوج» على مرِّ التاريخ، ولا يوجد سدٌّ له جنبه الغزو والهجوم والإعتداء.

وكما أن السُدود إذا أصابها خللٌ أو ثغرة فإنها ستكون معرضة للخطر والتلاشي، فكذلك صفوف المجاهدين الرّساليين فمتى ما برز فيها إختلاف وفرقة وعدم إنسجام، فستكون محكومة بالإنحدار والفشل، فالله عزَّوجلَّ يحب الصّفوف المتراصفة المتحدة المتفقة والمنسجمة تماماً.



وفي الآية الخامسة، يأمر نبي الإسلام ﷺ أن يحفز المسلمين على قتال مع الأعداء، وهذا الأمر وارد بعد تلك الآيات التي تحرض على إعداد القوى لإخافة العدو والحدّ من وقوع الحروب المدمرة، وكذلك بعد الآية التي تحرضهم على الصّلاح والسّلم.

وفي الحقيقة، الحرب في نظر الإسلام آخر وسيلة مشروعة تستعمل للحدّ من إعتداءات الأجانب الأعداء، ففي البدء تعدُّ القوى لترهب الأعداء، ثمّ دعوتهم إلى السّلم من موضع القدرة لا من موضع الضّعف، ثمّ يصدر أمر القتال والجهاد إذا لم تنفع تلك السّبل، يقول عزَّوجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾، ثمّ يشير

إلى أهم عوامل النصر يعني الإستقامة والصمود، ويقول: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

فغباء هؤلاء وجهلهم يكون من جهة سبباً في عنادهم للمنطق والعقل وإصرارهم على روح العدوان فلا يفهمون إلا منطق القوة، ومن جهة أخرى يكون جهلهم سبباً لضعفهم وعدم إقتدراهم في ميدان الحرب، وذلك لأنهم يفتقدون الهدف والمبرر الواقعي في حروبهم، ومن هنا فإن بإمكان المؤمن الواحد أن يغلب عشرة منهم إذا ما إستقام وصمد، وبإمكان العشرين أن يغلبوا مائتين من الكفار.

يقول الراغب في مفرداته: التّحريض في الأصل بمعنى التّحريك نحو شيء بعد تزيينه وتسهيل طريق الوصول إليه عن طريق إزالة الموانع - وفي الحقيقة فإن الإيمان بالله والإعتقاد بيوم المعاد والأجر العظيم الذي أعدّه الله للمجاهدين والشّهداء في سبيل الله يزيل كل الموانع عن طريق جنود الإسلام، ويهّون عليهم هذا العمل الصّعب جدّاً والثّقل.

هذه الآية تخطّيء كلّ حسابات الموازنة بين القوى الظّاهريّة والماديّة، وتدل بوضوح على أنّ سلسلة من القوى المعنويّة موجودة عند المسلمين يمكنهم بالإتكاء عليها كسر شوكة جيش العدو المتفوّق صورياً بعدته وعدده عليهم، وكسب المعركة لصالح المسلمين.

* * *

الآية السادسة تحرض المؤمنين على الجهاد بطريق آخر، وهي تشبيه الجهاد

بالتجارة المربحة التي توجب النجاة من عذاب أليم، والنصر في الدنيا والآخرة، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ - تَوَمِّنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، وفي الآيات اللاحقة لهذه الآيات يعد المؤمنين بترجات عظيمة، حيث يقول: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ - وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَيَسِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ففي هذه الآيات يعتبر رأسمال هذه التجارة المربحة في الدنيا والآخرة مركب من الإيمان والجهاد، أي أنّ «العقيدة» و «الجهاد» هما ركنا هذه التجارة، ذلك الجهاد الذي يكون بالمال والنفس معاً، إذ أنّ إعداد الوسائل والمعدات العسكرية اللازمة للنصر لا يمكن إلاّ بصرف الأموال، والملفت للنظر هنا هو أنّه لم يذكر أن نتيجة الجهاد هي المغفرة والرحمة الإلهية والنعم الخالدة في الجنة فقط، وإنّما يذكر النصر القريب في هذه الدنيا ويعتبره أعزّ من آثاره الأخرى. (دققوا جيداً).

والتعبير بالتجارة، إشارة إلى نكته أنّ الإنسان على أي حال له رأسمال، وهذه الدنيا كالمتجر يمكن إستغلال رؤوس الأموال، وتشغيلها فيه وتبديلها إلى رؤوس أموال خالدة وباقية، وهذا لا يتم إلاّ بالتعامل مع الوجود المقدس للباري تعالى، الوجود الذي بيده كل مفاتيح الخير والسعادة، والتجارة مع هذا الوجود مقترن على الدوام مع الكرامة والمواهب وأنواع النعم.

كما أنّ النكته الجديرة بالذكر هنا هي أنّ المخاطب في هذه الآيات هم المؤمنون، مع أنّها تدعوهم في نفس الوقت إلى الإيمان! والمنظور في ذلك هو أنّ يرتقي هؤلاء المؤمنون من مراحل الإيمان الابتدائية والصورية إلى المراحل العالية المقترنة بالجهاد والأعمال الصالحة، وذلك لأنّ الإيمان شجرة مثمرة تبدأ من شجيرة صغيرة

حتى تصير أغصانها عالية إلى عنان السماء، فتثمر أنواع الفضائل ومكارم الأخلاق، وهذا يحتاج إلى طي مراحل تكاملية مختلفة.



وفي الآية السابعة، نجد نفس مضمون الآية السابقة ولكن في صورة جميلة أخرى، فهي تصور المعاملة وكأن الله هو المشتري والمؤمن هو البائع، والمتاع هو الأموال والأنفس، والتمن هو الجنة الخالدة، وأسناد هذه المعاملة العظيمة المربحة ووثائقها، ثلاث كتب سماوية هي التوراة والإنجيل والقرآن، يقول:

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ هُمْ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ؟﴾.

وهذه التجارة المربحة بأركانها الأربعة ووثائقها المضمونة، من أهم التجارات التي يمكن أن يقوم بها الإنسان في طول عمره ولهذا يبارك عز وجل للمؤمنين بصورة مباشرة هذه المعاملة المربحة حيث يقول: ﴿وَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

نعم لقد كانت هذه الدواعي هي السبب في وصول معنويات المقاتلين المسلمين إلى أعلى مستوياتها الممكنة، فمع قلة عددهم وعدتهم استطاعوا أن يتغلبوا على عدوهم في شرق العالم وغربه.



وفي الآية الثامنة يخاطب المؤمنين مرةً أخرى ويأمرهم بالصبر والمثابرة والإستعداد لصدّ هجمات الأعداء، يقول عزّوجلّ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

ففي هذه الآية أربعة أوامر مهمة تضمن عزّة المؤمنين وانتصارهم: الأول، الأمر بالصبر والصمود أمام الأحداث المختلفة وهوى النفس والشهوات، فيقول: إصبروا وهو في الواقع أساس كل إنتصار.

ثمّ يأمرهم بعد ذلك بالمصابرة. وهي من باب مفاعلة بمعنى الصبر والإستقامة في مقابل صبر وإستقامة العدو، وبتعبير آخر فإن مفهومها هو إته مها كانت المشاكل كثيرة وصعبة فإن صبركم وإستقامتكم أيها المؤمنون لا بدّ وأن يكون أكبر، وكلما زاد العدو من إستقامته عليكم أن تزيدوا من إستقامتكم وصمودكم حتى تغلبوا العدو (وصابروا).

وفي الأمر الثالث يأمرهم بالمرابطة ويقول: ﴿وَرَابِطُوا﴾، وهذه الجملة مأخوذة من مادة «رباط» وهي بالأصل بمعنى ربط شيء في مكان ما (كربط الفرس في محلّ معين) وكناية عن الإستعداد الذي يعتبر الإستعداد وحماية الثغور من أوضح مصاديقه، إذ أنّ الجنود يحفظون دوابهم ووسائلهم ومعداتهم في ذلك المحل.

ولذا فإن بعض المفسرين فسرها بحفظ الخيل والدّواب المركوبة في الثغور فقط، والإستعداد في مقابل العدو حتّى قالوا أنّ مفهومها الواسع يشمل الإستعداد لصناعة المعدات الحربية الحديثة - أعم من تلك التي يستفاد منها في حروب الجو أو الأرض أو البحر^(١).

ولا شك في أنّ هذا لا يعني أنّ الآية الكريمة لا تشمل الحدود الثقافية

والعقائدية، فإن مفهوم «رابطوا» واسع إلى درجة أنه يشمل كل استعداد للدفاع مقابل العدو، ولذا شُبِّهت بعض الروايات الإسلامية، العلماء بحراس الحدود حيث يقف هؤلاء صفّاً بوجه جنود إبليس، ويحولون دون هجومهم على الأشخاص الفاقدين لقدرة الدفاع عن أنفسهم، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «عُلَمَاءُ شِيعَتِنَا مُرَابِطُونَ فِي الثَّغْرِ الَّذِي يَلِي إِبْلِيسَ وَعِفَارِيَّتُهُ وَيَمْنَعُونَهُ عَنِ الْخُرُوجِ عَلَى ضَعْفَاءِ شِيعَتِنَا وَعَنْ أَنْ يَسْلُطَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ»^(١).

حتى أنه ورد في بعض الروايات عن الإمام علي عليه السلام تفسير جملة «رابطوا» بانتظار الصلوات الواحدة بعد الأخرى^(٢)، وهو في الحقيقة كالإستعداد في مقابل جنود الشيطان (تأملوا جيداً).

وفي الأمر الرابع، يأمرهم بالتقوى، إشارة إلى أن الصبر والإستقامة والمرابطة لا بد أن تكون جميعاً منسجمة ومعجونة بالتقوى والإخلاص، وأن تكون منزهة عن كل رياء وتظاهر.



وفي الآية التاسعة، يأمرهم عز وجل بأن يقاتلوا على جبهتين ويغلظوا في القتال، جبهة الأعداء الدّاخلين والعناصر المخربة الذين تغلغلوا في صفوف المسلمين والذين يستغلون الفرص لتضعيف الحكومة الإسلامية وزعزعة الأمن الداخلي، ويأمرهم أن يقفوا أيضاً بوجه الأعداء في الخارج الذين أشارت الآية إليهم بعنوان

١ - بحار الأنوار - ج ٢، ص ٥.

٢ - مجمع البيان - ج ١، ص ٥٦٢.

الكفار، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيُشَسِّ الْمَصِيرُ﴾.

وبطبيعة الحال فإن الجهاد له معنى واسع، فكما يشمل المواجهة المسلحة يشمل أيضاً المواجهة الثقافية والاجتماعية والغلبة في الكلام والكشف عن الهويات والتهديد أيضاً، وعليه فما ورد في الروايات عن الإمام الصادق عليه السلام: «إن رسول الله لم يُقاتل منافقاً قط»^(١) لا ينافي ما جاء في هذه الآية.

ومضافاً إلى ذلك فإن ما جاء في الآية الشريفة يعتبر أمراً كلياً، فإن لم يتجاوز المنافقون الحدود المعينة لابد من مواجهتهم بالأساليب غير المسلحة فقط، وأما إذا كانت مؤامراتهم تشكل خطراً جدياً، لم يكن إلا مواجهتهم بالجهاد المسلح وكسر شوكتهم، كما حدث مراراً في زمن الإمام علي عليه السلام.

وبتعبير آخر، فإنه وإن كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد سلك طريق المداراة واللين مع المنافقين ولكن، كما وذكر ذلك سيد قطب في تفسير الظلال فإن اللين له مواضع وللشدة مواضع أخرى، وإذا لم يتصرف في كل موضع بما يناسبه، أدى الأمر إلى تضرر الشريعة والمسلمين، وعليه فلا مانع من المداراة في شرائط معينة، وإستعمال الشدة والخشونة وحتى الجهاد المسلح في شرائط وظروف أخرى^(٢).

* * *

وفي الآية العاشرة إشارة إلى مقام المجاهدين والقوى العسكرية الإسلامية

الشامخ، وأفضليتهم وإمتيازهم على الآخرين، يقول: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

وبهذا يقسم القرآن المجيد المسلمين إلى مجموعتين «المجاهدين» و «القاعدين»، ثم يقسم القاعدين إلى قسمين «أولي الضرر» و «غير أولي الضرر» الذين يمتنعون عن الإشتراك في القتال لتخاذلهم ثم يعتبر أن الدرجات العظيمة والفضل الكبير والمغفرة والرحمة الإلهية لا تشمل إلا المجاهدين.

ومن هنا يتضح تماماً فإنه، وخلافاً لما هو المعروف اليوم في العالم من أن وظيفة القتال مع الأعداء مختصة بمجموعة خاصة من الناس، أن واجب القتال في الإسلام يكون في عهدة كل من يقدر على حمل السلاح وجهاد الأعداء ولهذا لم نعهد في عهد رسول الله ﷺ تشكيل جيش خاص بعنوان القوات المسلحة، وعندما تشتعل الحرب كان كل من يقدر على حمل السلاح وباستلھام من القرآن المجيد يحمل سلاحه ويتجه نحو ميدان القتال، وبتعبير اليوم، فإن لكل فرد من المسلمين مكانه الخاص في صف التعبئة العسكرية، وهذا الأمر صار سبباً في تعاظم القدرة العسكرية عند المسلمين.

* * *

الجيش المنظمة والتعبئة الجماهيرية:

من خلال آيات كثيرة أخرى واردة في أبعاد مسألة الجهاد الإسلامي المختلفة

يتضح الهيكل العام للقوات المسلحة في الحكومة الإسلامية وخصائصها، وتبدو إمتيازاتها على سائر مناهج المجتمعات الأخرى في الأمور العسكرية.

وبطبيعة الحال فإننا نعيش في عصر تعقدت فيه الفنون العسكرية جداً، واكتسبت طابع التخصص، فلا مفر من الاستفادة من القوى المتخصصة في هذه الفنون من كبار الضباط وذوي الرتب العسكرية الذين درسوا فنون الحرب وتمرنوا عليها، وعليه فمن اللازم إبقاء مجموعة من هؤلاء بعنوان «الكوادر الثابتة» في الجيش، ليهتموا ليلاً ونهاراً بالأمور الدفاعية والتخطيط والبرمجة والإستعداد في كل لحظة لمواجهة الخطر الخارجي والداخلي، ولكن مع كل ذلك، فدور التعبئة الجماهيرية العامة محفوظ في محله، بل لا يمكن أن تؤدي المجاميع المذكورة أعلاه دورها بشكل فاعل ومثمر بدون التعبئة العامة والقوات الجماهيرية، كما شاهدنا دور هذه القوات الجماهيرية في الحرب العدوانية التي فرضت على الجمهورية الإسلامية ولمدة ثمان سنوات، إذ لولا وجود قوات التعبئة الجماهيرية، لإحتلت القوات العراقية المعادية مساحات عظيمة من أراضي إيران، وقد كانت هذه القوات العظيمة البطلة هي التي صدت قوات صدام المدعومة من القوى الإستكبارية العظمى كل الدعم. ولذا، فإن تصور البعض أن دور التعبئة الجماهيرية العامة خاص بذلك الزمن الذي لم تكن الفنون العسكرية قد تعقدت وتطورت فيه كما هي عليه اليوم - كزمن النبي الأكرم ﷺ تصور خاطيء جداً.

واليوم أيضاً لا يمكن إنكار دور قوات التعبئة الجماهيرية في الدفاع عن الدول الإسلامية، والشاهد الآخر على هذا الموضوع مجاهدو فلسطين المحتلة، فنحن نعلم جيداً أن الذي أقلق إسرائيل وسلب النوم من عينيها في الأراضي المحتلة هو القوات الجماهيرية غير النظامية والتي تتشكل غالباً من الشباب والصبيان ذري

الأعمار الصغيرة، والذين لا يمتلكون السلاح إلا الحجارة في مواجهة إسرائيل! فلو لم تكن نعيش نماذج عينية لهذه القضية، فسوف يصعب تصديق وجود أفراد يقاتلون بالحجارة ويؤرقون العدو في عصر الأسلحة المتطورة والقنابل الذرية والصواريخ العابرة للقارات!

ففي فلسطين المحتلة، لا يوجد جيش نظامي يواجه إسرائيل، وكل ما يوجد إنما هو أفراة تعبوية وقوات جماهيرية غير منظمة، إكتسبت بمرور الزمن تجربة جيدة وخبرات كثيرة حتى صارت عملياً وكأنها جيش مدرب، مع وجود مجاميع لا تزال تحارب بنفس الطرق البدائية ومع ذلك فقد أفلقت العدو المجهز بأحدث أنواع الأسلحة!

وعليه ينبغي على الحكومة الإسلامية أن لا تتساهل في مسألة الإستفادة من قوات التعبئة الجماهيرية مطلقاً.

وعدم وجود قوات تعبوية جماهيرية في الدول الصناعية المتطورة، وعدم إستفادة تلك الدول من الجماهير، ليس إلا لعدم إعتقاد هؤلاء بوجوب الجهاد بعنوان فريضة الهية عظيمة، فهؤلاء يرون أن الحرب مسئولية الدولة فقط، أما في الإسلام فإن الجهاد وظيفه كل فرد فرد من أفراد المسلمين.

أن عظمة الشهادة وعظمة مقام الشهداء في الإسلام ليس أمراً معروفاً عند غير المسلمين، ومن هنا فإن دواعي التعبئة الجماهيرية غير موجودة عند الآخرين، أما عند المسلمين فهي موجودة دائماً.

وطبيعة الحال، فإن تلك الدول التي لا تعتقد بمثل هذه الثقافة عند ما يصل حد السيف إلى رقابها، وتعرض بلادهم لخطر الفناء فإنها قد تفكر في الإستعانة بتشكيل قوات تعبئة جماهيرية، أما في الإسلام فإن هذه القوات موجودة على الدوام.

ولذا، فعلى الحكومة الإسلامية وبعد الإفتخار بهذه الثقافة الدّينية، إن تهتم جداً بقوات التعبئة الجماهيرية حتى في زمن الصّلاح، بل عليها أن تدرب قوات التعبئة الجماهيرية بمرور الزمن على الفنون العسكرية المتناسبة مع عصرها، حتّى يتمكن كل من يقدر على حمل السلاح من التّوجه إلى ميدان المعركة ساعة الخطر.

ومن ذلك تكريم مقام الشّهداء واحترام عوائلهم وتقديرهم المادي والمعنوي جزء من إرشادات الإسلام، ومن التّدابير الأساسيّة لحفظ روح التّعبئة الجماهيرية الجهاديّة وبقائها في أوساط المسلمين، ولو نُسي الأمر فإنه سيترك بدون شك تأثيرات سلبية خطيرة وكثيرة في تضعيف الرّوح الجهادية عند المسلمين.

وكم هو جميل أن يكون إلى جنب كل مسجد من مساجدنا وحدات للتعبئة الجماهيرية، وأن تعتبر التّعبئة الجماهيرية عبادة كبيرة إلى جنب الصّلاة. وهذه الأمور لا يمكن تحقيقها إلّا في ظلّ الإعتقادات الصحيحة والثّقافة الدّينية، وهي من الأسلحة الأستراتيجية التي نمتلكها اليوم والتي حرمت منها الدّول الإلحادية وإن كانت مجهزة بأحدث أنواع الأسلحة والتّدريبات العسكريّة:

ويتضح لنا من خلال الآية الشريفة: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾^(١) والتي مرّ الحديث عنها في البحث السّابق، أنّ على المسلمين أن يحفظوا إستعدادهم وقدراتهم العسكرية حتّى في زمن الصّلاح فإذا تطورت الفنون العسكرية الحربيّة يوماً بعد آخر فإن على المسلمين أن يتدربوا بإستمرار بحسب ما يتناسب مع ذلك التّطور، كما أنّ عليهم أن يحصلوا على تلك الأسلحة المتطورة بأي ثمن كان، ومع الأخذ بنظر الإعتبار أنّ كلمة «قوة» تشمل كلّ أنواع القوى الماديّة و المعنويّة، البشريّة وغير البشريّة، فلا بدّ من إعداد كلّ ذلك.

ونقرأ في الآية (٧١) من سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ يَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾، وبعد الأخذ بنظر الاعتبار أن «الحذر» بمعنى اليقظة والفتنة والإستعداد الدائم لمواجهة المخاطر، وقد تأتي أحياناً بمعنى الوسيلة التي يمكن بها مواجهة الخطر، يتضح لنا جيداً لزوم الإستعداد الكامل الدائم عند المسلمين في مقابل الأعداء.

وجملة ﴿فانفروا ثباتٍ أو انفروا جميعاً﴾ مع الإلتفات إلى أن النفر هو الرحيل والهجرة، تدلّ على أنه لا ينبغي للمسلمين الجلوس في البيوت إنتظاراً لهجوم العدو، بل عليهم أن يستعدوا لإستقباله ومواجهته - قبل أن يهجم عليهم - ويهجموا عليه مستفيدين من الأساليب القتالية المختلفة لهذا الأمر، فتارة يهجموا بصورة مجاميع متفرقة، وأخرى بصورة حرب عصابات، وتارة بشكل جيش منظم يبدأ بالهجوم على العدو، فيقاتلوا في كل ظرف بما يتناسب معه.



السبق والرماية:

وبالنسبة إلى التدريب العسكري، نجد أن الإسلام مضافاً إلى ترغيبه المسلمين بمسابقة الخيل والرماية، فإنه أجاز للمسلمين إقامة المسابقات والرّهان والربح والخسارة في هذا المجال أيضاً، مع أن الإسلام يحرم القمار والربح والخسارة ويعتبر ذلك من الذنوب الكبيرة، أمّا في هذا المورد فهناك حكمة وفلسفة واضحة إستثنى هذه الموارد.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَنْفِرُ عِنْدَ الرَّهَانِ، وتلحن صاحبه ما خلا

الحافِز والخَفّ والرّيش والنّصل^(١).

والملفت للنظر أن مثل هذه المسابقات كانت تقام بحضور رسول الله ﷺ وأحياناً بدعّمه المادي لها، حتّى ورد عن الإمام السّجاد عليه السّلام أنّه قال: «أنّ رسول الله ﷺ أجرى الخيل وجعل سبقها أواقي من فضة».

حتّى أنّ المستفاد من بعض الروايات أنّ النّبي الأكرم ﷺ كان يشترك بنفسه في بعض تلك المسابقات^(٢).



١ - وسائل الشّيعّة، ج ١٣، ص ٣٤٧، الحديث ٦ الباب ١ من كتاب السبق والرّماية، واحتمل بعض الأعاضل أنّ مصطلح «نصل» لا يختصّ بالسهم بل يشمل كل سلاح له رأس مدبب كالرمح والخنجر، حيث كانوا يستبقون برميها، كما أنّ مصطلح «الخف» يشمل السّباق بالجمال والفيلة، وإن «الحافر» يشمل ذوات الأربعة غير الحصان، وأن «الريش» إشارة إلى السهم، الذي يكون في آخره عادة عدة ريشات لتنظيم حركته.

٢ - نفس المصدر، ص ٣٤٩، الحديث ٥، صفحة ٣٥١، الحديث ٤.

آداب الجهاد

أحد أفضل الطرق لمعرفة أصالة المدارس هو دراسة كيفية سلوك أنصار تلك المدرسة مع العدو وخاصة في ميدان الحرب ثمّ مع أسراء الحرب ومفرزات الحرب. ودراسة الآيات القرآنية والروايات الإسلامية الواردة في آداب الحرب توضح هذه الحقيقة وهي أنّ الإسلام لم يتخلّ عن الإهتمام بالمسائل الأخلاقية والإنسانية حتّى في أحسن لحظات الحياة، يعني ميدان القتال، فنجده قد عجن مورد الغضب باللطف والخشونة بالرحمة، ولا شك أنّ على الحكومة الإسلامية أن تهتم بهذه الأخلاقية الرفيعة التي لها أثر عميق في كيفية نظرة الأجانب للإسلام والتي يمكنها أن تكون وسيلة لإستقطاب هؤلاء وتأمّلهم في الدين الإسلامي علّهم يرجعون. وقد وردت تأكيدات كثيرة في آيات القرآن على رعاية العدالة وعدم تجاوز الحدود المعقولة والإنسانية في مقابل الأعداء.

من جملة تلك الآيات، قوله تعالى في سورة البقرة، الآية (١٩٠):

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.

ففي الآية إشارة إلى ثلاث نقاط، الأولى هي أنّ الحرب لا بد أن تكون لله وفي سبيل الله لا من أجل السلطة والانتقام.

والأخرى هي أن الحرب لا بد أن تكون مع المعتدي، أي مالم تُشن الحرب عليكم، لا تمدوا أيديكم إلى السلاح.

والنقطة الثالثة هي عدم تجاوز الحدود في ميدان الحرب، ورعاية الأصول الأخلاقية.

وعليه، فإن وضع العدو سلاحه وإستسلم، فلا ينبغي قتاله، وكذا الحال بالنسبة لأولئك الذين لا يقدرّون على الحرب والقتال كالعجزة والشيوخ والأطفال والنساء، فلا ينبغي إلحاق الأذى بهم، كما أن تدمير البساتين والمزارع وهدم الأماكن التي يمكن أن يستفاد منها، واللجوء إلى إستخدام الأسلحة ذات الدمار الشامل، كل ذلك من مصاديق التعدي على الأبرياء والأساليب غير الإنسانية، وهي ممنوعة في نظر الإسلام.

وفي الآية ١٩٤ من نفس السورة (بعد تلك الآية بعدة آيات) يؤكد تعالى مرّة أخرى على هذا المعنى ويقول:

﴿فَمَنْ إِعْدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاغْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا إِيْعَدْتُمْ عَلَيْكُمْ وَإِتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ وفي هذا إشارة إلى أنكم إذا أردتم نصر الله لكم والإنتصار في الحرب، فعليكم إجتناّب التعدي والتمادي في القتال.

ونفس هذا المعنى أكدت عليه الآية ٢ من سورة المائدة بشكل آخر، حيث تصرّح الآية قائلة: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾ (وتسيطر عليكم روح الإنتقام الناشئة من سلوك أعدائكم الخشن في الحديبية).

وفي الرّوايات الإسلامية أيضاً وردت تعبيرات مختلفة وإرشادات كثيرة في مورد رعاية الأصول الأخلاقية الإنسانية في ميدان الحرب وبعد الإنتهاء منها تجاه الأعداء، وتتجلى في هذه الرّوايات العواطف الإنسانية وروح السّلم بشكل واضح.

كتب أرباب السّير في سيرة رسول الله ﷺ أنه متى ما أمر جيشاً بالسّير إلى حرب، كان يستدعي الجيش وقادته ويعظهم ويرشدهم بمواعظ وإرشادات منها:

«إذهبوا بإسم الله تعالى...»^(١).

ورسول الله ﷺ نفسه لم يتعامل مع الأعداء بغير هذا التعامل الإنساني، فلم يتوسل بالإغارة لتحقيق النصر، وكان يرى جهاد النفس مقدّم على كل شيء. والتدقيق في الإرشادات الدّقيقة جدّاً أعلاه، يبين بوضوح بأن الإسلام لم يغفل عن المسائل الأخلاقية المرتبطة بالحرب أبداً، وإن شخص الرسول ﷺ كان يعمل بها بحذافيرها تجاه العدو، لا مثل الأشخاص الذين يدافعون عن حقوق الإنسان بالسنتهم فقط، وأمّا أعمالهم فخالية من ذلك.

ومضافاً إلى ذلك فإن التأكيد على أنّ جهاد النفس أفضل الجهاد، إشارة إلى أنّ المسلم الحقيقي هو المسلم الذي يراعي الأصول الإنسانية في ميدان الحرب. ومما ذكر أعلاه يتضح أنّ الإسلام يمنع من استخدام الأسلحة الكيميائية وكل سلاح ذي دمار شامل، وعلى الحكومة الإسلامية أن تجتنب استخدام مثل هذه الأسلحة.

وفي حديث آخر عن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال: «فإذا كانت الهزيمة بإذن الله فلا تقتلوا مذبراً ولا تصيبوا مُغوراً ولا تجهزوا على جريح ولا تهجوا النساء بأذى وأن شتمن أعراضكم وسبين أمرائكم»^(٢).

ومن خلال التأمل في حديث النّبي الأكرم ﷺ الذي ذكرناه وأوامره إلى الجيش وقادته قبل الحرب، يتضح لنا بأن هذه الإرشادات إنّما هي من مبتنيات الإسلام الأساسية في الجهاد والحرب مع الأعداء، وعلى الحكومة الإسلامية أن

١ - منتهى الأمال، ج ١، ص ١٦، في باب الفضائل الأخلاقية عند النّبي ﷺ وذكر العلامة المجلسي شبيه هذا المعنى في البحار، ج ٩٧، ص ٢٥.

٢ - نهج البلاغة - الكتاب ١٤.

تعمل كل ما بوسعها من أجل إحياء تلك المباني والمحافظة عليها.



أقسام الجهاد:

الجهاد الإسلامي وإن قسّمه المحققون إلى قسمين هما: الجهاد الابتدائي والجهاد الدفاعي، ولكل منهما فروع أخرى، ولكن في الواقع حتى الجهاد الابتدائي يعتبر جهاداً دفاعياً كما سيوضح لنا لاحقاً. وبهذه الإشارة نعود إلى آيات القرآن المجيد، ونتناولها بالبحث والتحقيق:

١ - الجهاد الابتدائي:

ورد في الآية ٣٩ من سورة الحج، والتي يعتقد بعض المفسرين أنها أول آية نزلت في الجهاد: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾. ثم يضيف تعالى في توضيح المطلب ويقول: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾.

والتعبير بالاذن في الآية يناسب ما ذهب إليه القائلون بأنها أول آية نزلت في الجهاد، وتدلّ على عدم وجود مثل هذا الاذن قبل ذلك.

وعلى أي حال، فهي تدلّ بوضوح على أنّ بداية تشريع الجهاد هو الجهاد الدفاعي في مقابل العدو، ذلك العدو الذي أجبر المسلمين على الهجرة وترك منازلهم بلا ذنب إقترفوه، نعم إن كان لهم ذنب فهو الاعتقاد بالله تعالى وحده.

ويذهب البعض الآخر من المفسرين إلى أنّ أول آية في الجهاد هي الآية (١٩٠)

من سورة (البقرة) والتي ورد فيها.

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾.

وحتى لو قبلنا هذا الرأي فإن أساس الجهاد مبني على كسر هجوم العدو وعدوانهم، وكل عاقل يدرك أن السكوت على عدوان العدو السَّفَاك لا يتلائم مع أي منطق.

والتعبير «في سبيل الله» يدل على أنه حتى الدفاع الإسلامي، إنما يكون لله وعلى أساس الموازين الشرعية الإلهية لا طلباً للتسلط والجاه والهوى.

هذا أول شكل للجهاد في الإسلام، ولكن لا ينبغي أن يفهم من معنى «الجهاد الدفاعي» أن الحكومة الإسلامية لا بد أن تجلس مكتوفة الأيدي بلا حراك حتى يدخل العدو بيتها ويغزوها في عقر دارها، ثم تهب للدفاع، بل على العكس من ذلك، فبمجرد أن تشعر باستعداد العدو للهجوم والقتال وأن غرضه هو الإعتداء على بلاد الإسلام، عليها أن تأخذ بزمام المبادرة وتكسر شوكة العدو وقدرته في مهدها.

٢ - الجهاد لإخماد نار الفتنة:

ورد في الآية ١٩٣ من سورة البقرة: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينَ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عَدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾.

وكما أشرنا فيما سبق فإن في تفسير مصطلح «الفتنة» بين العلماء كلام، ولكن مهما فسرنا «الفتنة»، تارةً بإيجاد الفساد، وإيذاء المؤمنين أو بالشرك وعبادة الأوثان المقترنة بفرض هذا الاعتقاد على الآخرين، أو كان بمعنى إضلال وإغواء وخداع المؤمنين، كل ذلك أنواع من الهجوم من قبل العدو على المؤمنين، ولذا فإن الجهاد في مقابل ذلك يأخذ شكلاً دفاعياً.

وجملة ﴿فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عَدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ تدل بوضوح على أن الهدف هو

الحدُّ من ظلم الظَّلمة الجائرين.

والملفت للنظر أنه ورد في الآية «١١٩» من نفس السّورة (البقرة):

﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾.

فهذه الآية وبملاحظة الآية السابقة التي تتحدث عن المشركين المهاجمين، تدعو بصراحة إلى قتال ومحاربة أولئك الذين أغاروا على المسلمين وأخرجوهم من ديارهم ومنازلهم والذين لا يمتنعون من ارتكاب أي جريمة في حق المسلمين خاصة من أجل تغيير عقيدتهم، فكانوا يمارسون الضغوط والتعذيب الوحشي ضدهم، فالقرآن بقتال هؤلاء فحسب، بل إنه يوجب ذلك عليهم.

والفتنة وإن قُسرَت في بعض الأحاديث وكلمات جمع من المفسرين بالشرك وعبادة الأوثان، ولكن قرائن كثيرة في هذه الآية والآيات السابقة واللاحقة تدلّ بوضوح على أنه لم يكن المنظور منها الشرك أبداً، بل أعمالاً كأعمال مشركي مكة الذين كانوا دائماً يمارسون الضغوط والتعذيب ضد المسلمين لتغيير عقيدتهم، ولذا ورد في تفسير «المنار» في معنى الآية قوله: ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ لَهُمْ قُوَّةٌ يَفْتَنُونَكُمْ بِهَا وَيُؤْذِنَكُمْ لِأَجْلِ الدِّينِ وَيَمْنَعُونَكُمْ مِنْ إِظْهَارِهِ أَوْ الدَّعْوَةِ إِلَيْهِ﴾^(١).

ولا شك في أنّ مثل هذه الفتنة وسلب الحريات والتعذيب والضغوط لتغيير العقيدة ودين الله أشدُّ من القتل.

وعليه فجملة ويكون الدين كله لله إشارة إلى أنّ رفع الفتنة إنّما يكون في أن يعبد شخص خالقه بحرية، وأن لا يخشى أحداً، لا أن يكون المشركون أحراراً في عبادة الأوثان فيبدلوا الكعبة إلى محل عبادة الأصنام، ويُسلَب المسلمون حقّ قول «الله أكبر» و «لا إله إلا الله» علناً.

وعلى أي حال، فالآيات (١٩٠)، و (١٩١)، و (١٩٣)، من هذه السورة والمرتبطة بعضها مع البعض الآخر، تدل جميعاً على أن إخماد نار الفتنة بإعتباره هدفاً للجهاد الإسلامي له جنبه دفاعية في الواقع، ويحفظ المسلمين في مقابل الهجمة الثقافية والاجتماعية والعسكرية لإعداء الإسلام.

٣- الجهاد لحماية المظلومين:

تدعو الآية (٧٥) من سورة النساء المسلمين إلى الجهاد من أجل حماية المظلومين وقاتل الظالمين وتقول: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾.

ففي الآية أولاً دعوة للجهاد في سبيل الله، ثم تعقب مباشرة بالكلام عن المستضعفين والمظلومين الذين مارس الأعداء القساة معهم أشدَّ الضغوط حتى أجلوهم عن وطنهم وديارهم ومنازلهم وأهليهم، ويبدو أن هذين المعنيين يعودان في الواقع إلى معنى واحد، إذ أن نصرة مثل هؤلاء المظلومين مصداق واضح من مصاديق الجهاد في سبيل الله.

وينبغي أن لا نغفل عن الفرق الواضح بين «المستضعف» والضعيف، فالضعيف يطلق على الشخص العاجز، أما المستضعف فهو الشخص الذي أضطهد على يد الظلمة الجائرين، سواء كان اضطهاداً فكرياً أو اجتماعياً أو اقتصادياً أو سياسياً (التفتوا جيداً).

ومن الواضح أن هذا الجهاد جهاد دفاعي أيضاً، وهو الدفاع عن المظلومين ضد الظالمين.

والأهداف الثلاثة أعلاه، هي أهم أهداف الجهاد الإسلامي، وبالرغم من تقسيمه إلى قسمين (الجهاد الابتدائي والجهاد الدفاعي) إلا أن حقيقتهما دفاعية - ولهذا لا نجد في تاريخ الإسلام مورداً واحداً يدل على استعداد الكافرين للعيش بصلح وسلام مع المسلمين ومواجهة ذلك بالرد والرّفض من قبل الإسلام.

واليوم أيضاً، ليس للحكومة الإسلامية هدف عدواني ضد أحد، ومالم تفرض عليها الحرب فإنها لا تقاتل أحداً أبداً، ولكنها تعتقد أن الدفاع عن المظلومين من أهم وظائفها ومسؤولياتها، وأن حب الفتنة وإيجاد الرّعب والوحشة والتّضييق والضغط وسلب الحريات من قبل أعداء الإسلام نوعٌ من أنواع إعلان الحرب، ولذا تعتبر نفسها مسؤولة عن الدفاع ضدهم.

ونكرر ثانية، مفهوم الدفاع ليس أن يجلس الإنسان مكتوف الأيدي حتى يُغزى في عقر داره، بل عليه أن يتحرك إيجابياً ضدّ تحركات الأعداء ويحفظ قدرته العسكرية القتالية وخاصة في الظروف الحساسة، وأن يبادر بضرب الأعداء قبل أن يفاجئه العدو المتآمر.



الحكومة الإسلامية والسّلام

لا شك في أنّ الحرب وأراقه الدماء والتّخريب مضافاً إلى منافاتها للفترة السليمة، فإنها لا تنسجم أيضاً مع قوانين عالم الوجود.

فالحرب، نوع مرض وإنحراف ولجوء إلى العنف للوصول إلى الأهداف الظالمة، وحتى الحروب المقدسة التي تتميز بجنبه دفاعية عن الحق والعدالة، إنّما تنشأ نتيجة إنحراف مجموعة من النّاس عن الصّراط المستقيم، وتارة تفرض على بعض الأفراد أو الأمم.

فحصيلة الحرب دائماً هي الدّمار وإتلاف الأنفس والأموال وتخريب المدن والعمار، وتأصيل العداوات والبغضاء.

ولذا ينبغي إجتناّب الحروب حدّ الإمكان، وإستغلال القوى البشريّة والمنح الإلهيّة في طريق أعمار المجتمعات.

نحن نعرف أنّ جهاداً وقتالاً دائماً يدور في داخل وجود كلّ إنسان، وهو الجهاد ضد الميكروبات الخارجية، فخلايا الدّم البيضاء التي تعتبر في الواقع جنوداً مدافعة عن دولة الجسد في حالة قتال دائم ومرير مع أنواع الميكروبات التي تردّ الجسد عن طريق «الماء» و «الهواء» و «الجروح».

وهذه الحرب في الواقع، حرب دفاعيّة أيضاً، فلو كانت الظروف بنحو لم تهجم فيه تلك الميكروبات على هذه الدّولة، لخدمت نيران هذه الحرب.

يحاول بعض العلماء الذين جندوا طاقاتهم لخدمة المستعمرين أن يصوروا الحرب على أنها أمرٌ موافق للطَّبع البشري، فيضفون الشرعية على استخدام المستعمرين القوَّة والعنف لتحقيق أهدافهم الخبيثة التوسعية، فهولاء يتشبثون بأصل الصِّراع من أجل البقاء وهو أحد أصول داروين الأربعة ويقولون: «ينبغي أن تكون الحرب والصِّراع بين البشر قائمة على قدمٍ وساق وإلاَّ عمَّ الخنوع والضعف الأرض، وتأخر نسل البشر إلى الوراء! وإمَّا الصِّراع والحرب فهو سبب لبقاء الأقوياء وإضمحلال الضعفاء وزوالهم وبهذا تتحقق مسألة انتخاب الأصلح!!

وقد يُستدل أحياناً ببعض آيات القرآن - التي يفسرونها تفسيراً محرّفاً بالإعتماد على الرأي - لإثبات هذا الموضوع.

ولكن هذا الإستدلال ضعيف جداً، إذ على فرض قبول هذا الأصل - الصِّراع من أجل البقاء - في خصوص الحيوانات المفترسة المتوحشة - وهو رأي مردود من قبل العلماء الذين نقدوا الأصول الداروينية - فلا يمكن أن نقبل ذلك في عالم الإنسانيَّة، إذ أن البشر يمكنهم أن يتكاملوا عن طريق التعاون البقائي والإستباق السَّالم للرفي، كما يفعلون ذلك في ميدان الصَّناعة والسِّياسة بين الأحزاب والمجاميع المتنافسة في دنيا اليوم، وعلى هذا الأساس فإن حياة البشريَّة اليوم مبتنية على أصل التَّعاون من أجل البقاء لا الصِّراع من أجل البقاء.

وعلى كل حال، لا نجد أي دليل يمكنه توجيه الحرب وإضفاء المشروعية عليها وخاصة في مثل حروب هذا العصر التي لا يمكن جبران الخسائر الناجمة عنها في قرون، سواء الخسائر البشريَّة أو الصَّناعية والزَّراعية وغيرها.

والدِّماغ السَّقِيم المريض فقط هو الذي يمكنه تبرير مثل هذه الحروب.

وبعد هذه الإشارة نعود للقرآن المجيد، ونحقق في روح السَّلم في الحكومة

الإسلامية:

- ١ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾^(١)
- ٢ - ﴿وَأِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٢)
- ٣ - ﴿فَإِنْ اعْتَرِزَلَكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَآلَقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾^(٣)
- ٤ - ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاتَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾^(٤)
- ٥ - ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾^(٥)
- ٦ - ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ وَيمْهَلَكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾^(٦)
- ٧ - ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ آتَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾^(٧)

* * *

-
- ١ - البقرة - ٢٠٨
 - ٢ - الأنفال - ٦١
 - ٣ - النساء - ٩٠
 - ٤ - الحجرات - ٩
 - ٥ - النساء - ١٢٨
 - ٦ - البقرة - ٢٠٥
 - ٧ - النساء - ٩٤

تفسير وإستنتاج:

تدعو الآية الأولى المؤمنين في كل العالم إلى الصلح والسلام والإستقرار، وتعتبر الحرب من مؤامرات ومخططات الشيطان، يقول تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

فمن جهة تخاطب الآية المؤمنين، وهذا يدل على أن السلام والصلح لا يتحقق إلا في ظل الإيمان.

ومن جهة أخرى، فإن الإعتقاد على مصطلح «كافة» يدل على عدم وجود أي إستثناء في قانون الصلح، وأن الحرب أمرٌ مخالف لتعاليم الإسلام والقرآن، ولا يمكن تصورها إلا بشكل مفروض.

ومن جهة ثالثة، فإن التعبير «بخطوات الشيطان» إشارة لطيفة إلى أسباب الحرب تنشأ بشكل تدريجي وإن شياطين الجن والإنس يسوقون الناس خطوة خطوة نحو بحر النار هذا، وكما ورد في المثل المعروف «بَدَوْ الْقِتَالُ اللَّطَامُ» أي صفة، ولذا ينبغي إخماد نار الحرب في خطواتها الأولى.

ومن جهة رابعة، يستفاد من الآية أن كل عمل يؤدي إلى عرقلة عملية السلام والصلح، إنما هو عمل شيطاني، ولم لا يكون كذلك والحال أن الحرب نارٌ محرقة تأكل كل القوى والطاقات المادية والمعنوية البشرية وغير البشرية وتحيلها إلى رماد، وخاصة في مثل عصرنا الحاضر والذي تكون الحروب فيه أفضع وأكثر تخریباً وخسارة من الحروب السابقة، وطبقاً لحساب الاحصائيات فإن جبران الخسائر الناجمة من بعض الحروب تستغرق أحياناً قرناً من الزمن، وهذا بالنسبة إلى الخسائر الإقتصادية فقط، أما الخسائر البشرية فهي غير قابلة للتعويض والجبران أبداً.

وقد يكون ذلك هو السبب في أن الملائكة إعتبروا أن من أهم العيوب في الإنسان هو إراقته للدماء والحروب المدمرة، وذلك عندما قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فكان جواب الملائكة: ﴿قَالُوا اتَّجَعَلُ فِيهَا مَنْ يَفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾^(١).
فيتضح أنه لا عيب أقبح من هذا العيب.

وما ينبغي التأمل فيه هنا هو أن أرباب اللغة صرّحوا بأن «السلم» و«السلم» كلاهما بمعنى «الصلح» وقد أخذوا من مادة «السلامة» وإن أحد أسماء الله تعالى هو «السلام»، وذلك لأن ذاته المنزهة هي مصدر الصلح والإستقرار والسلامة، وطبقاً لما ورد في «التحقيق» فإن مادة «سلم» في الأصل ما يقابل «الخصومة» ولازمها الخلاص من الآفاق والبلايا والوصول إلى السلامة والعافية، وإنما سمي الإسلام إسلاماً لأنه منشأ الصلح والسلامة في الدنيا والآخرة، والسلم هو الآلة التي يصل بها الإنسان سالماً إلى النقاط العالية ثم يعود كذلك.

والعجيب أن بعض المفسرين الكبار فسّروا «السلم» في هذه الآية بتفسيرات لا تتناسب مع ظاهر الآية.



وفي الآية الثانية، إشارة إلى جماعة من الذين يحاربون المسلمين، يقول عز وجل: ﴿وَأَنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.
والمهم هنا هو أن هذه الآية في سورة الأنفال وردت بعد آية شريفة تأمر المسلمين بالإستعداد الدائم وتهيئة كل أنواع القوى لإخافة الأعداء.

أي أن الهدف الأصلي ليس هو الحرب، بل من أجل تقوية دعائم الصلح أيضاً، إذ لو لم يكن المسلمون مستعدين تماماً، لسيطرت الروح الإستعمارية والتسلط على تفكير العدو.

والنكتة المهمة الأخرى هنا هي استخدام لفظ «جَنَحُوا» المأخوذة من مادة جَنَاح بمعنى الخضوع والرغبة والتحرك نحو الشيء، ومفهومها الترغيب في قبول حتى المحادثات الأولية للصلح.

والتعبير «توكل على الله» قد يكون إشارة إلى أن بعض المسلمين أخذ يروج أن رغبة العدو في الصلح إنما هي خدعة منهم، ولذا خالفوا ذلك، أو على الأقل دبّت فيهم بعض الوسوس.

فالقرآن يخاطب الرسول الكريم ويأمره بعدم الأخذ بآراء هؤلاء ووساوسهم إذا ما رغب العدو في الصلح، وإنما عليه أن يتوكل على الله ويجنح للسلم مع رعاية موازين الإحتياط اللازم.

فهذه الآية من الآيات التي توصي الحكومات الإسلامية باتخاذ الرغبة في الصلح أصلاً أساسياً في سياساتها، وما قاله البعض من أن هذه الآية نسخت بآيات الجهاد^(١) لا أساس له، إذ لا دليل عليه، حيث لا تنافي بين آيات الجهاد وهذه الآية، فلا ضرورة للقول بالنسخ.

* * *

وفي الآية الثالثة إشارة إلى مجموعة من الكفار من أنصار الحرب، حيث تقول:

﴿فَإِنْ اغْتَرَزْتُمْ فَلَمْ يِقَاتِلُوكُمْ وَآلَقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾.

وتعبير ﴿فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ تأكيد كامل على قبول دعوة الصلح التي

تقدم بها العدو، ذلك الصلح العادل الحقيقي لا الصلح الكاذب الدليل.

وذكر في شأن نزول هذه الآية، إنها تحكي عن طائفة «الاشجع» حيث جاء جمع

منهم بزعامة مسعود بن رجيله إلى مقربة من المدينة، فأرسل الرسول ﷺ ممثلين

عنه إليهم للتعرف على نواياهم من هذا السفر، فقالوا:

جئنا للتعاقد مع محمد على ترك المخاصمة (وإن نكون على حياد في نزاعكم

مع الآخرين). فأمر رسول الله ﷺ أن يأخذوا إليهم مقداراً من التمر بعنوان الهدية،

ووقع على عقد ترك التعرض معهم.

ومن البديهي أن مفهوم الآية قانون كلي عام وخالد، وإن كان شأن نزولها مورداً

خاصاً، لإثباتنا أن شأن النزول لا يحدد مفهوم الآيات العام.



وفي الآية الرابعة، حديث عن الحروب المحتملة في داخل الدولة الإسلامية بين

الاجنحة المتخاصمة، أي طوائف من المؤمنين، ففي الآية أمرٌ أكيد على إقرار الصلح

بينها، فإن انسدت كل الطرق إلا قتال الفئة الباغية لتحقيق الصلح والسلام، كان ذلك

واجباً على المؤمنين، يقول تعالى:

﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ ثُمَّ يَضِيفُ ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا

عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾، وفي الختام يعود إلى مسألة

الصلح ويقول: ﴿فَإِنْ فَاثَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

فالمستفاد من صدر الآية هو أن ترك الخصام وإقرار الصلح داخل الدول

الإسلامية أصل أساسي أيضاً، ولذا فإن الشارع جَوَّز القتال بإعتباره آخر الحلول المتصورة لتحقيق هذا الهدف!

ويستفاد من ذيل الآية أنَّ الصِّلح لا بدَّ أن يكون عادلاً ومن موقع القوة، لا أن يكون جائراً ومن موقع الضَّعف والإستسلام، إذ أنَّ مثل هذا الصِّلح الأخير يكون دائماً متزلزلاً وغير ثابت ويُرَبِّي في داخله نطفة الحرب.

والنَّكته المهمَّة هنا هو أنَّه ورد التعبير في الآية بـ«العدل» أحياناً، وأخرى بتعبير «القسط»، وعلى رأي الرَّاغب الأصفهاني فالعدل لفظ يحمل مفهوم المساواة، و«القسط» يعني «النَّصيب العادل» (غاية الأمر، إذا جاء هذا المصطلح بصيغة التثلاثي المجرد فإنه يعني أخذ نصيب الآخرين، وعليه فإنَّها تعطي مفهوم الظَّلم، وتارة تستعمل على وزن أفعال - أقساط - ومفهومها إعطاء نصيب وسهم الآخرين، وحينئذٍ يحمل معنى العدالة).

وطبقاً لهذا البيان، وتعبيرات أخرى للراغب، فإن كلمة «القسط» و«العدل» واحدٌ من حيث المعنى والمفهوم، ولكن يمكن أن يكون بينهما فارق وهو أنَّ مصطلح «القسط» و«الإقساط» يستعمل في الموارد التي يشترك فيها جماعة إذا أُعطي لكل واحد منهم نصيبه الكامل فذلك القسط، وإلا فهو «الجور».

وأما «العدالة» التي يُقابلها «الظَّلم» فإنَّ لها مفهوماً أوسع من ذلك فهي تستعمل في موارد الشَّرْكة وفي غير موارد الشَّرْكة، وعليه، فإنَّ كان مالٌ حقاً مُسَلِّماً لشخص ما، وأُعطي ذلك الحقَّ فتلك هي العدالة وإن أخذ ذلك الحق منه فهو «الظلم»^(١).



والآية الخامسة ناظرة إلى الخلافات الشخصية الخاصة، فتأمر بإقرار الصِّلح بين

١ - وفي الواقع أن النَّسبة بينهما هي نسبة العموم والخصوص المطلق فللقسط مفهوم خاص يستعمل في موارد الشَّرْكة فقط، والعدالة مفهوم أوسع يشمل غير موارد الشَّرْكة.

الرجل والمرأة إذا برزت الخلافات العائلية بينهم، يقول تعالى: ﴿وَإِنَّ إِمْرَأَةً خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا، وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾.

وعلى الرغم من أن مورد الآية هو الصلح في الخلافات العائلية، ولكن مفهوم العبارة واسع جداً يشمل كل صلح وصفاء بين شخصين أو مجموعتين أو شعبين ودولتين. (تأملوا جيداً).

والملفت للنظر هو أن الصلح الوارد في هذه الآيات المتعاقبة ورد في ثلاث صور هي:

الصلح بين المسلمين وأعدائهم الذين يرغبون في الصلح.
والصلح بين المجاميع المتخاصمة من المسلمين أنفسهم.
والصلح بين فردين متنازعين.

إن الصلح العادل الشريف مطلوب بكل أشكاله، وإن الإسلام يدافع عن مثل هذا الصلح، ومسئولية الحكومة الإسلامية هي تقوية أسس الصلح في هذه المراحل الثلاثة أيضاً.



والآية السادسة التي لا تشير إلى مسألة الصلح بشكل مباشر ولكنها تحمل رسالة بيّنة بشكل غير مباشر في هذا المجال، إذ أنها تقول في ذم بعض المنافقين (أن له ظاهراً خادعاً) وعندما يخرج من عندك: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ وَیُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾.

وفي الآية اللاحقة في نفس هذه السورة يُهدد أمثال هؤلاء الأشخاص بالعذاب

الإلهي الأليم ومن الطبيعي، فإن الحروب لا تثمر إلا الفساد في الأرض وهلاك الحرث والنسل والأموال سواء المزارع وحقول تربية الحيوانات وغير ذلك، ولذا فإنها منفورة في نظر الإسلام، ومالم يكن هناك موجب ومسوغ مشروع للحرب، ينبغي الإبتهاء عنها، وبعبارة أخرى الصلح أصل والحرب إستثناء.



النتيجة:

من مجموع ما جاء في الآيات أعلاه، يُستفاد أن أساس الحكومة الإسلامية قائم على الصلح والصفاء والصداقة، وقد إعتبر القرآن الكريم ذلك أصلاً ثابتاً في كل الأحوال سواء في مورد الأعداء، أو في مورد الاصدقاء والأحبة، وحتى في داخل العائلة الواحدة وآحاد الناس، وإذا لم يكن هناك مبرر وموجب لفرض الحرب، فلا يرجح القرآن الحرب أبداً.

ولكن هذا لا يعني أن يفقد المسلمون إستعدادهم العسكري فيرغب الأعداء في الهجوم عليهم، كما أنه لا يعني أن يقبل المسلمون الصلح غير العادل ومن موقع الضعف، إذ أن هذين الأمرين من عوامل الحر لا الصلح العادل الثابت.

وكذلك الروايات الإسلامية فإنها تؤكد على ضرورة السعي والجِدِّ في إقرار السلام والصلح في المجتمعات البشرية، حتى ورد في الحديث:

«أَجْرُ الْمُصْلِحِ بَيْنَ النَّاسِ كَالْمَجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»، أي لا تتصوروا إن كل ذلك الثواب العظيم المذكور «لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» لا يشمل «المُصْلِحِينَ»، بل أن الساعين إلى إقرار السلام حالهم حال المجاهدين المترصدين للعدو في المتاريس،

وورد في حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام قال:

«من كمال السعادة السعي في صلاح الجمهور»^(١).

ويمكن أن يكون لهذا الحديث مفهوم أوسع يشمل كل صلاح اجتماعي، ولكنه بلا شك يدل على الصلح في قبال الحرب.

وجاء في عهده عليه السلام لمالك الأشتر الذي يعتبر أفضل مصدر للأبحاث المرتبطة بالحكومة الإسلامية، حول إقرار الصلح:

«ولا تدفعن صلحاً دعاك إليه عدوك والله فيه رضى فإن في الصلح دعةً لجنودك وراحة من همومك وأمناً لبلادك».

فالإمام عليه السلام يبين هنا فلسفة الصلح في ثلاث ثمرات: الأمن للناس، وفرصة لتجديد القوى عند العسكر، وراحة لفكر رئيس الدولة.

والنكته المهمة هنا هي أن الإمام عليه السلام لا يعتبر كل صلح مفيد بل ذلك الصلح الذي فيه رضى الله تعالى أي ذلك الصلح الذي يكون سبباً في عزّة المسلمين ونشر العدل، ولكنه يحذر مالكا من العدو بعد عقد الصلح ويقول:

«ولكن الحذر كل الحذر من عدوك بعد صلحه فإن العدو ربما قارب ليستغفل فخذ بالحزم وإنهم في ذلك حسن الظن»^(٢).

* * *

١ - غرر الحكم، نقلاً عن ميزان الحكمة، ج ٥، ص ٣٦٣.

٢ - نهج البلاغة، الكتاب - ٥٣.

أَسْرَى الْحَرْبِ

تمهيد:

يؤسر عادةً في أكثر الحروب عددٌ من الأسرى، وذلك لحصول ظروف في أثناء الحرب لم يُعد بإمكان هؤلاء الإستمرار بالقتال أو التراجع إلى الخلف، كأن تنفذ معداتهم أو ينفذ طعامهم أو يحاصروا من قبل القوات الرّقّبية، حتّى يصبح القتال بالنسبة لهم نوعٌ من الإنتحار، ولذا يضطّروا إلى التسليم.

والعقل والمنطق يحكمان بعدم جواز قتل هؤلاء، بل ينقلوا إلى الخطوط الخلفية للجبهات، ويعتقلوا في أماكن محروسة، مضافاً إلى إمكان الإستفادة منهم في تبادل الأسرى، أو الإستفادة منهم في ممارسة الضّغط على العدو والحرب النفسيّة لإجباره على الكفّ عن الإستمرار بالقتال أو كسب إمتيازات معينة حين الصّلح.

والأهم من هذا كله، فإن إراقة الدّماء تحتاج إلى مسوغٍ ومبرر، وفي حالة إستسلام العدو لا يبقى وجه لذلك.

ولذا فإنّ مسألة وقوع الأسرى في الحروب أمرٌ عاديّ وكذلك الحال في الإسلام، ونلاحظ أنّ الإسلام قد شرّع أحكاماً عديدة ومهمّة في الأسرى، ينبغي على الحكومة الإسلاميّة العمل بها وتطبيقها مع أسراها.

وبهذه الإشارة نعود إلى القرآن وندرس أحكام أسرى الحرب من وجهة نظره:

١ - ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبُ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَمَا

مَتَّابِعُدُ وَإِمَّا فِدَاءٌ﴾ (١)

٢ - ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(١)

٣ - ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنَّ يَتْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُوْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٢)

* * *

تفسير وإستنتاج:

تخاطب الآية الأولى المسلمين وتذكّرهم بإستعمال الشدة والقاطعية في الحرب، فتقول أولاً: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبُ الرِّقَابِ﴾.

وواضح أنّ كلمة «لَقِيتُم» هنا مأخوذة من «اللقاء» بمعنى الحرب لا كل لقاء، وخير دليل على ذلك هو ذيل الآية حيث تتحدث عن أسرى الحرب.

وبعد التأمل فيما مرّ من أنّ الحرب في الإسلام كانت دائماً دفاعية ومفروضة على المسلمين، تتضح منطقية الأمر أعلاه وذلك لأن المسلمين إذا لم يظهروا الشدة والقاطعية قبال هجوم الأعداء، فإن الفشل سيكون حليفهم لا محالة، فكل إنسان يواجه عدواً سفاكاً للدماء، إذا لم يوجه الضربات المهلكة للعدو، فإنه سيُدمر نفسه. ثم تضيف الآية: ﴿حَتَّى إِذَا اتَّخَضْتُمُوهُمْ فَشَدُّوا الرِّبَاطَ﴾.

وأكثر المفسرين قالوا بأن هذه الجملة تعني التشديد على العدو والإكثار من قتلهم، ولكن وبعد الإلتفات إلى أنّ هذه الجملة مأخوذة من مادة «ثخن» بمعنى

«الغلظة» والصَّلابَة فإنَّه يمكن حينئذٍ تفسيرها بالتَّصرُّ والغلبة التَّامة على العدو والسيطرة الكاملة عليه، أي ينبغي أن يستمروا بالقتال بقوة وإقتدار حتَّى يَغلبوا العدو (وعليه فليس الهدف هو إراقة الدِّماء وإنَّما الهدف هو الغلبة على العدو).

وعلى أي حال، فإنَّ الآية أعلاه ناظرة إلى أمرٍ عسكري مهم وهو وجوب متابعة الحرب وعدم إيقافها ما لم يتمَّ التَّغلب على العدو وكسره وأخذ الأسرى، لأنَّ إيقاف الحرب يكون سبباً في زعزعة موقع المسلمين في الحرب، وأنَّ الإنشغال بنقل الأسرى إلى الخطوط الخلفية يشغل المقاتلين عن أهدافهم الأساسية.

وتعبير «شَدُّوا الوَثاق» إشارة إلى ضرورة إحكام قيد الأسرى والتدقيق في حبسهم، كي لا يهربوا من الأسر، فينقلبوا على مقاتلي المسلمين. ثمَّ تبين الآية حكم الأسرى وتقول: ﴿فَأَمَّا مَنْ بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾.

فهنا تخيَّر المسلمين بين أمرين، إطلاق الأسرى بلا مقابل، أو مقابل الفدية (ويراد بالفدية «الغرامة» التي يتحملها العدو في أزاء إطلاق سراح أسراه، وهي في الواقع جزءٌ من الخسائر التي تسبب بها في عدوانه).

والنَّكته المهمة هنا هي أنَّ فقهاء الإسلام وتبعاً للروايات، ذكروا طريقاً ثالثاً في المسألة وهي إسترقاق الأسرى، ولكن لم ترد إشارة إلى ذلك في الآية الشريفة على الرِّغم من مسألة إسترقاق الأسرى كانت أمراً عادياً في ذلك الزَّمان، وقد يكون ذلك بإعتبار أن «الإسترقاق» - وكما ذكرنا ذلك مفصلاً في محله - كان حكماً مقطوعاً متناسباً مع شرائط خاصة، وكان نظر الإسلام هو أن يتمَّ تحرير هؤلاء العبيد تدريجياً حتَّى لا يبقى شيءٌ بإسم الإسترقاق، ولهذا فإنَّ الآية إشارة فقط إلى الطريقتين الأولىين أي الإطلاق بلا مقابل أو في مقابل الفدية (وتبادل الأسرى بين الطرفين نوعٌ من أخذ الغرامة في مقابل إطلاق سراح الأسرى).

كما أنهم ذكروا طريقاً رابعاً في الكتب الفقهية للأسرى (وهو قتل الأسرى) ولم تذكره الآية أيضاً، وذلك لأن قتل الأسير ليس حكماً أساسياً في الأسرى، بل هو إستثناء يتم إجراؤه في خصوص الأسرى الخطرين ومجرمي الحرب لا في كل أسير^(١).

ومما ذكرنا يتضح أنّ حكم الآية ليس منسوخاً، ولا دليل على نسخه، وعدم ذكر بعض أحكام الأسرى فيها، له دليل وجيه.



وفي الآية الثانية إشارة إلى كيفية أسر الأسرى، تقول: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾.

وتعبير ﴿يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ وكما أشرنا سابقاً لا يعني المبالغة في إراقة الدماء والإكثار من القتل، بل ومن خلال جملة ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ يتضح أنّ المراد هو تحكيم المواقع على أرض المعركة والتفوق على العدو، والسّيطرة على المنطقة، وحتى لو فرضنا بأن معناها هو إراقة الدماء فإنّما هو من أجل كسر شوكة العدو والغلبة عليه.

وفي الواقع فإن هذا التعبير شبيه جداً بما جاء في ذيل الآية حيث يقول: ﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ وهذا خير شاهد على تفسيرنا.

والنّكته المهمّة هنا هي أنّ هذا تحذير المسلمين من أخذ الأسرى قبل تحقيق الأهداف المرسومة، بسبب أن بعض المسلمين الذين أسلموا حديثاً، كان هدفهم

١ - وللфخر الرازي في تفسير هذه الآية وعدم ذكر القتل والإسترقاق، رأي يشابه ما ذكرناه أعلاه (تفسير الفخر الرازي - ج ٢٨ - ص ٤٤).

الأساسي هو أخذ الأسرى، ليحصلوا على مبلغ أكبر من المال عند الفداء، وكان ذلك يؤدي إلى تماهل هؤلاء في أداء مسؤولياتهم الخطيرة في الحرب وعدم أكثراتهم بالأخطار المحتملة ضد المسلمين، وإنشغالهم بالأمر الثانوي، فيتعرض جند الإسلام إلى ضربة مهلكة، كما حدث ذلك في معركة أحد وإنشغال بعض المسلمين في جمع الغنائم.

ولذا يقول تعالى في ذيل الآية: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

ثم أن المستفاد من الآية هو أن أخذ الأسرى لم يكن في عصر نبي الإسلام ﷺ فقط، بل كان ذلك أمراً جارياً في عصور الأنبياء السابقين أيضاً، غاية الأمر أن هذه الآية تؤكد على أن أخذ الأسرى ينبغي أن لا يكون لأجل الربح المادي، فكم من مورد تقتضي فيه مصلحة المسلمين أن يطلق المسلمون سراح أسرى العدو بدون أخذ الفدية منهم.

والملفت للنظر هنا هو أن القرآن الكريم يُحذّر في الآية اللاحقة أولئك الذين يضحّون بالمصلحة العامة وأهداف الحرب المهمة من أجل مصالحهم الشخصية المادية، فيعرضون مصلحة المجتمع للخطر، تقول الآية: ﴿لَوْ لَا كِتَابٌ مِنْ اللَّهِ سَبَقَ﴾ (وهو أنه لا يعذب أمة بلا حجة) ﴿لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَخَذْتُمْ﴾ (الأسرى الذين أخذتموهم لأغراض دنيوية) ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

ومن مجموع هذه العبارات، يستفاد بوضوح أن أخذ الأسرى لابد أن يتم أولاً بعد السيطرة الكاملة على العدو (ولو في موقع معين من الجبهة)، وثانياً إن أخذ الأسرى يجب أن لا يكون لأغراض مادية أي لأخذ الفدية مقابل إطلاق سراحهم فيما بعد، إذ في كثير من الأحيان تستوجب المصالح الإنسانية ومصلحة المسلمين أن يتم إطلاق

سراح هؤلاء الأسرى بلا مقابل، وفي مثل هذه الظروف يصعب على المسلمين الذين أسروا هؤلاء الأسرى لأغراض مادية إطلاق سراحهم والإمتثال للحكم الإلهي.

* * *

وفي الآية الثالثة، نجد بعض التعزية للأسرى بما يدلُّ على إحترام الإسلام لهم ولأحاسيسهم، تقول الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَشْرَىٰ إِنَّ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وكلمة «خيراً» في الجملة الأولى إشارة إلى الإيمان والإسلام وإتباع الحق، والمرد من «خيراً» في الجملة الثانية هو الثواب الإلهي المادي والمعنوي الذي يحصل عليه هؤلاء في ظل الإيمان بالله، وهذا أفضل بكثير من المبالغ التي دفعوها بعنوان الفدية أو التي خسروها في ساحة الحرب.

وجملة ﴿إِنَّ يَعْلَمَ اللَّهُ﴾ وكما ذكرنا ذلك مراراً بمعنى التحقق - المعلوم - إذ أن علم الله شمل كل شيء من الأزل، ولا يحدث شيء في علمه أو يزيد أو ينقص، إلا المعلومات التي تتحقق على أثر مرور الزمن مثل وجود نية أو اعتقاد في قلب الأسير. ومضافاً إلى هذا الثواب، فإن لطفاً الهياً آخر يشملهم وهو غفران ذنوبهم، والذي يُشغل بالهم لا محالة بعد إيمانهم ويُعذب روحهم، فالمغفرة الإلهية تسكين لهم. كان هذا تفسيراً مضغوطاً للآيات القرآنية الواردة في الأسرى، وإستنتاجاتها.

* * *

الأسرى في الروايات:

وردت روايات عديدة عن أئمة الإسلام في التعامل العطوف مع أسرى الحرب، ورعاية الأخلاق الإنسانية معهم، وهذه الروايات تبين عظمة التعاليم الإسلامية في هذا المجال.

١ - ورد في حديث عن أمير المؤمنين علي عليه السلام بعدما ضربه ابن ملجم (لعنه الله) ثم قبض عليه، قال الإمام عليه السلام لولده الحسن عليه السلام: «إحبسوا هذا الأسير، وإطعموه واشفقوه وأحسنوا إيسارته»^(١).

٢ - وفي حديث آخر عنه عليه السلام قال: «إطعام الأسير والإحسان إليه حق واجب وإن قتلته من الغدا» (أي وإن كان محكوماً بالإعدام غداً كما بن ملجم)^(٢).

وهذا الحكم شامل لجميع الأسرى ويعمّ المسلم والكافر، ولذا نجد في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام ما يدلّ صراحة على هذا الحكم، يقول عليه السلام: «إطعام الأسير حق على من أسرته وإن كان يراد من الغد قتله فإنه ينبغي إن يطعم ويُسقى ويُرفق به كافرأ كان أو غيره»^(٣).

وهناك روايات أخرى في قصة أسير ابن ملجم قاتل الإمام علي عليه السلام تحكي جميعاً عن غاية لطف الإمام علي عليه السلام للأسرى (سواء كانوا أسرى حرب أو غير حرب). ومن جملة ذلك ما ورد عن الإمام علي عليه السلام عندما كان راقداً في فراش الشهادة بوصي ولده الحسن عليه السلام بمداواة أسيره والترحم عليه والإحسان إليه، ثم يغمى على الإمام عليه السلام، وعندما يفيق يأتيه ولده الحسن بقدر من لبن فيشرب الإمام عليه السلام منه

١ - مستدرک الوسائل، ج ٢، ص ٢٥٧.

٢ - وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٦٩.

٣ - نفس المصدر، ص ٦٨.

قليلاً ثم ينحبه عن فيه ويأمرهم أن يسقوا ابن ملجم، ويضيف قائلاً: «وَحَقِّي عَلَيْكَ يَا بُنَيَّ إِلَّا مَا طَيَّبْتُمْ مَطْعَمَهُ وَمَشْرَبَهُ وَارْزُقُوا بِهِ إِلَى حِينٍ مَوْتِي وَتَطْعُمُهُ مِمَّا تَأْكُلُ وَتَسْقِيهِ مِمَّا تَشْرَبُ»^(١).

وهنا نكتة مهمة أخرى وهي أن إطلاق سراح الأسرى مقابل فدية لابد أن يتناسب مع مكنتهم، كما راعى ذلك النبي الأكرم ﷺ مع أسرى بدر، بل ويجوز إطلاق سراحهم في قبال عملٍ ثقافي يقدمونه كما ذكر المؤرخون، واعتبروا ذلك خطوة تاريخية مهمة بعد معركة بدر الكبرى من قبل رسول الله ﷺ وهي إطلاق سراح كل أسير من المشركين في قبال تعليم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة^(٢) في حين دفع البعض الآخر من الأسرى أربعة آلاف درهم فدية لحريته، أما الفقراء والمعدمين فقد أطلق سراحهم بلا مقابل.



١ - مستدرك الوسائل، ج ٣، ص ٢٥٨، الحديث ٤، الطبعة القديقة.

٢ - سيرة الحلبي، ج ٢، ص ١٩٣.

علاقة

المسلمين بغير المسلمين

الاقليات الدينيّة والحكومة الإسلاميّة

تمهيد:

من المسائل التي تثار ضدّ الحكومة الإسلامية ويُمَرَّر لها هي مسألة كيفية تعامل الحكومة الإسلامية مع الأقليات الدينية غير المسلمة. ولكن ليس هذا من أجل تعقيد في المسألة، بل من أجل أمرين هما:

الأول: عدم إطلاع الكثير من الناس على قوانين وتعاليم الإسلام في هذه القضية، والابتلاء بمخالب التعصبات الجافة.

الثاني: هو الإعلام العدواني المضلل وسعي الأعداء لابتعاد إبتاعهم عن الشريعة الإسلامية، لأنهم يعلمون جيداً أنّ جاذبية التعاليم الإسلامية قويّة إلى درجة أنها تؤثر على إبتاع الأديان الأخرى بمجرد تفهمها، ولذا يقول هؤلاء لإبتاعهم: أنّ الإسلام يتعامل بخشونة مع أتباع الأديان الأخرى، فإبتعدوا عن المسلمين!!

في حين أنّ الإسلام يتعامل تعاملأ أخوياً مع إبتاع المذاهب الأخرى، ويدعوهم دائماً للعيش بسلام جنبأ إلى جنب، وتفصيل الكلام في ذلك سيتضح في الأبحاث القادمة.

وبهذه الإشارة، نرجع إلى القرآن الكريم وننعمق في دراسة الآيات القرآنية ثمّ الروايات الواردة في هذا المجال:

١ - ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ - إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ

الظَّالِمُونَ ﴿١﴾

- ٢ - ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (٢)
- ٣ - ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَيْكُمْ وَإِلَيْنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (٣)
- ٤ - ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (٤)

- ٥ - ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَن مِنْهُمْ قَسِيصِينَ وَرُهْبَاناً وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٥)



تفسير وإستنتاج:

الآية الأولى التي وردت بعد آيات تحذر المسلمين من عقد الصداقة مع أعداء الله، وتذكرهم ببغض هؤلاء للنبي ﷺ والمسلمين، وإيذائهم باليد واللسان

١ - المتحنة - ٨ و ٩

٢ - التوبة - ٢٩

٣ - العنكبوت - ٤٦

٤ - آل عمران - ٦٤

٥ - المائدة - ٨٢

للمسلمين الأبرياء، تقول: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

ثمّ تضيف للتأكيد الأقوى في مورد الذين يحاربون المسلمين وتقول: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

وبالنظر في شأن نزول هاتين الآيتين والآيات السابقة لهما في سورة «الممتحنة»، وبملاحظة القرآئن الموجودة في نفس الآيات، يتضح تماماً بأن الآيات ناظرة إلى المشركين وعبداء الأوثان، فهي تقسمهم إلى مجموعتين: مجموعة قاتلت المؤمنين وأذنتهم ولم تنثني عن كل مخالفة وممارسة عدائية ضدهم، ومجموعة ثانية كانت مستعدة للعيش معهم بسلام.

ففي هذه الآيات نجد منع الإرتباط والتعامل مع المجموعة الأولى مع المجموعة الثانية، وعدت الذين يرتبطون بالمجموعة الأولى من الظالمين، أما المتعاملين مع المجموعة الثانية فاعتبرتهم الآية الشريفة من أنصار العدالة.

وإذا كان الحكم الإلهي في مورد المشركين وعبداء الأوثان على هذا النحو، فهو في مورد الكفار من أهل الكتاب أولى.

واعتبر بعض المفسرين أنّ الأمر الوارد في هذه الآية قد يُنسخ، وأنّ ناسخة هو الآية (٥) من سورة التوبة وهي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾.

ولكن وبقرينة أن هذه الآية بشهادة سائر آيات سورة التوبة، نازلة في شأن المشركين الذين ينقضون العهد، والذين أعلنوا العداء للمسلمين، يتضح لنا تماماً بأن الآية لم تُنسخ، بل أنّ آيات سورة التوبة مرتبطة بالمجموعة الأولى.

وروى بعض المفسرين في مورد هذه الآية أنّ زوجة أبي بكر المطلقة قد جاءت لابنتها «أسماء» ببعض الهدايا من مكة، ولما كانت لا تزال مشركة، أمتنعت أسماء من قبول تلك الهدايا منها، حتى أنها لم تسمح لأُمّها بالدخول عليها، فنزلت الآية أعلاه، وأمرها الرسول الأكرم ﷺ أن تستقبل أُمّها وتقبل هديتها وأن تحترمها^(١).

وعلى أي حال، يستفاد من هذه الآيات، أصل عام كلي في كيفية تعامل المسلمين مع غير المسلمين، بلا تحديد ذلك بزمانٍ أو مكانٍ خاص، وهذا الأصل هو أنّ المسلمين مكلفين بسلوك طريق السلم مع كلّ فرد أو مجموعة أو مجتمع أو دولة لا تتخذ موقفاً معادياً لهم، أو تحارب الإسلام والمسلمين وتنصر أعداءهم، سواءً كان هؤلاء مشركين أو كانوا من أهل الكتاب.

وحتى لو كانت مجموعة أو دولة تقف في صف أعداء الإسلام ثمّ تراجعت عن ذلك وغيّرت سياستها، فإن على المسلمين أن يقبلوهم وأن لا يعادوهم، فالمعيار هو الموقف الراهن لأولئك تجاه الإسلام والمسلمين.



قصة «الجزية»:

والآية الثانية وهي من سورة التوبة أيضاً، وبعد بيان الأحكام الخاصة بالنسبة للمشرّكين وعبداء الأوثان، تتعرض لبيان موقف المسلمين من كفار أهل الكتاب (اليهود والنصارى) وتقول:

١ - روح البيان - ج ٩، ص ٤٨١ - كما نقلت هذه الرواية في كثير من كتب التفسير، وفي صحيح البخاري بتفاوت.

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾
ولا شك في أن لهجة الآية في خصوص أهل الكتاب «شديدة» وذلك لأن أهل الكتاب وخاصة «اليهود» كانت لهم مواقف سلبية جداً تجاه الإسلام والمسلمين، فقد وافقوا الأعداء في حرب الأحزاب وبعض الحروب الأخرى، مضافاً إلى أنهم وقفوا في وجه الإسلام في بعض الحروب كحرب «خيبر» وتأمرؤا على قتل رسول الله ﷺ، وكانوا يتجسسون على المسلمين لصالح الأعداء.

وبملاحظة أن الآية أعلاه من آيات سورة التوبة، ونعرف أن سورة التوبة نزلت في السنة التاسعة للهجرة، حيث كان المسلمون قد غزوا غزوات عديدة، وكان من الضروري أن يحددوا موقفهم من كل القوى المخالفة لهم.

ففي البدء تحذر المشركين وتطلب منهم تحديد موقفهم، فتعلن الحرب ضد أولئك الذين نقضوا عهدهم إلا إذا أذعنوا للحق، وأما أولئك الذين وفوا بعهدهم فتطلب منهم الإستمرار بالوفاء حتى النهاية (وهذا المعنى ذكر في الآيات الأولى من السورة).

ثم تعلن الحرب على أهل الكتاب الذين لا زالوا ينسقون مع المشركين ضد المسلمين، فتصفهم بثلاثة أوصاف، الأولى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، فصحيح أن اليهود والنصارى كانوا في الظاهر يقبلون المبدأ والمعاد، ولكنهم من جهة أخرى كانوا قد دنسوا هذا الإعتقاد بالخرافات، فأداروا ظهورهم للتوحيد الصحيح وتمسكوا بالتثليث والشرك، وقالوا بإنحصار المعاد غالباً في المعاد الروحاني، والأهم من ذلك هو أن إيمانهم بالمبدأ والمعاد لم ينعكس على أعمالهم وأفعالهم، وإنغماسهم في الخرافات والضلال كان إلى درجة يمكن القول معها أنهم ليسوا

بمؤمنين بالمبدأ والمعاد.

والصفة الثانية هي: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾.

وتاريخ هؤلاء يشهد بأنهم لم يلتزموا عملياً بإجتناّب المحرمات وكانوا يرتكبون الذنوب المحرمة في كلّ الشرائع السماوية، فكان الدين عندهم مجرد طقوس حاوية صوريّة (كما أن الدين عندهم اليوم عبارة عن مسألة شخصيّة يتلخص في الدّعاء الأسبوعي وذكر بعض الأمور الأخلاقيّة التي ليس لها أي أثر على حياتهم عملياً، مثالهم الصهيونيّة التي تتورع عن القيام بأي جريمة نكراء من أجل تحقيق أغراضها).

والصفة الثالثة هي: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾.

لأنّهم غيّروا مفهوم الدّين كلياً وعزلوه عن هموم البشريّة وخلطوه بالخرافات. وهذه الأوصاف الثلاثة، تعتبر متلازمة في الواقع، وهي التي كانت تدعوهم مجتمعة لمواجهة الإسلام ومخالفته.

ولكن مع كلّ ذلك فإنّ الآية تفتح باباً للصّالح أمامهم وتقول: ﴿حَتَّى يُغْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.

يقول الرّاعب في مفرداته: «الجزية» ما يؤخذ من أهل الذّمة (وهم غير المسلمين الذين يتعاهدون معهم للعيش جنباً إلى جنب داخل الدّول الإسلاميّة)، وتسميته بذلك لأنّه بمنزلة الجزاء والأجر الذي يدفعونه لحفظ أنفسهم (وأموالهم).

وجاء في كتاب التّحقيق، أنّ الجزية نوع من الجزاء والأجرة، وهو نفس ما يؤخذ من غير المسلمين.

وعلى كلّ حال، فإنّ أصل «الجزية» هو «الجزاء»، لأنّ ما يدفعونه من مال لا يكون مجاناً وبلا عوض، بل عوضه هو أن الحكومة الإسلاميّة تكون مسؤولة عن الدّفاع عن أموالهم وأنفسهم وأغراضهم وتوفير الأمن اللازم لهم.

وقد إحتمل البعض أن «الجزية» مأخوذة من «الجزء» لأن الجزية عادة مبلغ قليل من المال يدفعه كل فرد منهم سنوياً.

والتعبير «عن يد» إشارة إلى أن «المعاهد» لابد أن يدفع «الجزية» بيده شخصياً، ولا يحق له توكيل شخص آخر للقيام بذلك، ولكن البعض يعتقد أن هذا التعبير إشارة إلى أن الجزية لابد أن تكون نقداً، وعليه فيحق للذمي أن يوكل عنه شخصاً آخر لدفع الجزية ولكن يجب أن تكون نقداً لا نسيئة، أو أن المراد من ذلك هو أن «الجزية» تؤخذ من الأغنياء فقط، وأما الفقراء فيعفون عن أداء الضرائب الإسلامية. وأياً كان المعنى من هذه الثلاثة فلا يؤثر على أصل المسألة مع أن يمكن جمعها جميعاً.

وأما تعبير «صاغِرُونَ» والذي ذكرت له معانٍ وتفسير غير مناسبة، فهو في الأصل مأخوذ من مادة «صَغَر» بمعنى الإستهغار والخضوع، فيكون المراد هنا هو خضوع هؤلاء وإحترامهم للإسلام والمسلمين ولمقررات الحكومة الإسلامية، وبعبارة أخرى علامة على العيش بسلام وقبول أنهم أقلية مسالمة ومحترمة في قبال الأكثرية.

وما ذكره بعض المفسرين من أنه بمعنى «التحقير والإهانة والسخرية بأهل الكتاب» لا يمكن إستفادته لا من المفهوم اللغوي للكلمة ولا من روح التعاليم الإسلامية، ولا من أحكام التعامل مع الأقليات الدينية الواصلة إلينا، وفي الواقع فإن هؤلاء المفسرين يفرضون طرز تفكيرهم الخاص وذهنيتهم على الآية.

ومن هنا تتضح لنا حقيقة تلك (الزوبعة) التي يثيرها البعض حول هذه الجملة من هذه الآية، ومن أنها مخالفة لكرامة الإنسانية ونهج العيش المشترك المسالم، فهي ضجة وزوبعة لا أساس لها من الواقع.

والنكتة المهمة هنا هي أنّ «الجزية» عادة مبلغ قليل من المال كان أهل الكتاب يدفعونه في قبال تعهد الحكومة الإسلامية على حفظ أموالهم وأنفسهم ونواميسهم، وطبقاً لما ورد في بعض الروايات فإنّ مقدار الجزية كان ديناراً واحداً في السنة!! حتى أنّ بعض أهل الكتاب الذين كانوا يعجزون عن دفعه كانوا يعفون من الجزية (وقد أشرنا سابقاً إلى أنّ البعض يرى بأن جملة «عن يد» إشارة إلى ذلك).

* * *

إختيار الأسلوب الأفضل في النقاش:

والآية الثالثة تتناول كيفية مجادلة المسلمين لأهل الكتاب، فهي توصيهم بانتخاب أفضل أسلوب للنقاش والبحث وتقول: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

وهذا مفهوم عام وجامع وأساسي.

و «الجدال» في اللغة هو إبرام الحبل وإحكامه، فإذا تباحث إثنان في أمرٍ وأراد كل منهما حرف صاحبه عن رأيه يقال «جادله» والمراد منه هنا النقاش والبحث المنطقي.

أمّا فيما يرتبط بالمراد من جملة ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، فإن بعض المفسرين قالوا أنّ المراد منها هو التعامل معهم بلين ولطف ومحبة، ففي قبال الخشونة اللين، وفي قبال الغضب الصبر، وفي قبال الشرّ حب الخير، وفي قبال التسرع التأني.

وعلى أي حال، فإنه تعبير جامع جداً يشمل كلّ الأساليب الصحيحة والمناسبة للبحث والنقاش، سواء كان ذلك بالألفاظ أو في محتوى الكلام، أو في لحن القول أو

في الحركات والسلوك العملي، وعليه يكون مفهوم الجملة هو أن الحديث معهم لابد أن يكون مؤدباً، وأن لحن القول لابد أن يكون حبيباً وأن محتوى الكلام لابد أن يكون منطقياً وبرهانياً، فينبغي أن يكون الصوت خالياً عن الصراخ والغوغاء والضجيج، وأن تكون حركات اليد والعين والحاجبين المكملّة للبيان على هذا المنوال.

وكل ذلك من أجل أن الهدف من النقاش والمجادلة ليس حب السيطرة والإستعلاء، وإنما هو إقناع الطرف المقابل ونفوذ الحق إلى أعماق روحه، وأن يتخذ الموقف الصحيح في قبال الإسلام، فهؤلاء المعاهدون لابد أن يعرفوا أن روح الإسلام روح السلام والصفاء، والآية توصي المسلمين بأن يتعاملوا مع غير المسلمين معاملة سلمية.

وبطبيعة الحال، فإن هذه الأمور يجب أن لا تكون بنحو يتصور المقابل أن المسلمين ضعفاء عاجزين فيسيء إستغلال عطفهم ولينهم ثم تستثني الآية مجموعة من هؤلاء وتقول: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ وهي إشارة إلى الذين رفضوا العيش بسلام إلى جنب المسلمين، وأساءوا إستغلال محبة المسلمين لهم ومداراتهم ولينهم، الذين عادوا الحق وعاندوه مع أنهم كانوا قد قرأوا علامات نبي الإسلام ﷺ في كتبهم، وكانوا يحاولون إخفائها وكتمانها، والذين كانت ميولهم ميول عدوانية لا سلمية ولا مقترنة بالإحترام والمحبة، فمثل هؤلاء الأشخاص لا شك في ضرورة إستثنائهم من تلك الأحكام الرؤوفة.

وجاء في تنمة الآية عدة جمل لطيفة أخرى في هذا المجال يقول تعالى: ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾. وهذا في الحقيقة نموذج واضح ورائع للمجادلة بالتّي هي أحسن، أي أن القرآن

الكريم لم يكتفِ بذكر الكليات في هذا المجال، بل عرض مصاديق واضحة في الأثناء.

وهذه العبارة تدل بوضوح على ضرورة الإعتدال على النقاط المشتركة لتحكيم أسس العيش السليم المشترك، وهي الإيمان بالله الواحد والإيمان بكل الكتب السماوية وأمثال ذلك.

ولكن التأكيد والإصرار على الجهات المشتركة لا يعني قبول المسلمين لبدع هؤلاء وإنحرافاتهم وتراجعهم عن معتقداتهم، وقد تكون جملة ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ إشارة لطيفة لهذا المعنى.

ونقرأ في حديث مفصل عن الإمام الصادق عليه السلام الذي يرشدنا فيه إلى نموذج «للمجادلة بالتي هي أحسن» ويأمرنا بالتأمل في آخر سورة «ليس»، وملاحظة كيفية مجادلة منكري المعاد بطرق مختلفة وبمنطق حلو وبرهاني قوي في نفس الوقت^(١). هذا وقد جاء مضمون الآية بشكل آخر في سورة النحل، حيث يقول: ﴿أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(٢).

والملفت للنظر هو أن هذه الآية هي أول الإرشادات الأخلاقية العشرة التي وردت في تلك السورة في مورد التعامل الصحيح مع المخالفين. وفي الواقع فإن الجملة الأولى أي: ﴿أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ﴾ ناظرة إلى الإستدلالات العقلية في قبال أرباب الإستدلال والفكر.

وعبارة ﴿وَالْمَوْعِظَةُ الْحَسَنَةُ﴾ إشارة إلى الأسلوب العاطفي في المجادلة مع غير أرباب الإستدلال العقلي، أي أولئك الذين يدورون مدار المسائل العاطفية،

١ - إقتباس من تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ١٦٣ (ذيل الآية مورد البحث).

٢ - النحل - ١٢٥

وخصوصاً وأنَّ وصف «الموعظة» بالحسنة، إشارة إلى ضرورة خلوها من الخشونة والإستعلاء وتحقير الطرف المقابل وآثارة إحاسيسه وأمثال ذلك، ولا شك في أنَّ مثل هذه الموعظة تكون مؤثرة.

و ﴿المجادلة بالتي هي أحسن﴾ إنّما هي مع أولئك الذين مُلِّت إذهانهم بالشبهات والشكوك، فينبغي مجادلتهم عن طريق المناظرات الصّحيحة وإخلاء أذهانهم من تلك الشبهات تمهيداً لقبول الحق.



الدّعوة إلى أصلٍ أساسي مشترك:

والآية الرابعة تخاطب أهل الكتاب وتدعوهم إلى أصل أساسي مشترك وهو التّوحيد وفروعه، يقول عزّوجلّ:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

والدعوة إلى القدر المشترك خير طريق للعيش بين مذهبين مختلفين، إذ لا يمكن عادة أن نطلب من طرف واحد أن يتخلى عن معتقداته ويتبع الطرف الآخر، وحتى لو كان ذلك مقبولاً ومنطقياً فإنّه غير ممكن عملياً، فالأفضل أن نترك أتباع الأديان الأخرى على معتقداتهم إذا رفضوا قبول الإسلام بعد بيان الأدلة على حقانيته، وأنّ نعمل ضمن القدر المشترك بيننا وبينهم، وخير مشترك بين كلّ الأديان السماوية هو أصل «التوحيد» في الذات والصفات.

وحتى أنصار التّثليث (وينبغي التّنبية هنا على أنّ الإعتقاد بثالث ثلاثة لم يكن موجوداً في عصر المسيح والقرن الأوّل بعده، كما صرح بهذا المعنى علماء

المسيحية) فإنهم يفسرون التثليث بشكل يتلائم مع التوحيد، ويسمونه «الوحدة في التثليث»، وعلى الرغم من أن ذلك تناقض واضح، ولكنه في نفس الوقت دليل على أن هؤلاء يرغبون في بقائهم أوفياء لأصل التوحيد.

وهذه الدعوة إلى الحياة السلمية المشتركة والإتقاء على المعتقدات المشتركة يعتبر في الحقيقة مصداقاً واضحاً «للمجادلة بالتي هي أحسن» الذي ورد في الآية السابقة، ويدل بوضوح على أن الإسلام لا يرغب أبداً في إجبار أتباع الأديان الأخرى بالقوة على إعتناق الشريعة الإسلامية.

والظريف هنا، هو أن النبي ﷺ بعد صلح الحديبية في السنة السابعة للهجرة وعندما أرسل كتباً إلى زعماء وملوك الدول العظمى في ذلك الوقت مثل «المقوقس» ملك مصر و «هرقل» ملك الروم، و «كسرى» ملك إيران، دعاهم فيها إلى الإسلام، ذكر هذه الآية المباركة في ذيل تلك الكتب ودعاهم على الأقل إلى الأصل المشترك بين كل الأديان السماوية، أي أصل «التوحيد»، ثم العيش بسلام جنباً إلى جنب. وهذا بنفسه خير دليل على روح السلام والصلح في الإسلام والرغبة في العيش السليم مع أتباع سائر الأديان السماوية، والذي لها جذور منذ عصر النبي ﷺ.



وفي خامس وآخر آية من الآيات التي ذكرناها في صدر البحث، إشارة إلى اختلاف مواقف أتباع الأديان الأخرى تجاه المسلمين، فتحدث الآية عن كلٍ من هؤلاء بحسب حاله، يقول تعالى:

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾.

ثُمَّ تَبَيَّنَ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ دَلِيلُ مَحَبَّةِ الْمَجْمُوعَةِ الثَّانِيَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ وَتَقُولُ:
﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قَنِيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

وهذا التعبير يدلّ بوضوح على أنّ الإسلام مضافاً إلى أنه يرفض مواجهة من لا يكنّ للإسلام العداً والبغضاء، فإنه يعتبر هؤلاء من أقرب الأصدقاء إلى الإسلام، ويثني على زعماء هؤلاء ويعتبرهم من أهل العلم والمعرفة وترك الدنيا والإستكبار وبهذا يستقبل هؤلاء بصدر رحب ويفتح لهم ذراعي المحبة والصداقة ويكنّ لهم إحتراماً خاصاً.

وإذا كان موقف الإسلام تجاه اليهود والنصارى متفاوتاً، فإن ذلك ليس لعداوة خاصة يكتنّها لليهود، بل من أجل مواقفهم العدائية ضدّ المسلمين وإتفاقهم مع المشركين العرب السفاكين، على العكس من النصارى، ولذا جمع في الذكر بين اليهود والمشركين في هذه الآية، وأمّا المسيحيين فكانوا على صلة حسنة بالمسلمين.

والملفت للنظر هنا هو أنّ المسيحيين كانوا أبعد من اليهود عن المسلمين لإعتقادهم بالتثليث بينما كان اليهود يقولون بالتوحيد صراحة، ولكن لما كان اليهود عملياً يظلمون العداً ويحيكون المؤامرات ضدّ المسلمين بخلاف المسيحيين فإن الإسلام يهتم بالعيش بسلام مع النصارى أكثر من اليهود.

وللأسف، فإن وضع اليهود اليوم هو استمرار لميولهم العدوانية السالفة، حيث نجد أنّ اليهود واليوم قد جندوا كلّ قدراتهم ضدّ الإسلام والمسلمين، في حين أنّ بين المسيحيين أفراد أو دول تربطهم روابط حسنة مع المسلمين.

ومن مجموع ما ذكر، يتضح تماماً أنّ سعة صدر الإسلام وعظمته تميل إلى الرغبة في العيش بسلام مع الأديان السماوية الأخرى بشرط أن يدخل هؤلاء من باب الصلح والصفاء والصداقة والإحترام المتقابل - ويأمر المسلمين بالتعامل الحسن

معهم، وأن يجادلوهم بالموعظة الحسنة وإتباع المنطق والأدب والإنصاف، وبهذا الطريق يرشدونهم إلى تعاليم شريعة الإسلام، لا عن طريق ممارسة الخشونة والشدة والتصرفات المرفوضة إسلامياً.



العيش المشترك مع إتباع الأديان الأخرى في الروايات:

نلاحظ في الروايات الإسلامية إرشادات كثيرة فيما يرتبط بكيفية التأمل مع إتباع الأديان الأخرى:

١ - جاء في عهد أمير المؤمنين المعروف لمالك الأشتر:

«وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللفظ بهم ولا تكونن عليهم سبعا ضارياً تغتنم أكلهم، فأنهم صنفان، أما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق»^(١). ونحن لم نعهد تعبيراً أوضح وأبلغ من هذا التعبير حول العيش بمحبة وسلام مع غير المسلمين، وبملاحظة أن الإمام علي عليه السلام يبين في هذا العهد أن إبداء المحبة والمداواة والرحمة واللفظ تجاه غير المسلمين هو من وظائف رئيس الحكومة الإسلامية، يتضح لنا جلياً تكليف سائر أفراد المجتمع الإسلامي تجاه بعضهم البعض.

٢ - وفي حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أن علياً عليه السلام صاحب رجلاً ذمياً فقال له

الذمي: أين تريد يا عبد الله؟

قال عليه السلام: أريد الكوفة. فلما عدل الطريق بالذمي عدل معه الإمام علي عليه السلام، فقال

له الذمي: أليس زعمت تريد الكوفة؟

قال الإمام عليّ عليه السلام: بلى.

فقال له الذمّي: فقد تركت الطريق.

فقال الإمام عليّ عليه السلام: قد علمت.

فقال له الذمّي: فلم عدلت معي وقد علمت ذلك؟

فقال له الإمام عليّ عليه السلام:

«هذا من تمام حسن الصُحبة أن يُشيعَ الرَّجُلُ صاحِبَهُ هُنَيْئَةً إذا فارقه، وكذلك أمرنا نبينا».

فقال له الذمّي: هكذا؟ قال: نعم.

فقال له الذمّي: لا جَرَمَ إنما تَبِعُهُ مَنْ تبعه لأفعاله الكريمة، وأنا أشهدك أنني على دينك.

فرجع الذمّي مع عليّ عليه السلام، فلمّا عرفه أسلم^(١).

٣ - ونقرأ في حديث عن رسول الله ﷺ قال:

«من ظَلَمَ معاهداً وكَلَفَهُ فوق طاقته فإنّا حَجِيجُهُ يومَ القيامة»^(٢).

٤ - وجاء في كتاب «الخراج» لأبي يوسف أن «حكيم بن حزام» شاهد «عياض بن

غنم» وقد حبس قوماً من أهل الذمة في الشمس لَمّا إمتنعوا عن إعطاء الجزية (وكان

يريد أن يضيق عليهم ليضطرهم لدفع الجزية) فقال له حكيم: ما هذا يا عياض، لقد

سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إِنَّ الَّذِينَ يَعَذِّبُونَ النَّاسَ فِي الدُّنْيَا يُعَذَّبُونَ فِي الْآخِرَةِ»^(٣).

لو قد كان هذا الأمر معروفاً بين المسلمين إلى درجة أنهم نقلوا أن عمر بن عبد

العزيز كتب له أحد ولاته وإسمه «علي بن أرطاة» بأن قوماً عندنا لا يدفعون الخراج

١ - بحار الأنوار، ج ٤١، ص ٥٣.

٢ - فتوح البلدان - البلاذري - ص ١٦٧.

٣ - الخراج، ص ١٢٤.

مالم يجبروا على ذلك بالضرب والإيذاء! فكتب له عمر بن عبد العزيز: عجيب حقاً أن تطلب مني أن أجبرك بتعذيب الناس، أتريد أن تجعلني درع أمام عذاب الله، وتظن أن اذني ينجيك من عذابه؟! فإذا جاءك كتابي فمن دفع خراجَه وإلا حلفه على عجزه عن دفع الخراج، واكتف بذلك الحلف.

ثم يضيف: أيم الله أنه لأحب إليّ أن القى الله يوم القيامة وهؤلاء لم يدفعوا الخراج من أن القاه وقد عذَّبْتَهُمْ^(١).

وكما تلاحظون فإنّ الوارد في الحديث هو «تعذيب وإيذاء الإنسان» وهذا يدلّ على أن الممتنعين عن أداء الخراج لم يكونوا من المسلمين.

ونفس هذا المضمون ورد في حديث آخر، ولكن ورد فيه عنوان «الناس»، حيث ورد أن «سعيد بن زيد» رأى أن قوماً يُعَذَّبُونَ لعدم دفعهم «الجزية» فقال: سمعت من رسول الله ﷺ قال: «من عَذَّبَ النَّاسَ عَذَبَهُ اللهُ»^(٢).

٥ - ورد تعبير رائع في نهج البلاغة، خطبة الجهاد، يقول عليه السلام: «وَلَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ كَانَ يَدْخُلُ عَلَى الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ وَالْأُخْرَى الْمَعَاهِدَةَ فَيَنْتَزِعُ حِجْلَهَا وَقُلْبَهَا وَقِلَائِدَهَا وَرُغْتَهَا مَا تَمْتَنِعُ مِنْهُ إِلَّا بِالِاسْتِرْجَاعِ وَالِاسْتِرْحَامِ... فُلُوْا أَنَّ أُمَّرَأَةً مُسْلِمًا مَاتَ مِنْ بَعْدِ هَذَا أَسْفًا مَا كَانَ بِهِ مَلُومًا، بَلْ كَانَ بِهِ عِنْدِي جَدِيرًا».

(عندما أخبروا أمير المؤمنين عليه السلام بأن سرايا من جيش معاوية هجموا على الأنبار وقتلوا وإليه عليها «حسان بن حسان» ونهبوا أموال المسلمين وغير المسلمين، فدعى أمير المؤمنين الناس إلى الجهاد وخطب خطبة الجهاد المعروفة، جاء فيها المقطع أعلاه)^(٣).

فهنا نجد بأن الإمام عليه السلام يعتبر المرأة المعاهدة والمرأة المسلمة في رعب واحد

١ - الخراج - ص ١١٩.

٢ - الخراج - ص ١٢٤ و ص ١٢٥.

٣ - نهج البلاغة - الخطبة ٢٧.

في وجوب الدّفاع عنهما، وأن من مات أسفاً على سلبهما أموالهما فهو عنده جدير، ولا نجد تعبيراً أبلغ من هذا في الدّفاع عن حيثية أهل الذّمة وأموالهم وأنفسهم وأعراضهم.

٦ - روي أن علياً أمير المؤمنين عليه السلام رأى رجلاً مكفوفاً كبيراً يسأل، فقال أمير المؤمنين عليه السلام ما هذا؟ قالوا: يا أمير المؤمنين نصراني فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «استعملتموه حتى إذا كبر وعجز منعتموه، إنفقوا عليه من بيت المال».



تعامل المسلمين مع غير أهل الذّمة:

قد يُتصور أحياناً أن غير المسلمين صنفين، هما «أهل الذّمة» و «المحاربين»، وعليه فكل من لم يكن من «أهل الذّمة» فهو محارب وأن ماله ودمه هدر. ولكن في الحقيقة أنّ غير المسلمين أربعة أصناف، أذ يوجد مضافاً إلى الصنفين أعلاه صنف ثالث وهم «المعاهدون» (وهم الذين يرتبطون بالمسلمين بعهدٍ وميثاق وأن كانوا يعيشون خارج المحيط الإسلامي ولم يكونوا أقلية) و «المهادنون» وهم غير الأصناف الثلاثة، بل هم قوم يعيشون في بلادهم ولا يزاحمون المسلمين. وفي دنيا اليوم، يوجد لهذه الأصناف الأربعة مصاديق واضحة:

١ - الأقليات التي تعيش داخل الدّول الإسلاميّة، والتي تشملها قوانين تلك الدّول، وتكون الحكومات الإسلاميّة ملزمة بحفظ أموال ودماء ونواميس أفراد هذه الأقليات والدّفاع عن حقوقها، وهؤلاء يدفعون بعض الضّرائب للحكومة الإسلاميّة، يمكن اعتبارها بمقام «الجزية»، لأنّ «الجزية» كما ذكرنا مأخوذة من «الجزاء» بمعنى الشيء الذي تأخذه الحكومة الإسلاميّة كأجرٍ أو معونة للدّفاع عنهم، وهؤلاء هم أهل

الذمة.

٢ - بعض الدّول «كإسرائيل» و «أمريكا» الذين يحاربون المسلمين اليوم، ولا يتورعون عن أي عدوان ضدهم ولا يُقصرون في إيدائهم، فهؤلاء كفرة حريين، لَسْنَا ملزمين بأي تعهد في قبّالهم.

٣ - هناك شعوب غير مسلمة تربطهم معنا علاقات صداقة، ونبادل معهم السّفراء، ونعقد معهم أحياناً بعض المعاهدات الإقتصادية والتجارية والثقافية، أو نلتزم بمقررات معينة فيما بيننا من خلال المنظمات الدّولية وكل هؤلاء مصاديق «للمعاهدين» وعلينا أن نتعامل معهم بما تقضيه الإلتزامات التي تربطنا معهم بشكل مباشر أو غير مباشر (عن طريق المنظمات العالمية) وأن نرعى الإحترام المتبادل فيما بيننا.

٤ - وهناك بعض الدّول التي ليست في حالة حرب معنا، ولا معاهدة لنا، ولا يوجد بيننا سفراء، ولا تربطنا بهم موثيق، ولكن لا يزاحموننا ولا نحن نزاحمهم، فعلينا أن نراعي الأصول الإنسانية والأخلاقية معهم، وهؤلاء هم المهادنون. ومما ذكر أعلاه، يتضح لنا أن «أهل الذمة» هم فقط ذلك الصنف من أهل الكتاب الذين يعيشون داخل الدّول الإسلامية، وإن أحكام الجزية أو عدم التّظاهر بالمعاصي والذنوب الكبيرة وأمثالها، خاصة بهم.

وأما أهل الكتاب من الذين يعيشون في دولهم، فلا يعتبرون من مصاديق أهل الذمة، حتى لو إرتبطوا بموئيق وعهود معنا، وإنما هم مصاديق «المعاهدين» وقد يكونوا «محاربين» وقد يكونوا «مهادنين» في بعض الظروف. (إلتفتوا جيداً).

الحكومة

الإسلامية والأجهزة الأمنية

تمهيد:

لا شك في أنّ التجسس على أحوال الناس الخاصة والتفتيش عن أسرارهم عملٌ مذموم وقبيح، فإن الله ستّار العيوب، وينبغي على عباده أن يكونوا كذلك أيضاً، إلا بالنسبة للذين يهتكون السّتر ويتركون الحياء جانباً ويتظاهرون بإرتكاب الذنوب، فإنه لا حرمة لهم، لأنهم هم الذين هتكوا حرمتهم.

والقرآن الكريم يحذّر بصراحة عن التجسس، كما ورد في سورة الحجرات، حيث يقول تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾^(١).

فهنا إشارة إلى ثلاثة ذنوب كبيرة «سوء الظن»، «التجسس» و «الغيبة» وكل واحدٍ من هذه الثلاثة في الواقع مقدّمة للآخر، فإن إساءة الظن بالأشخاص مقدّمة للتجسس عليهم، والتجسس سبب في الإطلاع على العيوب والأخطاء، فتكون الغيبة، الغيبة التي تعتبر من أكبر الذنوب، وأساس العداوات والاختلاف وفقدان الثقة.

و «كرامة الإنسان» في الحقيقة، أهم شيء في كيانه من وجهة نظر الإسلام، حتى أنها أهم من حاله وحياته أيضاً، وقد ورد في حديث عن النبي الأكرم ﷺ:

«أَنَّ الدُّرْهَمَ يُصِيبُهُ الرَّجُلُ مِنَ الرَّبَا أَعْظَمُ فِي الْخَطِيئَةِ مِنْ سِتٍّ وَثَلَاثِينَ زَنِيَةً

يزنيها الرَجُلُ، وأربى الرِّبَا عِرْضُ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ»^(١).

والواقع هو أن رأسمال الإنسان في المجتمع هو كرامته، وكل المسائل الأخرى تابعة لها، ولا شك في أن سوء الظن والتجسس والغيبة تعرّض رأسماله الغالي إلى الخطر، أو تفنيه.

* * *

ولكن ومع ذلك، فإن هناك بعض الموارد إذا واجهناها بحسن الظن، ولم يُتَجَسَّسَ عليها وتفضح أسرارها، فإنها ستشكل خطراً على المجتمع الإسلامي، سواء كان هذا الخطر مؤامرة من قبل المنافقين في الدّاخل، أو مخططات مشثومة من قبل الأعداء من الخارج تنفذ على أيدي عملائهم في الدّاخل.

فمثل هذه الموارد لا بدّ من مواجهتها بريبة واستفهام، والتّجسس لحفظ الأهداف الأهم، وهذه هي فلسفة تشكيل الأجهزة الأمنيّة والأمن المضاد، وهي فلسفة معقولة ومنطقيّة وموافقة للعقل والشّرع، وإن كان طلاب الدّنيا والحكومات المستبدة والإستكبارية تسيء إستغلال ذلك، ولكن هذا لا يمنع من بقاء أصل هذا الأمر منطقيّاً ومعقولاً، فلا يقال ما هي الضرورة لمثل هذه الأعمال؟ فأبي قانون مقدس لم يُستغل إستغلالاً سلبياً من قبل ضعاف النّفوس؟!!

وخلاصة الكلام، هي أن عدم التّجسس على أوضاع الآخرين وحياتهم الخاصة «أصل» لا بدّ أن يحفظ، ولكن التّجسس في موارد معينة «إستثناء» ولا بدّ أن يُحفظ هو الآخر في حدود وشرائط خاصة بإعتباره وظيفة شرعية واجتماعية.

وفي الواقع إن هذا الإستثناء يخضع لقانون الأهم والمهم ويخضع للعناوين الثانوية، فحفظ كرامة الأفراد مهم جداً، ولكن حفظ وجود المجتمع الإسلامي ونظام الحكم والأمن والإستقرار أهم من ذلك وأوجب، ولذا ففي مثل هذه الموارد يقدم الثاني على الأول.

ومما تقدم يتضح أن التجسس وتفتيش أسرار الآخرين يحتاج إلى مجوز ودليل كافٍ، وأما التصرف الشخصي فغير مجاز.

هذا ما يرتبط بالتجسس في داخل المجتمع الإسلامي.

وأما في خارج المجتمع الإسلامي، فالمسألة أوضح، فإن على المسلمين دائماً أن يتعرفوا على ما يجري في ظاهر وباطن المجتمعات الأجنبية والذي قد يرتبط بمصير المجتمع الإسلامي، فعليهم أن يحبطوا المؤامرات في مهدها ويخنفوها وهي في مرحلة النطفة، وبغير ذلك فإنهم سيطلعون عليها بعد فوات الأوان، ويكون القضاء عليها صعباً حينئذٍ، أو يكلف ثمناً باهضاً جداً!

وهناك نوع آخر من التجسس في الحكومة الإسلامية (وكل حكومات العالم) وهو التجسس على أحوال موظفي وكوادر الحكومة الإسلامية ومسؤوليها، ليحصل الأطمئنان بأنهم يؤدون وظائفهم بشكل صحيح، وأنهم لا يجحفون ولا يتعدون على حقوق المسلمين، وأنهم لا يسيئون إستغلال مناصبهم.

وعلى أي حال، فالمستفاد من آيات القرآن هو أن مسألة التجسس كانت موجودة في تلك الأعصار، وإن النبي ﷺ كان له أجهزة للأمن المضاد لمواجهة عمليات التجسس لصالح أعداء الإسلام، وبهذا الطريق كان يحبط مؤامراتهم وتحركاتهم.

وقد حذر الله عز وجل في سورة التوبة - الآية ٤٧، المسلمين وأمرهم بمراقبة

تحركات جواسيس المنافقين، وقال:

﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا ضَعُفًا خَلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾^(١).

وقد يكون لفظ «سماع» بمعنى «الجاسوس»، أو من يتميز بقوة السمع والإستقبال، والإحتمال الأول أنسب لمورد الآية.

هذا في حين أنه قبل عدة آيات يأمر النبي ﷺ ببذل الجهد للتعرف على المنافقين، ويقول: ﴿عَنِ اللَّهِ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾^(٢).



قصة تجسس حاطب وسارة:

يظهر أن النبي الأكرم ﷺ كان له جهاز تجسس قوي من خلال قصة «حاطب بن أبي بلتعة» الواقعة قبيل فتح مكة المكرمة.

وتوضيح ذلك: كان النبي الأكرم ﷺ يستعد لفتح مكة وكان حريصاً على عدم إنتشار أخبار ذلك وانتقالها إلى إسماع المشركين وكان هناك رجل من المسلمين يقال له «حاطب بن أبي بلتعة» إشتراك في غزوة «بدر» و «بيعة الرضوان»، وكان يخاف على أهله في مكة من كيد المشركين فوسوس له الشيطان، فأراد أن يقدم خدمة لهم ليأمن كيدهم على عياله، فاتفق مع امرأة تدعى «سارة» كانت قد جاءت من مكة إلى

١ - و «أضعوا» من مادة «أضاع» بمعنى السرعة في الحركة، فالمراد هنا هو أن المنافقين يوجدون الفتنة في قلوب البسطاء من المسلمين والفرقة والتفاق بسرعة.

المدينة، وعندما أرادت العودة إلى مكة كتب حاطب كتاباً معها لتوصله إلى أهل مكة يخبرهم بنية رسول الله ﷺ وأعطاهما عشرة دنانير، وقيل عشرة دراهم، وكان قد كتب في الكتاب: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة أن رسول الله يريدكم فخذوا حذرکم، فخرجت سارة، ونزل جبرئيل فأخبر النبي ﷺ بما فعل حاطب، فبعث رسول الله ﷺ علياً وعماراً وعمر والزبير وطلحة والمقداد بن الأسود وأبا مرثد، وكانوا كلهم فرساناً وقال لهم: إنطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب من حاطب إلى المشركين فخذوه منها. فخرجوا حتى أدركوها في ذلك المكان الذي ذكره رسول الله ﷺ فقالوا لها: أين الكتاب؟ فحلفت بالله ما معها من كتاب، فنحوها وفتشوا متاعها فلم يجدوا معها كتاباً، فهموا بالرجوع فقال علي عليه السلام: والله ما كذبنا ولا كذبنا وسل سيفه وقال لها: أخرجي الكتاب وإلا والله لا ضربن عنقك، فلما رأت الجد أخرجته من ذوائبها قد أخبأته في شعرها، فرجعوا بالكتاب إلى رسول الله ﷺ فأرسل إلى حاطب فأتاه، فقال له: تعرف الكتاب؟ قال: نعم، قال ما حملك على ما صنعت؟ قال: يا رسول الله، والله ما كفرت منذ أسلمت، ولا غشيتك منذ نصحتك ولا أحببتهم منذ فارقتهم ولكن لم يكن أحد من المهاجرين الأوله بمكة من يمنع عشيرته وكنت عزيزاً فيهم - أي غريباً.

وكان أهلي بين ظهرائهم فخشيت على أهلي فأردت أن أتخذ عندهم يداً وقد علمت أن الله ينزل بهم بأسه وأن كتابي لا يغني عنهم شيئاً. فصدق رسول الله ﷺ وعذره، فقام عمر بن الخطاب وقال دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال رسول الله ﷺ: وما يدريك يا عمر لعل الله إطلع على أهل بدر فغفر لهم، فقال لهم إعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم.

فنزلت الآيات الأولى من سورة «المتحنة» وحذرت بشدة المسلمين من تكرار

مثل هذه التصرفات، لأنها تذهب بدنياهم وآخرتهم^(١).

ففي هذه القصة، نجد أنّ هناك تجسساً لصالح الأعداء، ولكن جهاز الأمن المضاد عند النبي ﷺ - سواء كان عن طريق إطلاع جبرئيل الأمين أو أي طريق آخر - أحبط مؤامرة العدو، بنحو لم يصل أي خبر عن تحرك النبي ﷺ ومخططة لفتح مكة إلى إسماع قريش وفوجيء مشركوا قريش بدخول جيش الإسلام إلى مكة، وكان ذلك سبباً في تحرير أقوى قلاع الشرك بلا إراقة دماء ولا حرب، ولو كانت الجاسوسة قد أوصلت ذلك الكتاب إلى مكة، كان يُحتمل أن تراق دماء كثيرة في هذا الطريق، وهذا يدل على أهمية دور الأجهزة الجاسوسية أو الأمن المضاد في تحديد مصير مجتمع وامة بكاملها.



قصة إستخبار حذيفة:

نموذج آخر من النشاطات التجسسية في عصر النبي ﷺ، هو قصة «حذيفة» في حرب الأحزاب.

فقد روي في التواريخ؛ ذات ليلة من ليالي حرب الأحزاب، وبعد إختلاف الأحزاب فيما بينهم، قال رسول الله ﷺ: من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع - بشرط له رسول الله ﷺ الرجعة - أسأل الله تعالى أن يكون رفيقي في الجنة؟ قال حذيفة: فما قام رجل من القوم من شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد. فلما لم يقم أحد دعاني رسول الله ﷺ فلم يكن لي بدّ من القيام حين دعاني فقال:

يا حذيفة إذهب فأوغل في القوم فإنظر ماذا يصنعون ولا تُحدثن شيئاً حتى تأتينا». قال فتهيأت فدخلت في القوم والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل لا تقر لهم قدراً ولا ناراً ولا بناء، فقام أبو سفيان فقال: يا معشر قريش لينظر إمرؤ من جليسه؟ قال حذيفة: فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى حنبي فقلت: من أنت قال: فلان بن فلان ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش إنكم والله ما أقمتم بدار فقام لقد هلك الكراع والخف وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذي نكره ولقينا من شدة الريح ما ترون ما تطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء فارتحلوا تحلوا فإني مرتحل، ثم قام إلى حمّله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثبت به على ثلاث فوالله ما أطلق عقاله إلا وهو قائم ولولا عهد رسول الله ﷺ إليّ «أن لا تحدث شيئاً حتى تأتيني» ثم شئت لقتلته بسهم».

والمستفاد من آيات القرآن، أن وجود الأجهزة الأمنية والتجسسية كان أمراً رائجاً حتى في زمن الأنبياء الذين سبقوا نبينا محمد ﷺ، حتى أستفيد من الطيور في هذا المجال كما في قصة سليمان عليه السلام والهدد، الذي كان يأتي بأخبار البلدان البعيدة إلى سليمان، ثم يحمل رسالة سليمان - التي كانت تبين علاقته بالدول الأخرى - إلى تلك الدول^(١).

* * *

المنظمات التجسسية في الروايات الإسلامية

١ - الآية ٢٠ إلى ٢٦ من سورة النمل (وللتفصيل راجع التفسير الأمثل، ج ١٥، ص ٤٣٩).

لهذه المسألة في الروايات الإسلامية وكتب التاريخ صدئ واسع جداً، فمن مطالعتها يمكن الوقوف على هذه الحقيقة وهي أن الحكومة الإسلامية ينبغي أن لا تغفل عن هذه المسألة المهمة، وأن عليها أن تمارس نشاطاً موسعاً في اتجاهين: أن تطلع على تحركات العدو العسكرية والسياسية والاقتصادية التي لها تأثير على مستقبل ومصير المسلمين، وإن تواجه الفعاليات الجاسوسية، للعدو الذي يحاول النفوذ واختراق المسلمين للتعرف على أسرارهم وسرقتها.

وسنتعرض هنا إلى بيان نموذج من هذه الروايات والنقول التاريخية:

١- ورد في حديث عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا بعث جيشاً فأتهم أميراً بعث معهم من ثقاته من يتجسس خبره»^(١).

فقد يكون ذلك الأمير معتمداً من بعض الجهات، ولكن خطورة مسؤوليته توجب وجود ناظرٍ ومفتش عليه، تحسباً من إنحرافه - لا سمح الله - وإرتكابه ما لا يمكن جبرانه من قبل المسلمين.

وهذا الحديث موافق لما ورد في متن الوسائل وقرب الإسناد الطبعة الجديدة^(٢)، ولكن ورد في بعض الكتب كلمة «فأتمهم» بدلاً من «فأتهم»، أي عين لهم أميراً، ولكن تعيين المفتش والجاسوس أنسب بلفظ «فأتهم»، وانتخاب مثل هذا الأمير يكون لتمييزه ببعض الميزات المفقودة في غيره. (التفتوا جيداً).

٢- ورد في حديث آخر حول سرية «عبد الله بن جحش» (والسرية، الحرب التي لم يحضر الرسول بنفسه فيها)، أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بعث عبد الله بن جحش بن رثاب الأسدي ومعه ثمانية رهط من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد، وكتب له

١ - وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٤٤.

٢ - طبع مؤسسة آل البيت عليهم السلام.

كتاباً وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه فيمضي لما أمره به. فلما سار عبدالله يومين فتح الكتاب فنظر فيه فإذا فيه: إذا نظرت في كتابي هذا فامضي حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم من أخبارهم (والقصة طويلة وقد جاء في ذيلها أنه إشتبك معهم وأسر منهم جماعة وغنم غنائم...^(١)).

٣- بعد غزوة بدر^(٢)، لما إنصرف أبو سفيان ومن معه نادى: إن موعدكم بدر للعام القابل. فقال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه قل: نعم، هو بيننا وبينكم موعد. ثم بعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب عليه السلام فقال: أخرج في آثار القوم، فأنظر ماذا يصنعون وما يريدون، فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الأبل فإنهم يريدون مكة وإن ركبوا الخيل وساقوا الأبل فإنهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ثم لأناجزنهم!

قال علي: فخرجت في آثارهم أنظر ماذا يصنعون، فجنبوا الخيل وامتطوا الأبل وتوجهوا إلى مكة.

وكان هذا النشاط التجسسي للنبي على يد أمير المؤمنين عليه السلام، عمل مهم جداً ومؤثر في تحديد مصير المسلمين، وكان ينقذهم من أن يفاجئوا.

٤- ونقرأ^(٣) في قصة حرب أخذ أن النبي ﷺ أرسل رجلين يتجسسان على أحوال جيش قريش قبل أن يردوا أخذ ليتعرفوا على عدد قوات العدو وعدتهم، كما أنه أرسل «الحباب بن المنذر» سراً ليستطلع أوضاع قريش بعد أن نزلوا أحداً، وطلب منه أن يأتيه بالخبر سراً إذا كان عددهم كبير وإن إذا كان قليلاً فلا مانع من أن يخبره

١- سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٢٥٢، وكامل ابن الأثير ج ٢، ص ١١٣.

٢- سيرة ابن هشام - ج ٣، ص ١٠٠.

٣- المغازي للواقدي، ج ٢، ص ٢٠٦ و ٢٠٧.

علناً.

ولمّا كان عدد المشركين كبيراً، جاء الحباب وأخبر رسول الله ﷺ بعددهم سرّاً.

٥ - وكتب نهج البلاغة، تبين لنا بوضوح أنّ الجهاز الأمني للإمام علي عليه السلام كان مطلعاً على الأمور في كلّ بقاع الدولة الإسلامية.

ومن جملة ذلك «عهده لمالك الأشتر» في تعيين المفتشين السريين للنظر في كيفية قيام العمّال - الولاة بوظائفهم، يقول عليه السلام: «وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم فإنّ تعاهدك في السرّ لأموارهم حدوة لهم على الإستعمال الأمانة والرفق بالرعيّة».

وبطبيعة الحال، فإنّ هذا النشاط واحد من نشاطات العيون التجسسية، وهو أن يتجسسوا على كيفية قيام مأموري وموظفي لدولة الإسلامية بوظائفهم.

٦ - وفي كتاب آخر له عليه السلام إلى واليه على مكة «القثم بن عباس» وهو أخو عبد الله بن عباس، يقول فيه: «أما بعد، فإنّ عيني بالمغرب^(١) كتب إليّ يُعلمني أنّه وُجّه إلى الموسم أناس من أهل الشام العمي القلوب الصمّ الإسماع الكمه الإبصار الذين يلبسون الحقّ بالباطل ويطيعون المخلوق في معصية الخالق.... فأقم على ما في يدك قيام الحازم الصليب^(٢) ويبدو أن معاوية كان قد أعدّ مخططاً لخداع «القثم بن عباس» ودعوته لخيانة علي عليه السلام، وإيجاد الفوضى في موسم الحج، فأخبر عيون الإمام عليه السلام المخترقين جهاز حكم معاوية، الإمام علي عليه السلام بهذا الخبر بسرعة فأسرع

١ - الشام، وعاصمتها دمشق، التي تقع إلى الغرب (أو الشمال الغربي) من الكوفة مركز خلافة الإمام علي عليه السلام.

٢ - نهج البلاغة، الكتاب ٣٣.

الإمام عليه السلام في إحباط تلك المؤامرة.

والكلام هنا في المأمورين السريين الذين يخترقون قلب أجهزة العدو وينفذون فيها لنقل المعلومات السرية.

٧- ونقرأ كتاب أمير المؤمنين عليه السلام إلى «عثمان بن حنيف»، حيث يقول عليه السلام: «أما بعد يا بن حنيف فقد بلغني أنّ رجلاً من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبة فأسرعت إليها تستطاب لك الألوان وتنقل اليك الجفان»^(١).

فمن هذا الكتاب يتضح لنا بأن عيون الإمام عليه السلام السرية لم تكن تنقل له المسائل السياسية والعسكرية فقط، بل وكذلك المسائل الأخلاقية التي لم تكن مناسبة لمقام الولاية وموظفي الحكومة الإسلامية وغير المنسجمة مع أصول التعاليم الإسلامية وخاصة فيما يرتبط بالزهد، وأن جزئيات حركاتهم غير خافية على عيون الإمام التجسسية الفطنة.

وشبيه هذا المعنى نراه في كتابه عليه السلام إلى «المنذر بن جارود» وإليه على «إصطخر» حيث ورد في هذا الكتاب:

«أما بعد فإنّ صلاح أهلك غرني منك، وظننت إنك تتبع هديّ، وتسلك سبيلهُ فإذا أنت فيما رُقي إليّ عنك لا تدعُ لهواك إنقياداً ولا تبقى لآخرتك عناداً تغمر دنياك بخراب آخرتك وتصلُ عشيرتك بقطيعة دينك»^(٢).

والمستفاد من الروايات أن خيانة ابن الجارود هي أنّه إختلس أربعمائه الف درهم من بيت المال له ولأقربائه، فعزله الإمام عليه السلام من ولايته وحبسه مدة من الزمن^(٣). ونرى هنا أن عيون الإمام عليه السلام قد نقلوا خيانة هذا الوالي الخفية بعد أن كشفوها،

١ - نهج البلاغة - الكتاب ٤٥.

٢ - نهج البلاغة - الكتاب ٧١.

٣ - سفينة البحار - مادة (نذر).

وإن الإمام عليه السلام أبدى موقفاً شديداً تجاهه.

٨ - جاء في تاريخ حياة الإمام الحسن المجتبي عليه السلام لما بلغ معاوية بن أبي سفيان وفاة أمير المؤمنين عليه السلام وبيعة الناس أبنه الحسن عليه السلام دسّ رجلاً من حمير إلى الكوفة، ورجلاً من بني القين إلى البصرة ليكتبا إليه بالأخبار، ويفسدا على الحسن الأمور، فعرف ذلك الحسن عليه السلام فأمر بإستخراج الحميري من عند لجّام بالكوفة، فأخرج وأمر بضرب عنقه، وكتب إلى البصرة بإستخراج القيني من بني سليم فأخرج وضربت عنقه^(١) وكتب الحسن عليه السلام إلى معاوية: أمّا بعد فإنك دسست الرجال للإحتيال والإغتيال وارصدت العيون كأنك تحب اللقاء وما أشك في ذلك فتوقعه إن شاء الله.

٩ - بعد حرب صفين أعلن جماعة من «بني ناجية» يتزعمهم «الحريث بن راشد» مخالفتهم للإمام ونقضهم البيعة، فأرسل الإمام علي عليه السلام إلى الحريث وطلب منه المثل عنده ليبين له السنن وأموراً من الحق، فلم يحضر الحريث وفرّ برجاله، وفي الطريق قتلوا رجلاً مسلماً من أتباع الإمام عليه السلام، وتركوا يهودياً واعتبروه من أهل الذمة، فكتب الإمام عليه السلام كتاباً إلى عمّاله في تلك المناطق، مضمونه أن قوماً مذنبين هربوا، ونظن أنهم قصدوا البصرة، وكان مما جاء في ذلك الكتاب: «واجعل عليهم العيون في كل ناحية من أرضك ثم إكتب إلي بما ينتهي اليك عنهم»^(٢).

* * *

من مجموع الروايات أعلاه، والروايات والتواريخ الأخرى التي يطول المقام

١ - بحار الأنوار - ج ٤٤، ص ٤٥، الحديث ٥.

٢ - نهج البلاغة، لابن أبي الحديد - ج ٣، ص ١٣٠.

بذكرها، يتضح جيداً أنَّ أجهزة التجسس والتفتيش كانت تعمل دائبة في عصر النبي الأكرم ﷺ والأئمة المعصومين عليهم السلام سواءً في مجال كشف مؤامرات الأعداء، أو في إبطال خطط الأجهزة الجاسوسية للمخالفين، أو في التحقيق في سلوك موظفي الدولة الإسلامية، وكذلك كشف مؤامرات المنافقين في داخل الدولة الإسلامية.

وبطبيعة الحال، فإن أساليب «التجسس» و«ضد التجسس» في زماننا تغيرت كثيراً كغيرها من المسائل عما كانت عليه في ذلك الوقت واتسعت وتعمقت كثيراً واستفيد فيها من التكنولوجيا الحديثة المتطورة بشكل واسع.

ولا شك، فإن الحكومة الإسلامية لا يمكنها الإكتفاء بالأساليب القديمة والبدائية للوصول إلى أهدافها الأمنية وفي الأمن المضاد، بل لابدَّ أن تتجهَّز بكلِّ الوسائل المتطورة، لكي تكشف كل مؤامرات الأعداء ومخططاتهم الرامية إلى تضعيف الدولة الإسلامية وقهرها، كما أنَّ عليها أن تراقب بدقة تصرفات المسؤولين في الدولة الإسلامية، ونشاطات الأحزاب والمجاميع السياسية المتواجدة، لإقرار الأمن والحدِّ من المفساد والتخريب.

فعلى الحكومة الإسلامية إن تستعين بالتكنولوجيا الحديثة وكلِّ أساليب التجسس ولا تكتفي بالأساليب القديمة.

وعلى الرغم من أنَّ هذا يكلف الدولة أموالاً طائلة، إلاَّ أنه قد يكون صرف أموال قليلة في هذا المجال سبباً للحدِّ من ضياع أموالٍ طائلة في المجالات العسكرية والسياسية والاقتصادية، أو تكون سبباً في الوقاية من خسائر كثيرة لا يمكن تعويضها. فمثلاً لو أنَّ أجهزة التجسس في الدول الإسلامية، كشفت عملية تفجير تستهدف زعزعة أمنها، فإنها ستمنع من حدوث خسائر فادحة في القوى البشرية والاقتصادية، والأهم من ذلك أنَّها ستكشف مؤامرة الأعداء العسكرية الخطيرة وتمنع من

مضاعفات مثل هذا العمل.



إستراق السَّمع:

لا شك في أن مراقبة المكالمات الهاتفية الشخصية والتجسس على محتواها للإطلاع على أسرار الناس، مصداق من مصاديق الآية الشريفة في سورة الحجرات الدالة على حرمة «التجسس»، كما أن الروايات الاذلامية تؤكد هذا المعنى.

فقد ورد في حديث عن رسول الله ﷺ: «لا تتبعوا عثرات المسلمين فإنه من تتبع عثرات المسلمين تتبع الله عثرته، ومن تتبع الله عثرته يفضحه». والملفت للنظر هو أنه ذكر المخاطبين في هذا الحديث بقوله: «يا معشر من أسلم بلسانه ولم يسلم بقلبه»^(١).

وفي أصول الكافي، في باب من طلب عثرات المسلمين وعوراتهم ذكرت أحاديث كثيرة أخرى - غير الحديث أعلاه -.

وحرمة هذا الأمر كانت مسلمة بين المسلمين إلى درجة أن عمر بن الخطاب كان ذلك ليلة يتجول في أزقة المدينة، فسمع رجلاً يُغني في داره، فتسلق عمر حائط الدار وصاح بالرجل يا عدو الله أتعصي الله هنا وتظن أن الله لن يفضحك؟! فقال الرجل: مهلاً أيها الخليفة، فإن كنت قد ارتكبت ذنباً واحداً فأنت قد ارتكبت ثلاثة ذنوب، فإن الله عز وجل يقول ولا تجسسوا وأنت تتجسس، وإن الله عز وجل يقول ﴿وآتوا البيوت من أبوابها﴾ وأنت سطوت من على الجدران، وإن الله عز وجل

يقول: ﴿ لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ﴾ ولم تفعل أنت ذلك!

فإستحي عمر وقال: لو عفوتُ عنك فهل تترك إقتراف هذا الذنب؟

قال الرجل: نعم، فعفى عنه عمر وخرج^(١).

وعلى أي حال، فلا شبهة في أن إستراق السَّمع، بمعنى مراقبة مكالمات الناس، العادية منها أو الهاتفية، وحتى التجسس على الرسائل والمكاتب الخاصة، كل ذلك من مصاديق التجسس المحرم الواضحة.

ولكن، قد تقتضي الضرورات أحياناً، أن ترتكب الحكومة الإسلامية مثل هذا الفعل في بعض الموارد، وهو مورد إحتمال وجود مؤامرة ضد الإسلام والمسلمين، وإحتمال وجود خطر على الأنفس والأموال المحترمة، ففي مثل هذه الموارد لا مفرّ من إستراق السمع والتفتيش في الأعمال، بالضبط كما يتمّ ذلك في التفتيش عن المواد المخدّرة وأمثال ذلك في الطرق العامة ووسائل النقل أو تفتيش الأشخاص في مداخل المدن!

والواقع أن هذه المسألة فرع من فروع مسألة تزامم الواجبات أو تزامم الواجب والحرام، ولا بدّ من مراعاة «المرجحات» ومسألة «الأهم والمهم».

وبتعبير أوضح، التجسس على أفعال المسلمين حرام ولكن حفظ نفوس أفراد المجتمع، ونظام الدولة الإسلامية، وإحباط مؤامرات الأعداء، أهم من ذلك، وعليه ففي كلّ مورد يخاف فيه من تعرّض مثل هذه الأمور للخطر، يجوز إستراق السمع للحدّ من وقوع تلك المخاطر.

* * *

التعذيب الجسدي لأخذ الإقرارات!

لاشك في أن إيذاء أي إنسان بلا مبرر غير جائز، وقلنا في الأبحاث السابقة أيضاً بأنه لا يجوز تعذيب أحدٍ لأخذ الإقرارات منه، وإن كل أقرار مأخوذ بهذا الأسلوب غير معتبر شرعاً ولا مواخذة عليه في القانون.

ففي حديث عن أمير المؤمنين الإمام عليّ عليه السلام قال: «مَنْ أَقَرَّ عِنْدَ تَجْرِيدٍ أَوْ تَخْوِيفٍ أَوْ حَبْسٍ أَوْ تَهْدِيدٍ فَلَا حَدَّ عَلَيْهِ»^(١).

ولكن إذا كان المتهم قد ارتكب جرمًا بيّنًا غير ذلك الجرم الذي لم يثبت عليه، جاز تعذيبه لإجله، كما لو القي القبض على سارق في أثناء إقتحامه منزل مسلم، ولم تثبت سرقة، فلو عُرِّر لإقتحامه المنزل وإعترف أثناء التعذيب بالسرقه ظناً منه أن هذا التعذيب تعذيب لأخذ الأقرار، وثبت بالقرائن صدق اعترافه هذا (كما لو دُلَّ على مواضع أخفاء تلك المسروقات وتبين صحة ذلك)، أمكن الأخذ بهذا الإقرار وإعتباره شرعياً، وذلك لأن القرائن القطعية هي التي تثبت صحة هذا الإقرار.

كما يمكن أتباع هذا الأسلوب في خصوص الجواسيس الأجانب حتى لو لم يرتكبوا مخالفة قطعية، وكان حاكم الشرع يعتقد يقيناً أو ظناً قوياً بأن هذا الجاسوس يحمل معلومات سرية خطيرة تهدد مصير الدولة الإسلامية والمسلمين بالخطر، فإنه في مثل هذه الحالة يمكن تعذيب هذا الجاسوس والتضييق عليه بشرط مراعاة التعامل الإنساني.

وقد مرَّ بنا في قصة «حاطب بن أبي بثلعة»، عندما إمتنعت «سارة» تلك الجاسوسة، عن الإقرار وتسليم الكتاب الذي كتبه حاطب لأهل مكة، سلَّ عليّ عليه السلام سيفه وهذَّدها بالقتل، فخافت «ساره» فأخرجت الكتاب من شعرها وسلمته للإمام عليه السلام. فهذا الإقرار كان مقروناً بالتعذيب الروحي ومع ذلك حكم

بصحته.

فمن الواضح أنَّ مثل هذه الضغوط في مثل هذه الموارد، ليست أمراً مخالفاً للعقل ولا للشرع، لأن أهمية المسألة تكون إلى درجة يجوز معها مثل هذا التعذيب، ففي تلك الحادثة، لو أن خبر عزم الرسول ﷺ على فتح مكة، كان قد وصل إلى إسماع قريش، لأريق دماء كثيرة في ذلك البلد الآمن مع أنَّ نتيجة الحرب كانت واحدة.

وفي قصة قضاء أمير المؤمنين عليه السلام نجد موارد كثيرة مارس الإمام عليه السلام فيها التعذيب الروحي ضد المجرمين وخاصة في القضايا المهمة التي كانوا يرفضون الإقرار والإقرار فيها، فكان الإمام يمارس مثل ما مرَّ ذكره من الأساليب للحصول على إقرارهم، فمثلاً جاء في قصيته: أنَّ رجلين تداعيا عنده، وكان كل منهما يدعي أنه السيد وإن الآخر غلامه، فقال الإمام عليه السلام لقنبر يا قنبر علي بسيف رسول الله ﷺ عجل أضرب رقبة العبد (بعد أن أدخل رأسيهما في ثقبين أعدَّهما خصيصاً لهذا الأمر)، قال: فأخرج الغلام رأسه مبادراً فقال علي عليه السلام للغلام: ألسنت زعم إنك لست بعبد، ومكث الآخر في الثقب، قال: بلى أنه ضربني وتعدى علي (١).

فلا شك في أن هذا التهديد كان مؤذياً للغلام الواقعي ولكن هذا المقدار جائز للكشف عن واقع حقٍّ مهم في موارد التجسس يكون الأمر كذلك، بل هو أعلى وأولى.

وبتعبير آخر، فإن قانون «الأهم والمهم» و «تزاحم الواجبات والمحرمات» يجبر مثل هذا التعذيب في مثل هذه الموارد.

ولكن، ينبغي أن لا يُستغل هذا القانون بهذه الذريعة ويُعذَّب المتهمون تعذيباً شديداً لا يطاق أو يطبق هذا القانون والاستثناء لأدنى سوء ظنٍ بالأشخاص. وينبغي أن لا ننسى أن هذا مجرد إستثناء، ولا يجوز الإستفادة من مثل هذه الأساليب إلا في موارد الضرورة مع رعاية الحقوق الإنسانية كماً وكيفاً.

* * *

ومن هنا تتضح لنا مسألة أخرى وهي أن بعض المأمورين لجمع المعلومات والأسرار يضطرون ولكسب الأخبار الحساسة والمصيرية، أن يتزوّوا بزي الأعداء ويتقمصوا شخصيات أفراد العدو في الملبس والمأكل كي يتمكنوا من إختراق العدو، وفي مثل هذه الحالات قد يضطروا إلى إرتكاب بعض الذنوب كأكل الحرام أو الحديث ضدّ الإسلام والمقدّسات الإسلامية لتحقيق أغراضهم، فالحكم هنا مشمول لقاعدة «تزاحم الواجب والحرام» و «الأهم والمهم»، فمتى ما كان الهدف أعلى وأهم من الذنب، كان إرتكاب ذلك الذنب جائزاً، لتحقيق الهدف.

* * *

سؤال: هل الغاية تبرر الوسيلة؟

قد يقال، أن ما ذكرنا من إستثناءات أليس تعبيراً آخر عن ما هو معروف عند بعض زعماء المدارس الإلحادية المادية من أن: «الغايات تبرر الوسائط»؟ وفي الإجابة على هذا السؤال، لابدّ من الإلتفات إلى نكته واحدة وهي أن هؤلاء

الذين يقولون بهذه المقالة لم يحددوا قيداً ولا شرطاً لها، أي إنهم يقولون: للوصول إلى الأهداف (بلا إستثناء) يمكن التوسل بأية وسيلة (بلا إستثناء)، ولذا فإنهم يوجهون الحروب المدمرة الدامية من أجل الحفاظ على مصالحهم الإقتصادية، فيذهب آلاف الناس ضحية من أجل عدم تضرر مصالحهم بأدنى ضرر.

أما أتباع الأديان السماوية، فهم ينكرون هذه العمومية في الشقين معاً، أي أنه لا يكفي كل هدف لتبرير وتجويز الوسيلة، كما أنه ليست كل وسيلة مجازة وإن كان الهدف سامياً، فالحاكم هنا هو قانون «الأهم والمهم»، تلك الأهمية المقررة عقلاً وشرعاً، لا كل أهمية وإن كانت مصلحة شخصية، وهوى وهوساً شيطانياً.

فقانون الأهم والمهم ليس أمراً يمكن إنكاره - فمثلاً يجوز ضرب وجه من يستعمل الترياق ويريد النوم - ذلك النوم الذي يؤدي بحياته - بعدة صفعات على خده ليفيق من نومه من أجل إنقاذه من الموت، وأكبر من ذلك يمكن أخذ الضرائب المالية من الناس من أجل أعداد القوة المناسبة لحفظهم من أخطار الأعداء وغزوهم، أو حبس كل أفراد المجتمع في منازلهم لعدة أيام، لتلقيحهم بلقاح ينقذهم من وباءٍ خطير يهدد حياتهم جميعاً.

هذا ما يقوله أتباع مدرسة الأنبياء ﷺ، بينما نجد أن أتباع المدارس المادية الإلحادية لا يشترطون أي شرط لتطبيق قاعدتهم، فيجيزون كل وسيلة للوصول إلى أي هدف من أهدافهم.

وبهذا ينتهي الجزء العاشر من نفحات القرآن والذي يتناول البحث حول الحكومة والولاية، وبهذا تنتهي الدورة الكاملة في المعارف والعقائد الإسلامية وموجهة نظر القرآن الكريم وعلى أساس التفسير الموضوعي في عشرة أجزاء. نشكر الله ونحمده على هذا التوفيق الذي شملنا لأداء هذا الأمر المهم.

إلهنا: تقبل منا جميعاً هذا المجهود المتواضع واجعله ذخيراً لنا في يوم الجزاء،
ووفق كل من يود الإطلاع على المعارف والعقائد الإسلامية من وجهة نظر القرآن
الكريم إلى الإطلاع عليه.

تمّ في آخر شهر صفر يوم ذكرى إستشهاد
الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام سنة
١٤١٦ هـ

الفهرس

- ٣ اقتران بين «الامامة» و «الحكومة»
١٣ ضرورة الحكومة من خلال الرويات الاسلامية
١٧ ضرورة الحكومة في المنظار العقلي

* * *

- ٢٣ أهداف الحكومة الإسلامية
٢٩ انواع الحكومة
٢٩ ١ - الحكومات الاستبدادية
٣٠ ٢ - الحكومة الديمقراطية
٣١ ٣ - الحكومة الالهية
٣٧ مناقشة أنواع الحكومات
٣٩ هل أنّ الحكومة أمر تنصيبى أم انتخابى

* * *

- ٤٣ حقيقة الحكومة الاسلامية
٤٧ الولاية الخبرية والانشائية؟!
٤٨ الحكومة والوكالة

* * *

العلاقة بين «الدين» و «الحكومة» من وجهة ٥١

نظر القرآن الكريم ٥١

فريقان يأخذهما الفرع من تشكيل الحكومة الاسلامية..... ٥٨

الطائفة الأولى ٥٩

نقد و تحليل ٦٣

* * *

أركان الحكومة الإسلامية..... ٧١

المقدمة..... ٧٣

تمهيد ٧٩

تفسير الآيات..... ٨٢

* * *

هل يمتلك الرسول ﷺ والمعصومون حق التشريع؟ ٩١

سؤال ٩٥

الجواب..... ٩٥

* * *

مجلس الشورى وانتخاب النواب..... ١٠١

أهمية وضرورة المشورة..... ١٠١

أهمية الشورى في الاحاديث الإسلامية..... ١٠٣

صفات المستشارين..... ١٠٦

* * *

- كيفية إنطباق مجالس الشورى مع موازين المشورة الإسلامية ١٠٩
- المسؤولية الرئيسية لمجلس التشريع الاسلامي ١١٣
- النظام التنفيذي للحكومة الإسلامية في عصر النبي الاكرم ﷺ ١٢٣
- صفات وشروط المسؤولين التنفيذيين ١٢٤
- شروط القائمين على الحكومة في الاحاديث الإسلامية ١٢٦
- ١ - العلم والوعي في أعلى مستوياتهما ١٢٧
- ٢ - سعة الصدر وانفتاح الفكر والاستعداد على ١٢٧
- تحمل الحوادث المختلفة ١٢٧
- ٣ - الوعي بمسائل الزمان ١٢٧
- ٤ - مراعاة العدالة وعدم التفريق بين الناس ١٢٧
- ٥ - الاهتمام بمكافأة المحسنين والعفو عن المذنبين الذين ١٢٨
- يؤمل بتوبتهم ١٢٨
- وعودتهم عن ذنوبهم ١٢٨
- ٦ - النظر لمصالح الناس ومصلحه بعين المساواة! ١٢٨
- ٧ - الارتباط العاطفي مع الناس ١٢٩
- ٨ - الابتعاد عن البخل، والجهل، والجفاء والظلم ١٢٩
- ٩ - عدم المصانعة والتعاطي مع اهل الباطل ١٢٩
- ١٠ - النظر بعين الامانة لمقامه ومنصبه ١٣٠



تركيب النظام التنفيذي ١٣٣

النظام التنفيذي في عالم الخليفة ١٣٥

النظام التنفيذي في عصر النبي ﷺ ١٣٩

كيفية انتخاب رئيس السلطة التنفيذية والمسؤولين الآخرين ١٤١

* * *

الثقافة الحاكمة على الحكومة الإسلامية ١٤٥

ونقرأ في حديث آخر ١٥١

٢ - الآداب للإسلامية في جمع الضرائب ١٥١

٣ - الإقتصاد في كل شيء ١٥٣

٤ - التمايز بالفضيلة لا بالحسب والنسب ١٥٤

٦ - الإعتماد على الشعب ١٥٥

٧ - الإتصال المستمر بالعلماء ١٥٦

٨ - الثقافة الحاكمة على الجهاز القضائي ١٥٧

٩ - الإرتباط المباشر مع الناس ١٥٨

١٠ - الإهتمام بالمحرومين ١٥٩

النتيجة ١٦٠

* * *

كيفية إنتخاب رئيس الجهاز التنفيذي ١٦١

تعالى و تم نصبهم بواسطة الرسول ﷺ ، وهناك آيات من سورة المائدة

«يا أيها الرسول ١٦٢

* * *

١٧١	من يكون له حق القضاء؟
١٧٩	صفات القاضي
١٨٢	الشرائط الكمالية
١٨٣	القرآن وصفات القاضي
١٨٥	النتيجة
١٨٥	اداب القضاء في الاسلام
١٨٧	في وظائف القاضي وهي سبع
١٨٩	تفاوت كيفية القضاء في الاسلام عن المدارس المادية
١٩٣	الحدود والتعزيرات في الاسلام
١٩٣	١ - فلسفة الحدود والتعزيرات في الاسلام
١٩٥	٢ - معنى الحد والتعزير
١٩٦	٣ - تعداد الحدود الاسلامية
١٩٦	١ - حد الزنا
١٩٧	٢ - حد السرقة
١٩٧	٣ - حد القذف
١٩٧	٤ - حد المحارب
١٩٩	٥ - حد المرتد
٢٠٠	لماذا كل هذه الصرامة في المرتد؟
٢٠٢	٦ - حد شرب الخمر
٢٠٣	٧ - حد اللواط

- ٨ - حدّ المساحقة ٢٠٤
- ٩ - حدّ القيادة ٢٠٤
- ١٠ - حدّ الساحر ٢٠٤
- وتوضيح ذلك ٢٠٦
- عدة نكات مهمة في التعزيرات الاسلامية ٢٠٧
- ١ - وحدة النسق ٢٠٧
- ٢ - عدم إنحصار التعزير بالجلد ٢٠٨
- ٣ - معنى تخيير الحاكم في التعزيرات ٢١٠
- ٤ - التعزيرات في القرآن الكريم ٢١١
- ألف: قصة المتخلفين عن غزوة تبوك ٢١١
- وتوضيحه: نقرأ في سورة التوبة، الآية ١١٨ ٢١١
- ب - قصة ثعلبة ٢١٣
- ج - آية الايذاء ٢١٤
- د - آية النشوز ٢١٥



- أحكام السّجن في الإسلام ٢١٩
- ١ - تاريخ السجن ٢٢١
 - أولّ سجن أسّس زمن عمر بن الخطاب ٢٢٣
 - السجن في زمن أمير المؤمنين علي عليه السلام ٢٢٥
 - ٢ - فلسفة واقسام السجون ٢٢٦

- ١ - السجن الايدائي ٢٢٧
- ٢ - السجن الاصلاحى ٢٢٧
- ٣ - السجن الاحتياطى ٢٢٨
- ٤ - السجن التأديبى ٢٢٨
- ٥ - السجن السياسى ٢٢٨
- ٦ - السجن الاستحقاقى ٢٢٩
- ٧ - سجن الحفظ ٢٢٩
- ١ - السجن الانتقامى ٢٣٠
- ٢ - السجون المعدة لقمع التحرر ٢٣٠
- ٣ - السجن لعزل القيادة عن القاعدة ٢٣١
- ٤ - السجن لرفع المضايقات ٢٣١
- ٥ - السجن بسبب النزاهة ٢٣١
- ٣ - السجن من وجهة نظر القرآن الكريم ٢٣٢
- ٤ - موارد السجن فى الروايات الإسلامية ٢٣٤
- ٥ - التعامل الإنسانى مع المساجين ٢٣٦
- الطرح التاريخى لأبى يوسف لحماية السجناء ٢٤١

* * *

- الحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٢٤٣
- تفسير الآيات ٢٤٨
- خطوة مهمة فى طريق إجراء الأحكام ٢٤٨

- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الروايات ٢٥٥
- وهنا ينبغي الالتفات إلى عدة نكات ضرورية ٢٥٦
- جهاز الحسبة والمحتسب في الحكومة الإسلامية ٢٦١
- توضيح ذلك ٢٦١



- الركن الرابع: التربية والتعليم ٢٦٧
- ١ - التربية والتعليم في الإسلام ٢٧١
- ٢ - أهمية العلم لا تنحصر بالعلوم الدينية ٢٧٩
- ٣ - تعلم العلوم المفيدة في الروايات الإسلامية ٢٨٣
- ٤ - مقام المعلم في الإسلام ٢٨٩
- ٥ - التعليم المباشر وغير المباشر ٢٩٣
- ٦ - صلاة الجمعة وآثارها التربوية ٢٩٥
- ٧ - الآثار الثقافية لمؤتمر الحج العظيم ٢٩٨
- ٨ - تأثير المساجد والأماكن المقدسة ٣٠٠



- دور الصحف والمجلات في الحكومة الإسلامية ٣٠١
- تفسير وإنتاج ٣٠٦
- أهمية الكتاب والقلم في الروايات ٣١١
- وصايا مهمة للحكومات الإسلامية ٣١٣
- تشكيل المكتبات ٣١٥

* * *

- ٣١٩ القوى الدفاعية والقوى المسلحة.
- ٣٢٤ تفسير وإستنتاج.
- ٣٢٤ روح الجهاد، دفاع لاغزو.
- ٣٣٧ الجيوش المنظمة والتعبئة الجماهيرية.
- ٣٤١ السبق والرماية.

* * *

- ٣٤٣ آداب الجهاد.
- ٣٤٦ أقسام الجهاد.
- ٣٤٦ ١ - الجهاد الابتدائي.
- ٣٤٧ ٢ - الجهاد لإخماد نار الفتنة.
- ٣٤٩ ٣ - الجهاد لحماية المظلومين.

* * *

- ٣٥١ الحكومة الإسلامية والسلام.
- ٣٥٤ تفسير وإستنتاج.
- ٣٦٠ النتيجة.

* * *

- ٣٦٣ أسرى الحرب.
- ٣٦٦ تفسير وإستنتاج.
- ٣٧١ الأسرى في الروايات.



- علاقة المسلمين بغير المسلمين الاقليات الدينيّة والحكومة الإسلاميّة .. ٣٧٣
- تفسير واستنتاج ٣٧٦
- قصة «الجزية» ٣٧٨
- إختيار الأسلوب الأفضل في النقاش ٣٨٢
- الدعوة إلى أصلٍ أساسي مشترك ٣٨٥
- العيش المشترك مع إتباع الأديان الأخرى في الروايات ٣٨٨
- تعامل المسلمين مع غير أهل الذمة ٣٩١



- الحكومة الإسلامية والأجهزة الأمنية ٣٩٣
- قصة تجسس حاطب وسارة ٣٩٨
- قصة إستخبار خذيفة ٤٠٠
- المنظمات التجسسية في الروايات الإسلاميّة ٤٠٢
- إستراق السمع ٤٠٨
- التعذيب الجسدي لأخذ الإعترافات! ٤١٠
- سؤال: هل الغاية تبرر الوسيلة؟ ٤١٢



- الفهرس ٤١٥